سلسلة الدراسات التوثيقية 38



رجال من دار الريح

محمـد التجـاني عمر قـش

الطبعة الأولى 2023م

سلسلة الدراسات لتوثيقية (38)

رجــال مــن دار الرِيــح

محمد التجاني عمر قش

الطبعــة الاولـــى 2023م

اســم الكـــتــاب:

رجـــال من دار الريـــــح

المؤلف:

محمد التجاني عمر قش

الإيداع القانوني

........../2023م

الناشر: دار آريثيريا للنشر والتوزيع – الخرطوم – السودان

جوال: 121566207 249+ - 122094856 249+

البريد لإلكتروني: arithriaforpublishing@gmail.com

تاريخ النشر: الطبعة الأولى - 2023م

تقديـــم

طلب إلي الأستاذ محمد التجاني عمر قش، الأخ والصديق والزميل، الذي كان يسبقني بدفعتين في مدرسة خور طقت الثانوية، في النصف الثاني من سبعينيات القرن الماضي، وفي جامعة الخرطوم أيضاً في النصف الأول من ثمانينيات ذات القرن، أن أكتب تقديماً لسفره هذا الموسوم ب « رجالٌ من دار الريح «. وما كان لي بالطبع، أن أرد طلباً لهذا الأخ والزميل الفاضل، والإنسان المهذب والنبيل، والباحث المجتهد والمثابر، والمثقف الواعي والمدرك لدوره، والمرتبط ارتباطاً وثيقاً، وجدانياً وعقلياً بماضي وحاضر ومستقبل مجتمعه الصغير في بوادي شمال كردفان وأريافها ومدنها، انطلاقاً منها إلى ملامسة هموم وانشغالات وتطلعات سائر أرجاء الوطن الكبير: السودان. فله مني من الشكر أجزله، ومن العرفان أخلصه على ما أولاني من ثقة وتقدير معتبريْن.

على أنه ربما تبادر إلى بعض قراء هذا الكتاب، أن إقدامي على كتابة هذا التقديم لهذا السفر واحتفائي الشخصي به، يجئ فقط من قبيل ذلك المثل الذي يقول ما معناه: تشهد لجمال العروسة وتطري حسنها مزينتها وأمها وخالتها، وذلك على اعتبار أن المؤلف قد استشهد في كتابه هذا – على سبيل المثال – برأي لي في موضع ما من مواضع الكتاب، كما أنه جعل مقالاً لي منشور بعنوان: «عن غانميْ الطبقات الكُردفانييْن « أحد ملاحق الكتاب أيضا. وليس الأمر هو كذلك بتاتاً في الواقع، ولكن الموضوعية المحضة نفسها تحتم علينا أن نُقر بأن هذا السفر هو قمين بكل احتفاء وتقدير. فقد جاء لكي يسد ثغرة مهمة في التاريخ الاجتماعي لهذا الجزء العزيز من أرض سودان وادي النيل، ألا وهي منطقة «دار الريح» في ولاية شمال كردفان، التي ظل يتحاماها « المؤرخون الرسميون « والباحثون المدرسيون في سائر العلوم الإنسانية كما هو مُلاحظ بصفة عامة، وذلك لعدة أسباب، لعل من أهمها كون أنها لم تشتهر ككيان ذي هيكل سلطوي مركزي مستقل وواضح الملامح والمعالم ، على نحو ما كان عليه الوضع في سلطنتي الفونج والفور ، حيث أنها قد مثلت خصوصاً خلال جزء كبير من القرنين الأخيرين اللذين سبقا غزو إسماعيل كامل بن محمد علي باشا لأرض السودان في عام 1820م، عظمة تنازع بين تينك السلطنتين لبسط السيادة عليها.

أما المصطلح " دار الريح " لغوياً، فمعناه: بلاد الريح، أي اتجاه الشمال مطلقاً في عربية غرب

السودان بصفة عامة. والراجح أنهم أسموا الشمال ريحاً لأنه الاتجاه الذي تهب منه ريح الشمال الباردة خصوصا، مثلما أنهم أسموا اتجاه الشرق "صباح" لأنه الاتجاه الذي يكون منه شروق الشمس المؤذن بانبلاج الصباح، ونظراً للتلازم الموضوعي بين وقت الصبح واتجاه الشرق. وبهذه المناسبة، فإن المصطلح " دار الريح " يبدو أنه كان معروفاً ومستخدماً بذات الدلالة في سلطنة دارفور أيضا. ذلك بأن الشيخ محمد بن عمر التونسي قد ذكر في كتابه: " تشحيذ الأذهان بسيرة بلاد العرب والسودان: "دار الريح"، باعتبارها واحدة من الأقسام الإدارية لتلك السلطنة حين وصوله إليها في عام 1803م.

لقد أخذ الأستاذ محمد التجاني عمر قش زمام المبادرة في سفره هذا، فعمد إلى تدوين ما تناهى إلى سمعه أو اطلع عليه مكتوباً، من روايات وأخبار وحكايات ذات صلة بحركة الدعوة الإسلامية، والتعليم الديني، والفقه والقضاء والتصوف ورموزها في منطقة " دار الريح " بصفة خاصة. وحدد المؤلف هدفه من دراسته الأولية هذه، لكي يقرر بكل تواضع محمود قائلاً: "وفي هذا الصدد نود التأكيد على أن القصد هو إيراد معلومات أساسية عن بعض الرجال، بحيث نوفر مادة قابلة للتقصي والدراسة مستقبلا، من قبل المهتمين بهذا المجال" أ. هـ، كما ظل المؤلف يكرر رجاءه في أكثر من موضع من الكتاب إلى جميع من يعرف معلومة ذات صلة بتلك المباحث أن يمده بها.

أما منطقة "دار الريح" التي تدور حولها هذه الدراسة الرائدة حقاً في بابها ، حول سير وتراجم بعض رموزها وأعيانها في مجالات العلم والفقه والتصوف ، فهي بحسب تعريف مؤلفها نفسه: منطقة بارا الكبرى ومحافظة سودري، أو ما كان يُعرف بريفي دار الكبابيش وريفي دار حامد، الذي يتألف جل سكانه من قبيلة " دار حامد "الفزارية" بفروعها المختلفة ، بما فيها فرع "الفَراحنَة" الذين ينتمي المؤلف نفسه إلى بيت الزعامة فيه ، بالإضافة إلى بعض القبائل الأخرى المهاجرة إلى تلك المنطقة من شمال السودان خصوصاً ، والتي استوطنت منطقة سلسلة واحات "الخيران" مثل: الركابية ، والجوابرة ، والدناقلة، والبديرية، وغيرهم.

على أن النطاق المكاني للدراسة قد يتمدد إلى الشرق قليلاً من تلك المنطقة أحياناً، لكي يتناول سير عدد من الأعلام في ديار الجوامعة بالتحديد، بالإضافة إلى مساكنيهم من بعض القبائل الأخرى مثل: الشويحات، والبديرية، والهوارة، والجعليين، والمشايخة، والبزعة، والجمع وغيرهم.

وأما الحيز الزماني للدراسة، فيلاحظ عليه بصفة عامة أنه يبدأ في أبعد التواريخ المرتبطة بأحداثها إلى أواخر عهد الفونج، أي حوالي منتصف القرن الثامن عشر الميلادي فصاعدا، مروراً بعهدي التركية والمهدية، ثم فترة الحكم الثنائي، وصولاً إلى التاريخ المعاصر. ذلك بأن أقدم شيخ تاريخه معلوم بالنسبة لنا، ورد ذكره في هذا البحث مرتبطاً بسيرة بعض الأعلام المذكورين فيه، هو الشيخ " عبد الباقي النيل " الكاهلي، راجل " أم قرقور" بالنيل الأبيض. فهذا الشيخ " عبد الباقي النيل "، قد ورد ذكره عرضاً في كتاب: الطبقات لمحمد النور بن ضيف الله 1727-1810م، وذلك في معرض ترجمة ود ضيف الله للشيخ "عبد الله ود العجوز" باعتباره أحد تلاميذ الشيخ عبد الله ود العجوز المذكور.

لقد شدني عنوان هذا الكتاب في الواقع، واجتذبني بقوة للاطلاع على محتواه، بدافع ذاتي أو عاطفي إن شئت. ذلك بأنني أنا الآخر من أبناء " دار الريح "المعنية. ففيها نشأت وترعرعت، وقضيت كل طفولتي وصباي الباكر بين ربوعها وكثبانها العفر. ثم إنني خاصةً ، قد أتيحت لي الفرصة كغيري من أبناء معلمي المدارس الابتدائية في أرياف السودان سابقاً ، فتجولت مع الوالد عليه رحمة الله وبقية أفراد الأسرة ، بين عدد معتبر من قرى دار الريح من أقصاها إلى أدناها ، حيث عمل أبي مدرسا ثم ناظراً بمدارسها من لدن " شريم الكرامشة" شمالاً ، إلى " تفنتارة" جنوباً ، ومن أم دم حاج أحمد شرقاً إلى مدينة الرهد غرباً، وما بين ذلك من عدد آخر من القرى مثل: أم صميمة، وكجرت "المزدلفة"، والزريقة القيزان، وحمدان، والزريقة الفكي ، فصار لنا فيها جميعاً ، معارف وأهل وأصدقاء وتلاميذ كثر للوالد، ما يزالون يراعونه حقه من المودة والوفاء والذكرى الطيبة إلى الآن.

وما زلت أتذكر، كما يتذكر الكثيرون من أبناء جيلي، ذلك المقطع الشجي من غناء الجراري الذي يمجد " دار الريح " ويمتدحها قائلاً:

دار الريح تاريها
مشتولة المنقة فيها
بشيل الجوز بسقيها
وبحاحي الطير ما يجيها

كما أنني أتذكر – والشيء بالشيء يُذكر – أننا عندما كنا تلاميذ صغاراً بمدرسة أم دم حاج احمد الابتدائية في حوالي السنة الثالثة أو الرابعة، أصدرنا صحيفة حائطية أسميناها " دار الريح " هكذا. كنا نحررها نحن ثلة من أبناء فصلنا النابهين، بينما كان يخرجها لنا فنياً، ويرسم لنا لوحاتها، ويضع لنا خطوطها، أخونا وزميلنا التجاني عبد الحافظ الأصم حياه الله، الذي كان مشهوراً بجودة الخط مثل أبيه الفكي عبد الحافظ، وجده أحمد أفندي رحمهما الله تعالى.

ولذلك فإن كل سطر خطه يراع المؤلف في هذا الكتاب، يعني لي أنا شخصياً الكثير، معرفياً وثقافياً واجتماعياً، بل إنني في الواقع قد طرقت أذني أطراف كثيرة من جل الروايات والمعلومات التي أوردها الأستاذ محمد قش هاهنا بطريقة أو بأخرى، فقد كنت منذ الطفولة حلس مجالس الوالد عليه رحمة الله وأصدقائه وأخلائه من جدودنا واعمامنا الذين مضوا إلى دار الخلود، فضلا عن بعض الروايات التي سمعتها أو اطلعت عليها لاحقا. غير أنني أحمد للأستاذ قش بالطبع، اهتمامه بتلك الروايات والمعلومات، وجمعها، وتنقيحها، وسلكها في سياق سردي سلس وممتع، وقابل للتعاطي العلمي النقدي معه، بوصفه جزءً من التاريخ الاجتماعي والثقافي الباذخ لتلك المنطقة، والذي ما يزال في تقديرنا، في مسيس الحاجة إلى المزيد من البحث والتنقيب، من أجل الكشف عن كنوزه الباهرة، كما دعا المؤلف نفسه إلى ذلك محقا.

فالشكر الجزيل نزجيه مجددا للأستاذ محمد التجاني على إصدار هذا السفر المفيد والممتع، وهنيئاً لعامة القراء به.

الدكتور السفير/ خالد محمد فرح الفحل
يوليو 2020م

(1) توطئة

في يوم شديد البرد، من عام 1999، حملتني ناقة وجناءُ حرفٌ لزيارة جدي الفكي الأمين ود عيسى ود الناير في حلة الفكي، وامتدت بنا الرحلة، فحظينا في ذات اليوم بزيارة شيخنا الحاج عيسى يوسف التوم في قرية الزرايب. هذه الرحلة ظلت عالقة في الذاكرة إلى يومنا هذا؛ وذلك لأنني استقيت خلالها معلومات يندر أن تتوفر من غير هذين المصدرين. فكلا الرجلين خرج من دوحة وارفة ضاربة جذورها في التقوى والصلاح، وكلاهما ينتمي روحياً لمسيد الفكي الناير الذي ظل ينشر القرآن والعلم الشرعي والفقه في مساحة واسعة من دار الريح عبر أبنائه وتلاميذه الذين حملوا الراية من بعده، وبذات القوة والإخلاص، فخرّجوا أئمة مشهوداً لهم بالورع والسعي في الإصلاح بكل ما أوتوا من قدرة وحنكة. وهنالك زيارة إلى أخرى إلى ذات الأماكن، جلسنا فيها إلى عمنا الشيخ الجزولي ود عبد الله ود الفكي عيسى الذي اتحفنا بمعلومات ثرة عن الرجال الذين عاشوا في تلك البقعة، وعن تأثيرهم في مسيرة الحياة العامة لسنين عدداً.

تذكرت تلك الزيارات عندما طلب مني أحد الشباب، أن أكتب حلقات عن رجالات دار الريح؛ خاصة عن جدنا الفكي عيسى ود الناير، ذلكم الرجل الأمة الذي ترك من الأثر والإرث الشيء الكثير، فهو منهل عذب ما زلنا، في تلك الديار، ننهل منه حتى يومنا هذا. وبما أن الأمر يتعلق بالتوثيق كان لازماً علينا تسليط الضوء على الوضع العلمي في المنقطة بشكل عام حتى تكتمل الصورة. وفي هذا الصدد نود التأكيد على أن القصد هو إيراد معلومات أساسية عن بعض الرجال بحيث نوفر مادة قابلة للتقصي والدراسة مستقبلا من قبل المهتمين بهذا المجال.

عموما، كانت خلاوي القرآن تنتشر في كثير من القرى، في دار الريح، منها مسيد الفكي الناير في حلة الفكي، ومسيد الفكي يوسف ود التوم، ومسيد الشيخ أحمد ود بيوضة في نكور؛ ومسيد ود كدام في أم حصحاص؛ ومسيد مولانا الشريف عبد المنعم في أم سعدون الشريف؛ وفي دار العريفية كان مسيد الحاج اللين، وإلى الشرق توجد خلوة الشيخ الرشيد في الفرجاب، وخلاوي الشيخ مركز الدين في الشوّق والشيخ أحمد ود أقروب في الرهد ومسيد الشيخ أبّا عيسى في البشيري وكان لعيال شبو في الطويل باع طويل في نشر القرآن. أما خرسي، بجوار بارا، فهذه مدرسة علمية قائمة بذاتها يرجع إليها الفضل الكبير في نشر التصوف والفقه والقرآن والفتوى، ليس فقط في دار الريح، بل على نطاق يمتد حتى دول الجوار غرباً. كل هذه الأماكن قامت بجهد كبير في تعليم الناس وتبصيرهم

بأمور دينهم وكانت في ذات الوقت بمثابة مأوى لكثير من طلاب العلم والدارسين يؤمها الشيوخ من كافة بقاع السودان؛ خاصة من دارفور وشرق كردفان ومن دار الجوامعة حتى اشتهر منهم نفر كريم مثل الشيخ عمر ''مرو''، والشيخ آدم البرقاوي والشيخ المسلمي من شرق النيل والفكي آدم ود البشير وشيخنا موسى عبد المجيد الذي أصبح إماماً لمسجد الأبيض الكبير فيما بعد. وقد جذبت دار الريح عدداً من العلماء الشناقيط الذين أسهموا بقدر كبير في نشر العلم في تلك البقاع؛ الأمر الذي مهد الطريق لتقبل الناس للتعليم والدراسة النظامية في ذلك الوقت المبكر.

في هذا المقام، أود من الإخوة الكرام، تزويدي بما لديهم من معلومات، إسهاماً في تنوير الشباب بماضي هذه الديار، سيما وأن الحديث سوف يمتد؛ ليشمل كل الذين عاشوا في منطقتنا، دار الريح، وكان لهم أثر مشهود. هذه الحلقة تعتبر مجرد مقدمة بانتظار مزيد من الإضافات منكم.

(2) لمحة عن دار الريح

في المقام الأول أتقدم بجزيل الشكر والعرفان لكل الإخوة والأخوات، الذين قدموا لي المعلومات التي تتعلق بهذه المحاولة التوثيقية، التي نريد من خلالها تقديم معلومات أولية عن الرجال، الذين أثروا الحياة العلمية في دار الريح بشكل عام. وأود أيضاً التأكيد على أهمية ما وقفت عليه من معلومات ثرة، تلقيتها من شيخنا الحاج عيسى يوسف التوم، رحمه الله وغفر له وأسكنه فسيح جناته، في زيارتي التي أشرت أليها آنفاً. والجدير بالذكر، أن شيخنا الجليل قد أعطانا مؤشرات مفتاحية عن كثير من الخلاوي التي كانت قائمة في تلك المنطقة الواقعة في محلية بارا الكبرى، وعن الرجال الذين نشأت بجهدهم تلك المراكز الدينية حتى صارت منارات هداية يأوي إليها طلاب العلم من كل حدب وصوب فيجدون فيها المأوى والمأكل والمشرب ويطيب لهم المقام فينصرفوا لحفظ كتاب الله وتجويده وتعلم أصول دينهم الحنيف.

من جانب آخر، أفادني أستاذنا الراحل البروفسور الأصم عبد الحافظ أحمد، عليه الرحمة، وهو من المختصين في مجال الجغرافيا الثقافية؛ خاصة انتشار الإسلام وأثره على البيئة والمجتمع في السودان الأوسط، فقد ذكر لي أن من بين أكبر أربع وعشرين خلوة قرآن في السودان، قبيل المهدية، كانت هنالك اثنتي عشرة منها في شمال كردفان. وفي هذا الصدد ثمة سؤال يطرح نفسه: ما هي العوامل التي نتج عنها كل هذا العدد الكبير من المراكز الدينية الرائدة في هذه المنطقة على وجه التحديد؟ وفي محاولة للإجابة على ذلك أود لفت النظر إلى بعض الحقائق البسيطة أولها أن هذه المنطقة قد استعربت وحسن إسلامها، منذ وقت مبكر، بعد دخول العرب إلى السودان، من البوابة الغربية على وجه التحديد، عبر شمال افريقيا وغرب السودان؛ نظراً لارتباط شمال كردفان بسلطنة الفور التي فتحت الباب على مصراعيه لتدفق كوكبة من العلماء والمشايخ، وحفظة كتاب الله، من الذين قدموا من الأندلس والمغرب العربي ومصر، فتأثر بهم سكان المنطقة الذين رحبوا بالقادمين إليهم من مختلف الإثنيات والأعراق، ونشطت حركة العلم وعلى وجه الخصوص تحفيظ القرآن وتدريس المذهب المالكي، مع انتشار التصوف فنجد من الطرق التجانية والسمانية والقادرية والإسماعيلية والختمية.

وعلاوة على ما ذكر أعلاه، فإن دار الريح منطقة صالحة للسكنى والعيش؛ لأنها ظلت مستقرة نسبياً عبر كل الحقب، سيما وأن مناخها وطبيعتها تساعد على سهولة العيش والتحرك، وهي ترحب بكل قادم إليها، وتقدم فرص عمل متنوعة، من زراعة ورعي وتجارة، وأعمال أخرى تناسب كل الناس.

من جانب آخر جذبت شمال كردفان، أو بالأحرى دار الريح، بعض أكبر مشايخ الإسلام من الشمال وعلى رأسهم مولانا محمد ود دوليب في خرسي، وأجداد الشيخ إسماعيل الولي في الأبيض، والشريف عبد المنعم في أم سعدون الشريف، الذي قدم إلى السودان من مصر، عبر الصحراء بعد سياحة لمدة ليست بالقصيرة. كما قدم كبار السادة الشناقيط من أمثال الشريف كرام الذي درس عليه كبار رجالات المنطقة في بارا حيث استقر وأنشأ ما يشبه المعهد الديني لتدريس الفقه، وممن تتلمذ على يديه جدنا الفكي عيسى ود الناير وغيره كثر. وفي وقت لاحق قدم مشايخ آخرون من بلاد شنقيط؛ مثل الشريف محمد عمر، والشيخ حماه الله. أما العلاّمة الشيخ محمد السالك ولد خي، دفين (المزروب)، فقد تتلمذ عليه نخبة من العلماء منهم العلامة موسى عبد المجيد الجامعي إمام المسجد العتيق بالأبيض سابقاً، والشيخ عبد الرحيم البشير البزعي وغيرهم كثر، رحم الله الجميع.

وتجدر الإشارة إلى ما أورده المؤرخ الفحل الفكي الطاهر في كتابه عن تاريخ وأصول العرب بالسودان، حيث ذكر أن الأمير إدريس، جد الجعليين، قد دخل السودان عن طريق غرب النيل وحل ضيفاً على عرب فزارة «دار حامد» في منطقة الخيران، فاستقبل بالسرور والترحاب لكونه من سلالة العباسيين، فأقام بينهم وجعلوه إماماً وحكماً ومن المؤكد أنه قد نقل إليهم شيئاً من العلم الشرعي؛ لأنه كان قادماً من مراكز الإشعاع الإسلامي في ذلك العصر في بغداد ومصر وغيرها من مدن المشرق.

وعلى إثر ذلك قامت مراكز دينية كثيرة في شمال كردفان ووسطها، مثل مسجد الشيخ إسماعيل الولي في الأبيض، ومن بعده دليل، ومسجد الشيخ ود دوليب في خرسي، بالقرب من بارا، ومسجد الشريف عبد المنعم في أم سعدون الشريف، والمنا أبو البتول في التيارة، وخلوة الشيخ الرشيد في الفرجاب، والشيخ محمد صالح في أم عش، ومسجد الشيخ الناير في أم بعاشيم، وود كدام في ديار المجانين، وخلاوي الفكي التلب أم دايوقة في شرق بارا، ومن بعد ذلك ظهرت خلاوي الشيخ البرعي في الزريبة، وقد كان لتلك المراكز الدينية، أثر كبير في نشر العلم الشرعي والقرآن الكريم وتعليم الناس مبادئ اللغة العربية والخط العربي. ومن أجلّ الأعمال التي كانت تقوم بها هذه المراكز تسوية الخلافات بين القبائل والأفراد وبالتالي أصبح القائمون عليها يتمتعون بقدر كبير من التقدير والاحترام، والنفوذ أحيانا حتى لدى الحكام. ويمكننا القول إن دار الريح كانت قبلة للعلماء والدارسين حيث أقامت بها أعداد كبيرة من سكان غرب إفريقيا، خاصة القرعان، فنشروا القرآن وقد كان من بينهم العالم مثل الشيخ عمرو، الذي وفد إلى السودان من شمال مالي، بعد أن غزت فرنسا تلك الديار، ودكت الممالك الإسلامية التي كانت قائمة هناك. أكرر طلبي لكافة القراء الكرام بأن يمدوني بما لديهم من معلومات، مع شكري وتقديري.

(3) انتشار الخلاوي في دار الريح

هنالك عوامل عديدة أسهمت في نشأة وانتشار الخلاوي في منطقة دار الريح، بيد أن موقع هذه المنطقة، على مقربة من طريق الحج الإفريقي ودرب الأربعين، بالغ الأثر في قدوم علماء أجلاء من غرب إفريقيا ومصر وبلاد الحجاز، وهؤلاء بدورهم جلبوا معهم كتب متنوعة في مجال الفقه، خاصة المذهب المالكي، والتصوف والسيرة النبوية، وكتب أوراد الطريقة التجانية واللطائف وغير تلك من الكتب الإسلامية، التي كانت تناسب ذلك العصر وطريقة التعليم.

وكما ذكرنا فإن بعضاً من أولئك الرجال قد استقر لبعض الوقت وعمل إما بتدريس الفقه مثلما الحال للسادة الشناقيط، أو تدريس القرآن بالنسبة للقرعان والبرقو، ونضرب مثلاً بالشيخ آدم البرقاوي الذي تولى التدريس والتحفيظ لفترة طويلة بمسيد الفكي عيسى ود الناير في حلة الفكي، جنوب دميرة، فحفظ على يده رجال عظماء، منهم أبناء الفكي عيسى وأخوته، وعمنا عبدو عمر قش، وكثير من المشايخ الذين عملوا فيما بعد بتدريس القرآن، من أمثال عمنا الفكي مهدي ود اللازم، وقد عاش الفكي آدم البرقاوي حتى أوائل القرن العشرين حسبما روى لنا بعض تلاميذه.

ومما هو جدير بالذكر أن بعض تلك الخلاوي أو بالأصح المراكز الدينية، قد أنشئ على نفقة بعض ميسوري الحال من الرجال. ويمكن أن نذكر هنا خلوة الشيخ أحمد بيوضة التي كانت في نكور، وهي قرية صغيرة بين قريتي القاعة ودميرة، وسط دار الريح، حيث أنشأها في الأصل الشيخ مدني ود كارور، وقدم إليها الشيخ أحمد بيوضة البزعي، من مليحة بالقرب من بارا وحفظ القرآن على يديه أكابر الرجال، حتى بلغ عددهم ما يربو عن الألف، حسب رواية الحاج عيسى يوسف، ومن هؤلاء الشيخ أحمد بليلة جاد الله، المشهور بود أقروب، وسنعود إليه بالتفصيل في وقت لاحق، ومن تلاميذ الشيخ بيوضه الفكي كوكاب عبد الله ود عطية الله، وسلامة ود حامد، ومحمد تمساح سيماوي، ناظر عموم دار حامد، عليهم رحمة الله جميعاً. وممن تولى شأن التدريس، في خلوة الشيخ بيوضة في نكور، الشيخ حمد النيل الجمري، من منطقة البحرية في دار الجوامعة، وسار بالخلوة سيرة حسنة حتى انتقل إلى قرية أبو كروية، غرب القاعة، حيث توفي ودفن هناك.

ويلاحظ أن بعض هذه الخلاوي قد نشأن أولاً في مناطق ذات طبيعة صعبة ونشير هنا على سبيل المثال إلى مسيد الشيخ ود أقروب، في منطقة الرهد، بمحلية دميرة، فعندما قدم الشيخ إلى تلك البقعة لم يكن بها ماء، فحفر البئر ثم بنى المسيد الذي صار من أكبر خلاوي تحفيظ القرآن في دار الريح. ومن تلك المناطق القاسية، منطقة النهد في الجبال البحرية، فقد قدم إليها الشيخ محمد ود الريح السنهوري

من أم درمان وأقام بها وبنى بها مسيداً، وفد إليه الطلاب والمريدين، من كل حدب وصوب، فتحولت تلك المنقطة الجرداء إلى مزار ومركز حضري بفضل الله. ومن تلك الخلاوي أيضاً مسجد الشيخ ود كدام في أم حصحاص، غرب المزروب، وهذه منطقة معروفة بشح المياه، ولكن مع ذلك تحول مسيد ود كدام إلى منارة مزدهرة، عمل بها مشايخ كبار منهم عيال ود كدام نفسه، والفكي يوسف ود عبد المنان، والفكي الأمين ود أحمد والفكي عينة ود عيسى، وكل هؤلاء من منطقة الخيران، ودرس بذلك المسيد طلاب كثر تبوأوا مراكز مرموقة في كردفان.

في النصف الثاني من القرن العشرين، بدأت المدارس النظامية تؤسس في شمال كردفان، بدءاً من بارا، وبعدها خور جادين والبحرية، والمقنص والمرّة؛ ونتيجة لذلك تحول الطلاب إلى التعليم الحكومي، تحت إغراء الحصول على الوظائف الحكومية، وتبعاً لذلك اضمحلت بعض الخلاوي وضعفت واختفي بعضها تماماً. وفي المقابل استمر عطاء بعض تلك المراكز وازدهر وتطور حتى تحول إلى معاهد دينية مرموقة مثل خلوة الشيخ ود دوليب في خرسي التي أصبحت كلية للقراءات يرفدها الأزهر الشريف بالمعلمين الأكفاء. ومثل آخر هو خلوة الشيخ عبد الرحيم البرعي في الزريبة فقد طبقت شهرتها الآفاق؛ فهي لم تعد مجرد مركز علمي، بل هي في واقع الأمر مركز إشعاع حضاري وإنتاجي واقتصادي كبير.

وقد ظهرت حديثاً مراكز جديدة مثل مجمع مصابيح الهدى الخيري لتعليم القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، بقرية سراج في محلية بارا، وقد أحرز المركز الأول في التعليم الديني على مستوى السودان كافة. ومن اللافت للنظر أن هذه الخلوة الرائدة تستوعب ألف وسبعمائة طالب وطالبة وتقدم لهم السكن والإعاشة والتأمين الطبي، وتعلمهم القرآن وعلومه والفقه والحديث والسيرة النبوية واللغة العربية. وهنالك أيضاً، مسجد عرفات بالأبيض، وهذه المراكز هي التي تمد مدن السودان، بما فيها العاصمة المثلثة بحفظة كتاب الله وأئمة المساجد.

(4) تاريخ الخلاوي في دار الريح

تأسست معظم خلاوي دار الريح، إبان فترة الحكم التركي، أو قبلها بقليل، إما بتشجيع من سلطنة الفونج على عهد محمد أبو لكيلك، الذي حكم كردفان باسم السلطنة، علماً بأن العلم الشرعي قد لاقى رواجاً منقطع النظير في تلك الفترة؛ خاصة بعد قدوم مشايخ التصوف وبعض العلماء من مصر والعراق والحجاز. وقد أشرنا سلفاً إلى أن سلطنة الفور وفيما بعد المسبعات قد شجعت العلماء والمشايخ على الاستقرار في الأبيض وبارا، والمناطق الواقعة حولها بمنحهم الأراضي، وتقديم الدعم المادي والمعنوي، فقد منح المقدوم مسلم، عامل دارفور على كردفان، أسرة الشيخ ود دوليب أراضي واسعة في منطقة خرسي بالقرب من بارا، وأعفوهم من الضرائب، فتأسس هناك أول مركز ديني، وعمل على نشر الطريقة التجانية على وجه الخصوص.

وعندما قدم الشريف كرّام الشنقيطي إلى دار الريح، قبيل الحكم التركي بقليل، (1810-1830) رحب به شيخ قبائل دار حامد أمبدة دود أم دقينة، وأكرم وفادته، ومن المؤكد أنه أقطعه بعض الأراضي؛ لممارسة الزراعة والرعي، وزوجه من إحدى كريمات الأسرة. أستقر الشريف كرّام في منطقة الخيران، بين ظهراني الهبابين والعريفية، وتحديداً حول منطقة أبو قايدة، حتى وضع عصا الترحال في بارا، وأسس بها ما يشبه المعهد الديني، حسبما يروي حفيده الدكتور عمر بدوي أبو البشر، في كتابه القيم الموسوم «من كادوقلي إلى شنقيط». ولا يزال للشريف كرّم عقب في تلك المناطق ولينهم يعدون الآن ضمن قبيلة دار حامد بيد أن بعضهم قد ارتحل إلى جنوب كردفان والأبيض.

ومن جانب آخر عندما وصل الشريف عبد المنعم إلى ذات المنطقة في عام 1917، استضافه الناظر تمساح سيماوي، زعيم دار حامد، وسمح له بالإقامة في قريته التي عرفت فيما بعد بقرية أم سعدون الشريف، الوقاعة إلى الغرب من بارا، حيث استقر الشريف عبد المنعم وأقام مسجده وبدأ في نشر العلم والطريقة التجانية وقد عاش عمراً طويلاً وتخرجت على يده أجيال من العلماء والمشايخ وأفاد منه خلق كثير. ولا يزال أحفاد الشريف عبد المنعم يحملون ذات الراية.

من هذه الأمثلة يتضح لنا مدى تشجيع السلطات والإدارات للعماء والمشايخ مما ساعد على نشر العلم الديني وقيام قرى كبيرة أستقر بها الناس من أهل تلك الديار وغيرهم وتعزز النسيج الاجتماعي تبعاً لذلك وازدهرت أنشطة بشرية مهمة مثل زراعة السواقي والتجارة ونشط تبادل المصالح وتعلم الناس أمور دينهم ودنياهم من خلال وجود أولئك النفر الكريم.

لكن الخلاوي والمراكز الدينية تعرض لنكسة كبرى بحلول المهدية؛ خاصة أن بعض مشايخ المنطقة،

الذين تواصل معهم قبل إعلان مهديته، لم يقروا لمحمد أحمد بن عبد الله بأنه المهدي المنتظر، ومن هؤلاء الخليفة محمد ود دوليب في خرسي وقد توفي قبل ظهور المهدي وسيطرته على مقاليد الأمور في البلاد. ونظراً للتنافس المزعوم بين الخليفة عبد الله التعايشي والشيخ المنا إسماعيل، الذي ينتمي إلى المسعاداب وهم فرع من فروع الجمع، وعلى الرغم من وقفة الأخير القوية مع الثورة المهدية في بداياتها، إلا إنه لقي حتفه رحمه الله، على يد قوات المهدية بقيادة أبو عنجة، في قرية التيارة، وحز رأس الفكي المنّا بالسيف وحمل إلى الخليفة عبد الله في الأبيض، وبذلك انطفأت نار الخلوة التي ظلت عامرة لسنين عدداً.

ومن الذين طالتهم يد المهدية جدنا الفكي عيسى ود الناير أو إن شئت فقل أولاد الناير عموماً في حلة الفكي الكائنة في منطقة الخيران إلى الجنوب قليلاً من بارا. أما الفكي عيسى نفسه فقد عارض المهدي ابتداءً ولذلك بمجرد استيلاء قوات المهدية، أمر المهدي باعتقال الفكي فأرسل إليه مجموعة من العسكر وحمل مكبلاً بالقيود إلى الأبيض واصطحبه المهدي على تلك الحال في رحلته إلى فتح الخرطوم، وأودع سجن الساير، ومن ثم فرضت عليه الإقامة الجبرية في أم درمان على عهد الخليفة عبد الله إلى أن نفي إلى جبال المرخيات، غرب أم درمان، حتى معركة كرري، ولم يعد إلى دار الريح إلا بعد أربع سنوات من سقوط المهدية. وفي أثناء فترة حكم الختيم موسى، عامل الخليفة على كردفان، تعرض أبناء الفكي الناير لمذبحة بشعة راح ضحيتها ما يزيد عن عشرين رجلاً من حفظة كتاب الله والذاكرين، نتيجة وشاية كاذبة، فيما يعرف بدار الكتلة.

هذه الأحداث الفظيعة ألقت بظلالها على حركة التعليم الديني لبعض الوقت حتى عادت بعض المراكز لممارسة نشاطه لاحقاً، ولكن ليس بذات الزخم المعهود.

(5) تقابة القرآن

المثل الكردفاني يقول: «أنت قاعد في الأبيض وما عارف ود أبو صفية» فمن هو هذا الرجل الذي ورد اسمه في المثل؟ وحسبما تشير بعض المصادر، فإن الشيخ موسى هو رجل عالم، ومن حفظة كتاب الله، وقد أتى من المدينة المنورة، وأقام بمنطقة الدبة والغبش بالشمالية، وأم درمان، ثم هاجر إلى كردفان، حيث أستقر وطاب له المقام في المكان الذي نشأت حوله مدينة الأبيض الحالية، بعد أن كانت غابات كثيفة. أقام الشيخ موسي بذلك المكان واجتمع حوله الناس وكان يدرس القرآن وبعض علوم الدين. وتزوج الشيخ موسي أبو قصة وأنجب كثيراً من الأبناء والبنات، أكبرهم صفية؛ لذلك أطلقوا عليه لقب أبو صفية. وتعلم على يد الشيخ موسي أبو صفية كثيرُ من الطلاب من السودان والدول الأفريقية المجاورة، ومن طلابه الشيخ عبد الله والد السيد إسماعيل الولي، والشيخ إسماعيل الولي نفسه، كما أنه قام بنشر الإسلام في مناطق جبال النوبة الشرقية.

وتجدر الإشارة هنا أن كثيراً من القرى والبلدات في السودان عموماً، وفي دار الريح خصوصاً، قد نشأت أساساً حول «تقابة» القرآن، وارتبطت بمقدم أحد المشايخ وإقامته بها، وتأسيس مسيده؛ ولهذا تنسب معظم تلك القرى إلى الذين أنشأوها، مثل أم سعدون الشريف، ورهد ود أقروب، وزريبة البرعي، ودميرة النوم، وهشابة ود المراد وقفلة الشيخ الجزولي، حيث يقيم الشيخ الأمير ود الشيخ الجزولي، وغير ذلك كثير. كما أن المقابر، في معظم القرى والمدن، تنسب إلى بعض المشايخ؛ مثل مقابر دليل في الأبيض، ومقابر أبّا حمد في مينة بارا، ومقابر برّام الحمر بالقرب من طيبة زعيتير، ومقابر أبو زوايد في دميرة، وبريمة الرغوم، بين بارا والأبيض، والنور أبو علي، شمال بارا.

وفي حوالي عام 1775 تقريباً، نشأت مشيخة الجوابرة في مدينة أسحف، إلى الجنوب الغربي من بارا، حول نار القرآن، حيث كان يقيم الخليفة مساعد عيسى ود محمد عبد الرازق، بعد حصوله على صك ملكية لتلك الأرض من السلطان محمد الفضل، سلطان دارفور، فازدهرت أسحف، وأقام بها عدد من الأسر الكريمة حتى دكتها فلول المهدية، في عام 1882؛ نظراً لمعارضة الخليفة لدعوى المهدية! وبعد ذلك انتقلت الخلوة إلى البشيري التي صارت قرية كبيرة أيضاً، كما سنوضح لاحقاً.

وبالمثل عندما حل الشيخ مركز الدين والد الشيخ المبارك بقرية الشوق، قادماً من أم ضبان وأم هجليج، لم يكن بتلك القرية، سوى بيوت تعد على الأصابع، فرحب به أبناء عمومته من الأهالي وأكرموا وفادته، وعلى رأسهم الشيخ البلة الشيخ البانور. وبعد استقراره في تلك البقعة شرع في تأسيس الخلوة والمسجد، وحفرت الآبار، وأوقدت تقابة القرآن وبفضل الله تحولت الشوق؛ خاصة في

عهد الشيخ المبارك، إلى منطقة عامرة، وأصبحت مزاراً لكثير من الدارسين والمريدين وأصحاب الحرف والأعمال ولها سوق كبير.

ومن القرى التي تطورت بعد أن وصل إليها أحد المشايخ قرية «أم كتيره» بالقرب من الأبيض، حيث استقر بها القطب التجاني المعروف والمعمر، الشيخ عبد الله راجل أم كتيره، وهو من المعمرين وقد حفظ القرآن في مسيد الشيخ الرشيد في الفرجاب، وبعد ذلك رحل إلى قريته التي عرفت باسمه، حتى وافاه الأجل مؤخراً في الأبيض. وقد كان نعم الرجل المسلم الذي جمع بين الشريعة والحقيقة والطريقة التجانية، وترك بصمات واضحة، ليس في قريته فحسب، بل في كل أرجاء كردفان. وبالطبع لابد لنا من ذكر قرية الحاج اللين، في ديار العريفية، بدار حامد، إذ لا يزال مسيده هو قلب القرية النابض. وإذا اتجهنا شرقاً، لعلمنا ما كان لأحفاد الشيخ الكباشي، خاصة الخليفة الحبر ود الشيخ إبراهيم، من دور في توسع قرية الحاجاب، شرق جبرة الشيخ، فقد أصبحت واحدة من أهم القرى في تلك المنطقة، حيث يوجد بها مسيد الشيخ الكباشي، بعدما توفر بها مورد للماء للعذب، وهي تقع على الطريق الذي يربط الغرب بالعاصمة المثلثة.

وفي هذا السياق لابد من الإشارة إلى قرية البنية، التي تتبع حالياً لمحلية أم دم حاج أحمد، فقد اقترن اسمها بالشيخ المجذوب ود الشيخ محمد الصادق، فقد قدم إليها من ديار الجعليين، بعد أن حفظ القرآن وأخذ الطريقة السمانية على يد الشيخ عوض الله في حلة الصفيراية بالنيل الأبيض، وهي الآن قرية عامرة وبها كل المرافق التعليمية والصحية والمساجد، وإليها ينتمي الشيخ المقرئ الزين محمد أحمد. ومن تلك القرى أيضاً أم بغيلة الشيخ الزاكي، حيث عاش الشيخ محمد ود الزاكي، أحد أكابر تلاميذ الشيخ محمد ود دوليب، ومن أعلمهم في الفقه والعلم الشرعي عموماً، ومن الذاكرين ذوي القدم الراسخ في الطريقة التجانية. وقد عرفت أسرة الشيخ ود الزاكي بفرط الذكاء والحفظ، ومن رحمها خرج مولانا حافظ الشيخ الزاكي وغيره من علماء دار الريح وفقهائها. وما هذه إلا أمثلة بسيطة أو هي قيض من فيض في هذا الصدد.

كل هذه الأمثلة توضح أن مراكز التعليم الديني وحركة المشايخ وتنقلاتهم قد كان لها القدح المعلى في التطور العمراني والنشاط البشري والاستقرار والتعايش السلمي بين مكونات اجتماعية مختلفة؛ الأمر الذي عزز تماسك النسيج الاجتماعي وساعد على انصهار كثير من المجتمعات في بوتقة وحدة إذ ربطت بينهم قبلاً أواصر الدين ومن بعدها رابطة الدم والرحم والنسب؛ وكل ذلك إنما يؤكد أن المجتمع السوداني بأسره ذو مرجعية إسلامية راسخة.

(6) أثر الطرق الصوفية

الطرق الصوفية والدينية عموماً لها سلطانها القوي على الشارع السوداني اجتماعياً وسلوكياً واقتصادياً وحتى سياسياً وإدارياً! وتتنافس هذه الطرق، فيما بينها، على الشارع السوداني، ويساعدها في ذلك التنشئة الدينية في المجتمع نفسه، فالمواطن السوداني صوفي بالفطرة؛ ولذلك تجده ينجذب إلى مثل هذه الطرق ويحترم مشايخها والمنتسبين إليها عموماً. ومن جانبها تقوم الطرق بالتواصل الفعلي مع الناس عن طريق خدمات مفيدة تقدمها لهم مثل إنشاء المراكز الدينية، وكذلك الخلاوي لحفظ القرآن الكريم وتعليم الناس ما تصح به العقيدة والعبادة والمعاملات من علوم الشرع الحنيف. وبنظرة سريعة، عبر الحقب التاريخية، القديم منها والمعاصر، في السودان عموماً، وشمال كردفان أو دار الريح على وجه الخصوص، يتضح لنا بشكل كبير أن لمشايخ الدين دورهم المؤثر في المجتمع وفي الدعوة إلى الإصلاح سواء كان اجتماعياً، لفك الاشتباكات وتسوية الخلافات، أو سياسياً بنصح الحكام للسير عبر المنهج الإسلامي. ولعلنا نستشهد هنا بما فعله الشيخ إدريس ود الأرباب، الذي سافر أكثر من سبعين مرة، من مقره في العيلفون، إلى عاصمة سلطنة الفونج في سنار، لا يطلب شيئاً من لعاعات الدنيا لنفسه، بل ليشفع للمواطنين في بلاط السلاطين، الذين كانوا يكنون للشيخ كامل الاحترام والتقدير ويعملون بنصحه.

وفي العهد التركي، عهد إلى بعض البيوتات الدينية، في دار الريح، بتولي مهام إدارية مثل الإدارة الأهلية، وما يتصل بها من جمع الضرائب، ولم يكن المشايخ يباشرون تلك الأعمال بأنفسهم، بل يسندوها إلى بعض المقربين منهم مثلما فعل السادة الدواليب في منطقة بارا؛ إذ كان منهم الهادي ود صبر الدولابي ومحمد ود ياسين. يقول هارولد ماكمايكل في كتابه عن قبائل شمال كردفان وسطها "من ترجمتي" ما نصه: (بالإضافة إلى هؤلاء كان هنالك المعاونون وهم المسؤولون الوطنيون الذين يقيمون في رئاسة الحكومة ويرسلون إلى كل الجهات للمساعدة في جمع الضرائب. ظل هذا النظام ساريا لمدة (40) سنة وآخر من تولى منصب شيخ المشايخ هو محمد ياسين وهو من دواليب خرسي، من أسرة ذات نفوذ وقد تولى والده ياسين محمد دوليب هذا المنصب قبله لعدة سنوات. وقدعين محمد ياسين معاوناً في رئاسة الحكومة، وعين محمود دوليب نسّي ناظراً لخرسي، وآخر اسمه صلاح من الجوابرة من أسحف ناظراً لبارا، والطاهر الفكي بدوي ناظراً لأبي حراز، ورابعاً ناظراً للتيارة).

وعندما أضطر بعض رجال دار حامد وفرسانها إلى الهجرة إلى منطقة أم دخن في دارفور، عقب

مقتل شاكر، على يد رجال أمبدة دود أم دقينة، زعيم دار حامد، في تلك الفترة، سعى الشيخ الطيب ود جابر، من الجوابرة، لدى الحاكم التركي للعفو عن أمبدة، فأرسل وفد يتكون من أربعين شخصاً برئاسة الشيخ الطيب ود جابر، وعضوية السيد المكي ود السيد إسماعيل الولي، إلى أمبدة، الذي عاد إكراماً وتقديراً لأولئك النفر الكريم، ولكن الدفتردار غدر به وقتله بعد ذلك." أنظر كتاب من كادوقلي إلى شنقيط، للدكتور عمر بدوي أبو البشر".

ومع بداية ظهور محمد أحمد عبد الله المهدي، فإن أول ما قام به هو الاتصال بشيوخ الطرق الصوفية والمراكز الدينية في شمال كردفان، ومنهم الشيخ محمد ود دوليب، في خرسي، والفكي عيسى ود الناير في حلة الفكي، والسادة الإسماعيلية في الأبيض، فمنهم من أنكر دعوته مثلما فعل ود دوليب القائل: بيننا لا جمع الإله، فجمعنا دين الهدى يأباه، وقد توفي قبل استيلاء المهدي على الأبيض. أما الفكي عيسى فقد كان مصيره السجن حتى انتهت المهدية بعد كرري. وقد رأينا كيف مثلت قوات المهدية بالمنا إسماعيل أبو البتول في التيارة، على الرغم من وقوفه مع المهدية في أول أمرها، لكن قربه من المهدي أوغر صدر الخليفة عبد الله التعايشي فأمر بقتله!

ظل تأثير المراكز الدينية ورجالها قائماً بشكل قوي خلال فترة الاستعمار والفترات الوطنية المتعاقبة. وظل رجال الطرق الصوفية يمارسون نفوذهم الذي كان له أثر بالغ في الشارع السياسي، لاعتبارات متعددة، منها أن العقل السوداني بطبيعته صوفي؛ ولأن كثيراً من الأحزاب تقوم على الطرق الصوفية مثل؛ الاتحادي الديمقراطي، بجانحيه، من أتباع الميرغني والشريف الهندي، وحتى حزب والأمة والإخوان المسلمين لهم صلات قوية مع المراكز الدينية ورجال التصوف. ولعلنا نذكر في هذا المقام أن عمنا مشاور جمعة سهل، ممثل دائرة بارا الغربية في البرلمان، عام 1955 هو من ثنى اقتراح الاستقلال، ومن المعلوم أن الشيخ مشاور، خريج مسيد ود كدام، هو واحد من الذين خدموا الدين بإخلاص في شمال كردفان من خلال توليه إدارة الشؤون الدينية في الأبيض لفترة طويلة قدم خلالها كل ما يستطيع من عون مادي ومعنوي وإرشادي لكل خلاوي القرآن، دون منن أو أذى، رحمه الله. ولا يزال الناس يذكرون تلك المواقف المشرفة للشيخ يوسف ود بقوي التجاني وهو يطالب السيد إسماعيل الأزهري بإجازة الدستور الإسلامي من تحت قبة البرلمان في عام 1968.

إن التصوف وحب المنتسبين إليه وأهل التقوى والصلاح عموماً متجذر في نفوس السودانيين فما من حاكم في السودان، قديماً وحديثاً، إلا ويكن احتراماً للبيوت الدينية ورجالها، كما أن هناك بعض السياسيين يسترشدون بنصائح المتصوفة، ولقد سافر العديد من رجال التصوف لمقابلة جون قرنق قبل توقيع اتفاقية نيفاشا، بمن فيهم شيخا عبد الرحيم البرعي رحمه الله، وأكد لهم قرنق احترامه للصوفية في السودان.

(7) الخلوة في السودان

تعتبر الخلوة في السودان من أكبر المنارات الدينية، التي ساهمت في نشر الدين الإسلامي، وتحفيظ القرآن وتجويده، وتعليم النشء مبادئ الفقه؛ خاصة ما يتعلق بالطهارة والعبادات، والنظافة وحسن المعاملة، وتعويدهم على الزهد، إضافة إلى تعليم مبادئ القراءة والكتابة. بيد أن دور الخلاوي ظل يتعاظم مع تطور المجتمع السوداني، واتساع الرقعة التي تنتشر فيها الخلاوي، واضعين في الاعتبار الإقبال الكبير وحرص الناس على تحفيظ أبنائهم القرآن عملاً بقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «خيركم من تعلم القرآن وعلمه»، وطلباً لبركة القرآن والعلم الشرعي.

في واقع الأمر، الخلوة هي الوحدة الأساسية الأولى لتلقي العلم، وهي اللبنة القوية التي قام عليها التعليم في السودان، ماضياً وحاضراً. ولكن دور الخلوة لم يقتصر فقط على التعليم، مهمتها الرائدة، بل كما رأينا فقد تحولت بعض الخلاوي إلى ملاذات آمنة يأوي إليها أصحاب الحاجة والضعفاء في أوقات الشدة والعوز؛ فيجدون فيها المأوى والمأكل والمشرب، والإرشاد والإصلاح، فكم من ضالٍ اهتدى على يد شيخ صالح فتحول إلى مريد وناسك، ينقطع للذكر والعبادة، ويخدم المسيد بقدر ما يستطيع وحسب امكانياته. وعندما ضرب الجفاف دار الريح في ثمانينات القرن الماضي، لجأ كثير من الخلق إلى الخلاوي؛ فأطلق الشيخ البرعي مقولته المشهورة "الجنة جات مجلوبة" فهرع الخيّرون إلى تقديم يد العون للمحتاجين، حتى انقضت تلك المحنة.

والخلاوي تعد أيضاً مراكز تدريب للصغار على تحمل أعباء الحياة مستقبلاً، حسب البيئة التي يعيشون فيها. وعلى سبيل المثال كان الشيخ ود كدام في أم حصحاص يعلم التلاميذ أو "الحيران" مهارات الزراعة المطرية، وقد خصص لذلك مساحات واسعة من أراضيه، يمارس فيها التلاميذ زراعة الدخن؛ حتى ينتجوا ما يكفي الخلوة من مؤونة طوال العام؛ مما يساعد على الاستقرار، ومواصلة التعليم بكل سهولة ويسر وتكلفة لا تكاد تذكر أبداً. أما كبار الطلاب فكانوا يجلبون الماء على ظهور الدواب والجمال من أماكن بعيدة، مثل المزروب، حيث خصص يوم لسقيا المسيد، دون سخرة من أحد، بل من باب التكافل والتعاون على البر والتقوى، وتوزيع الأدوار، وكل ذلك يندرج تحت التدريب العملي، فيتخرج الدارس شخصاً مؤهلاً للعيش في تلك البيئة. وتشير بعض المصادر أن بعض الخلاوي، مثل خلاوي السنوسية في ليبيا، وخلاوي الشيخ الحاج عمر بن سعيد الفوتي، في غرب إفريقيا، كانت تدرب الطلاب على الجهاد وحمل السلاح ضد قوات المستعمر الفرنسي.

من جانب آخر، ظل شيوخ الخلاوي، ورجال الطرق الصوفية يقومون بدور الإصلاح بين الأفراد

والقبائل والجماعات، في حال نشوب النزاعات والصراعات القبلية، والإصلاح بين الأزواج وأفراد الأسر فيما يتعلق بالنكاح والطلاق، والميراث وما شابه ذلك من مسائل شرعية، الأمر الذي عزز تماسك النسيج الاجتماعي في كثير من مناطق البلاد؛ خاصة دار الريح التي لا تزال تتمتع باستقرار نسبي ملحوظ؛ نظراً لوجود كثير من الخلاوي الرائدة في هذه البقعة الطيبة. ومن الذين أوتوا الحكمة وفصل الخطاب من مشايخنا في دار الريح، الخليفة عبد الرحيم ود وقيع الله البرعي، ومولانا الشيخ الدرديري ود الشيخ جعفر، فقد عرف عنهما السعي لإصلاح ذات البين والتوسط والشفاعة في حالات الديات، وكم من شخص نجا من حبل المشنقة، وعادت الحياة إلى طبيعتها بين المتخاصمين، بفضل الله تعالى، وبجهد مخلص من أمثال هؤلاء الرجال.

بالإضافة إلى ما ورد أعلاه، كان العلماء والفقهاء من شيوخ الخلاوي يقدمون الفتوى الشرعية لمن يطلبها، وينصحون الحكام وزعماء الإدارة الأهلية فيما يتعلق بالجوانب الشرعية من الحكم وما من محكمة إلا وجد فيها فقيه ينتمي لأحد بيوت الدين المعروفة ليتولى الفصل في المسائل الشرعية، ومن هؤلاء عمنا الشيخ عبد الرحيم ود إدريس في محكمة دميرة، على أيام الشيخ عبده عمر قش، ومن بعد ذلك الفكي يوسف ود عبد المنان، وكلاهما من معلمي القرآن الكريم ولهم ارتباط وثيق بالخلاوي، سواء في دميرة أو حلة الفكي. ومن قبل كان أولاد الفكي الناير من أمثال الفكي عيسى، وعمر كريدم هم من يتولى الفتوى في كافة أنحاء دار حامد حسب وثيقة موقع عليها من كل نظار ومشايخ المنطقة ويعود تاريخها لما يزيد عن مائة وخمسين سنة. وقد كان الخليفة الدرديري والشيخ محمد ود الزاكي والفكي الهادي ود طلحة، تلاميذ الشيخ محمد ود دوليب، هم من يفتي الناس في أمور دينهم بإذن من الشيخ، رحمهم الله جميعاً.

الخلاوي ليست هي فقط مراكز للتعليم، بل لها دور اجتماعي واقتصادي عظيم لأنها توفر فرص عمل متنوعة لكثير من الرجال والنساء، فهنالك من يعمل في صنع الطعام، ومن يجلب الماء والحطب، والبناء، والخياط أو النساج قديماً، والتاجر والراعي، ومن تصنع البروش ومفارش الصلاة وغيرها من متطلبات الحياة في الخلاوي، لذلك يستطيع كل من يرتبط بالخلاوي أن يسكب قوت يومه ويتبادل المنافع مع الآخرين. لا يقتصر دور الخلوة في السودان على نشر التعليم ومحو الأمية الأبجدية وحفظ القرآن وتلقي علوم الفقه والحديث والتفسير، بل يشمل كذلك توفير سكن للطلاب الذين يتوافدون إليها من مختلف أنحاء السودان ومن كافة القبائل، وهذا ما ساهم في تفعيل دورها في الانصهار القومي، بين مختلف المجموعات.

(8) مقابر ومزارات في دار الريح

تعتبر الخلاوي من المؤسسات الرائدة في السودان، عملياً واجتماعياً، وهي تنتشر في كثير من المناطق، خاصة في الوسط والشمال والغرب، منذ وقت ضارب في القدم، يعود لعهد عجيب المانجلك، زعيم العبدلاب (1570-1611). وبحسب ما أورد الأستاذ الطيب محمد الطيب في كتابه «المسيد» أن أول خلوة، عرفت في كردفان، كانت في قرية «القفلة» التي تقع شرق مدينة بارا وبالقرب من أم دم حاج أحمد، ولا نعلم على وجه الدقة متى أنشئت تلك الخلوة. ومن الجدير بالذكر أن دار الريح قد زارها بعض رجالات السودان من الأشراف والعلماء ومنهم من توفي ودفن بها مثل الشيخ دفع الله ود مقبل جد العركيين الذي يوجد قبره في منطقة المليسة في شرق دار حامد. وفي ذات المنطقة توجد بئر سرّار، أحد أجداد قبائل الجوامعة والجعليين الذي دخلوا الأراضي السودانية عبر هذه المنطقة قادمين من صعيد مصر بقيادة الأمير إدريس. وهنالك مقابر الأشراف بين خرسي وبارا، كما أشرنا سابقاً.

عموماً، هنالك مقابر ومزارات كثيرة تنسب لرجال من الصالحين أفراداً وجماعات، ومنها، على سبيل المثال لا الحصر، قبر الفكي برّام الحَمَر، وزوجته حواء وهي أيضاً من الصالحات، وابنه محمد، بالقرب من طيبة زعيتير، التابعة لمحلية غرب بارا، وهو من الفراحنة، ويقال إنه من فخذ الزنابير، وله عقب في جنوب دارفور، وقد قابلت أحدهم ذات مرة، إلا أننا لا نعلم على وجه الدقة متى عاش الفكي برّام. وحسب بعض الروايات الشفوية المتداولة يقال إنه درس القرآن والعلوم الشرعية لدى أحد كبار المشايخ في منطقة أم قرقور بالجزيرة، حيث قضى هنالك عشرين عاماً، يدرس ويخدم الشيخ حتى أمره بالعودة إلى دياره، في قصة مشهورة تقول بأن الشيخ خرج مع تلميذه برّام من القرية، وبعدما سارا مسافة قصيرة، توقف الشيخ ودعا لتلميذه، ثم أشار إلى نار وقال له تلك قريتكم فما كان إلا وقت قصير حتى وصل برّام إلى بيت إمه وأبيه، والله أعلم.

وفي قرية مليحة، إلى الجنوب من بارا، عاش الشيخ ود أبارو، الذي قدم أصلاً من منطقة السيال بالقرب من المتمة، وهو أحد كبار العلماء، ويقال إنه التقى بالسيد محمد عثمان الختم، والد السيد الحسن أبو جلابية، الذي ولد في بارا، عند زيارته لكردفان. والشيخ ود أبارو من معاصري الشيخ محمد ود دوليب. وكان ود أبارو يفتخر بأنه قد أمّ كلا الشيخين في الصلاة، وقد اشتهر عموماً بالفتوى. وإلى الشمال من بارا، بالقرب من قرى مشقة وشق النوم، يوجد قبر الشيخ النور أبو علي، والذي ربما يكون من دار الجمع، غرب النيل الأبيض، وقد قدم إلى هذه المنطقة في زيارة للفكي الناير ود علي في أم بعاشيم، وتوفي وهو في طريق عودته إلى دياره توفي ولا يزال قبره يزار. وهنالك من يقول إن هذا الرجل هو من أحفاد الشيخ أبو جنزير، دفين الخرطوم، وقد قدم إلى المنطقة في مهمة صلح

بين بعض القبائل، أو سائحاً في سبيل الله، فأدركته المنية، ودفن في هذه المنطقة وصار الناس يدفنون موتاهم بجواره تيمناً. وتجدر الإشارة إلى أن اسم النور مشهور في عائلة أبو جنزير ومنهم الأستاذ الشيخ خليل أبو النور مما يعزز الزعم الأخير. وهنالك رأي أخر عثرت عليه أثناء البحث عن هذا الولي الصالح مفاده أن اسمه الشيخ النور ود محمد المكاوي ويعرف بالنور أبو علي في منطقة بارا، حيث توفي ودفن، وهو من الشكرية السبيقيين، والله أعلم.

وفي مدينة بارا نفسها توجد مقبرة الشيخ إسماعيل أبو عكاز، الذي يقال إنه بديري دهمشي، قدم إلى المنطقة في معية السيد المكي، وهنالك من يوقل إنه ينمتي إلى العركيين، وقد جاء سائحاً فأدركته المنية، فدفن في بارا، ومن المؤسف أن مقابر أبو عكاز قد تحولت إلى حي سكني باسم الصالحين. وتوجد في بارا أيضاً مقابر ود مغيرة، وأبا حمد، ولكننا لا نعلم متى عاش هؤلاء الرجال وليس لدينا أية معلومات أخرى عنهم.

ولابد لنا أن نذكر في هذا المقام الشيخ بحر أبو أم كلتوم في أم دايوقة التلب، شرق بارا، وهو أحد أكابر الأولياء وينتمي في الأصل إلى قبيلة الجوامعة. وهنالك أيضاً الفكي عون الله في قرية الحدّيد إلى الشمال من بارا وينتمي إلى الفراحنة، فخذ أولاد حزمة. وكل هؤلاء الرجال، رحمهم الله، وجزاهم عنا خير الجزاء بما قدموا من علم وإرشاد لأهل تلك الديار، قد عاشوا قبل فترة طويلة ولذلك لا تسعفنا الذاكرة الشعبية بشيء من المعلومات عنهم إلا النذر القليل، ولكن من المؤكد أنهم كانوا من الفضلاء الصاحين وإلا لما أتخذهم الناس مشايخ لهم، يدفنون موتاهم بالقرب منهم تيمناً.

ومن مشاهير الرجال في ديارنا سكان العلق، الذين توجد مقابرهم في قرية الغبشان بين دميرة والقاعة، وهم أحفاد الفكي محمدين، توفي ودفن ببارا، في فترة المهدية. ومن هؤلاء الفكي مدني ود آدم تقالة، وأخوه أبو القاسم وهو مدفون في قرية التمرة الواقعة شرق شرشار. ومن هؤلاء أيضاً وأشهرهم الفكي نيل أبو تمساح ود سلامة، وهو من أصحاب الفكي عيسى ود الناير، وكان مسيده في الكوكيتي. وهنالك محمدين ود عبد الله وقد درس عند الفكي الناير ود عليْ في أم بعاشيم. وضمن هذه الكوكبة الفكي كوكاب ولا تزال ذريته تسير على ذات النهج القويم وتعالج الناس بالقرآن الكريم وهم من أهل الفضل والصلاح.

وإلى الشمال من هذه المنطقة توجد مقابر عيال بلي، وهم من الفراحنة الأقاريب، في منطقة مجلدة، وهم أجداد وآباء الشيخ أحمد ود أقروب، وسنعود له بالتفصيل بإذن الله. وإلى الشرق قليلاً، وتحديداً في قرية البنية، الفليعات، يوجد قبر الشيخ بليلة ود عمرو جد أهلنا النواهية البلاليع والبرابيش والحجلاويين، ومنهم أيضاً الفكي أبو النور بالقرب من قرية عسيلة، شمال العاديك. ومن المعلوم أن شمال كردفان، وتحديداً دار الريح تضم رفات كثير من العلماء والمشايخ المشاهير والكبار، وسوف نتحدث عن كثير منهم في ثنايا هذه السلسلة، بحسب ما يتوفر لنا من معلومات موثقة بقدر المستطاع.

(9) رجال من دار الريح

مشاهــير المشــايخ

في فترة العقد الرابع وحتى الثامن من القرن المنصرم اشتهر رجال عظماء، أسدوا خدمة جليلة للتعليم الديني بما في ذلك تحفيظ القرآن وتدريس العلوم الشرعية من فقه وحديث، علاوة على علوم العربية مثل النحو والصرف والخط العربي، مما كان له بالغ الأثر في تبصير الناس بأمور دينهم وتأهيل كادر بشري متميز للعمل في المدارس الصغرى التي أنشأت في المنطقة مثلما هو الحال في دميرة والمقنص والمرّة وغيرها من القرى الكبيرة. فقد عمدت السطات التعليمة آنذاك إلى تدريب بعض حفظة القرآن والملمين بمبادئ الكتابة والقراءة، ودربتهم على أساليب التدريس النظامي، وقدمت لهم دروات تعليمية في الحساب واللغة العربية حتى يتوافق مستواهم مع مقاصد التعليم وأهدافه في ذلك الوقت. وتدرج بعضهم في سلك التعليم حتى صار ناظراً مثل الشيخ عبد الرحيم البشير ود الشايب دخري البزعي، من قرية مليحة، فقد تلقى تعليماً نظامياً في مدرسة بارا الغربية، في وقت مبكر، وحفظ القرآن بعد ذلك، ثم درس الفقه المالكي والحديث على يد الشيخ الشريف محمد السالك الشنقيطي، (دفين المزروب) ثم تدرب الشيخ عبد الرحيم على التدريس وعمل في كثير من المواقع وأصبح فيما بعد ناظرا لمدرسة خور جادين الأولية، هي أول مدرسة تؤسس خارج مدينة بارا، في منطقة دار حامد، وذلك بفضل من الله وبجهد مقدر من السيد عبد الله العريفي، مفتش بارا في ذلك الوقت، فقد كان حريصاً على تعليم أبناء المنطقة. بعد ذلك انتقل الشيخ عبد الرحيم البشير إلى مدينة الأبيض وصار أماماً وخطيباً لمسجدها العتيق، حتى أنتقل إلى الرفيق الأعلى وهو ساجد في صلاة الجمعة، نسأل الله أن يجزيه عن تلاميذه خير الجزاء وأن يجعل قبره روضة من رياض الجنة.

ومن المشايخ الذين تركوا بصمات واضحة وكانت لهم سيرة عطرة في دار الريح، عمنا الشيخ الوسيلة ود خمسين، من قبيلة المجانين، حول المزروب، فقد حفظ القرآن في مسجد الشيخ ود كدّام في أم حصحاص، وتعلم التجويد، ودرس القرآن، في خلاوي ود خمسين، وبعد ذلك نال قسطاً من التدريب على التدريس وعمل بالمدارس الصغرى، في دميرة بالذات، وقد رأيته في بارا، في منتص السبعينات، وقد كان قرآناً يمشي بين الناس، رحمه الله.

الشيخ مشاور جمعة سهل الذي ولد بمنطقة المزروب حاضرة قبيلة المجانين في العام 1914م. حفظ القرآن الكريم وهو صغير السن علي يد الشيخ محمد كدام. ثم درس الشيخ مشاور العلوم

الشرعية علي يد استاذه الشيخ محمد الزاكي. عمل بالرعي والزراعة والتجارة وأسس في بداياته خلوة (مدرسة) لتحفيظ كتاب الله. فاز بالتزكية عن دائرة دار حامد غرب، بمنطقة شمال كردفان، في أول انتخابات اجريت بالسودان حيث فاز فيها بالتزكية ممثلا للوطني الاتحادي. وهو من قام بتثنية اقتراح استقلال السودان من داخل البرلمان عام 1955م حيث ألقى كلمة ضافية سجلها التاريخ في سجلات التاريخ الوطني.اختير عضواً في المجلس المركزي خلال فترة حكم الفريق ابراهيم عبود. وبعد ذلك عمل بالشؤون الدينية والأوقاف بكردفان وكان مفتشاً لخلاوي القرآن بالإقليم وساهم بفضل الله في نشر وتحفيظ كتابه الكريم. اشتهر بجمال صوته وحسنه في تلاوة القرآن العظيم بأسلوب متميز أصبح اليوم مدرسة سار علي نهجها مشاهير القراء من الشباب حفظة القرآن ممن ذاع صيتهم.وتوفي إلى رحمة الله في العام 1995م.

ومن معلمي القرآن أيضاً عمنا أحمد ود الأمين ود المهدي من أحفاد الفكي النابر. حفظ القرآن مبكراً في مسيد الفكي عيسى في حلة الفكي، جنوب دميرة، ودرّس في كثير من المناطق شملت دار المسيرية، وريفي دار حمر، وريفي دار مساليت، ومنطقة الشطيب، شرق بارا، وعمل قبل ذلك في مدرسة دميرة الصغرى. كان يحفظ القرآن برواية ورش والدوري وحفص ولذلك طلب منه الخليفة الدرديري بالعمل في معهد خرسي بعد أن أستقر به المقام في مدينة بارا، حتى وفاته، رحمه الله.

ومن ضمن الرجال الذين اشتغلوا بتدريس القرآن الفكي يوسف عبد المنان الذي حفظ القرآن في مسجد الفكي التوم ود يوسف ثم عمل في مسجد ود كدام في أم حصحاص وبعدها اختير ضمن الذين تلقوا مبادئ العلوم الحديثة من نحو وحساب وظل لفترة يعمل بتحفيظ القرآن الكريم حتى التحق بالعمل في محكمة دميرة لتولي الأمور الشرعية؛ خاصة الأحوال الشخصية وقد عرف بالذكاء وعمل بالتجارة أيضاً في سوق العاديك. هؤلاء الرجال هم من وضع اللبنات الأولى للتعليم في دار الريح. ونذكر أيضاً الفكي الأمين ود أحمد ود عبد الخالق، الذي حفظ القرآن في مسجد الفكي عيسى ثم ارتحل إلى أم درمان وأنقطع للعلم والدراسة في مسجدها العتيق حتى تفقه في المذهب المالكي على يد كبار العلماء، وعاد لمنطقة الخيران، ثم شد الرحال لديار المجانين وعمل بالتدريس في مسجد ود كدام وبعض المناطق الأخرى من دار الريح، حتى وضع عصا الترحال في قريته "الرُقّابة"، شرق دميرة، وظل يعمل بالزراعة ويداوم على الذكر، وكان رحمه زاهداً متبتلاً وقد جلب معه من أم درمان مكتبة متميزة، حوت أمهات الكتب، ظل يحتفظ بها ويطالع فيها، حتى وافاه الأجل المحتوم ووري الثرى في مقابر أبو زوايد بقرية دميرة، عليه رحمة الله. ومثله تماماً شيخنا الحاج عيسى ود يوسف ود التوم، الذي حفظ القرآن في مسيد والده، على يد عمنا الفكي مهدي ود اللازم، ثم شد الرحال إلى أم درمان حيث حاز قدراً واسعاً من العلم الشرعي في مسجد أم درمان العتيق وغفل راجعاً إلى دار الريح

وأسس قرية الزرايب وظل يعمل بالتجارة والزراعة، ويتدارس الفقه وعلوم القرآن، مع من يزور المنطقة من العلماء مثل الشيخ الضرير، والفكي آدم، ود البشير وغيرهم. وقد كان الحاج عيسى مثالاً للزهد والورع والحرص على تعليم القرآن لمن حوله وظل على تلك الحال حتى انتقل إلى الرفيق الأعلى، ودفن في مقابر الفكي عيسى ود الناير، نسأل الله له الرحمة والمغفرة.

أما شيخنا موسى ود عبد المجيد الحراني، فقد حفظ القرآن في الفرجاب، شرق بارا، على يد الشيخ الرشيد الحراني، ثم مسيد الشيخ موسى أبو قصة بالنيل الأبيض. ودرس الفقه والحديث على يد الشريف محمد السالك بالمزروب، وعمل بتدريس المذهب المالكي حيث تتلمذ عليه كبار رجال المنطقة وزعمائها، من أمثال والدنا الشيخ التجاني عمر قش وبعض المشايخ في دميرة. ثم انتقل الشيخ موسى إلى الأبيض وكون مكتبة ضخمة تضم أمهات الكتب وأستمر في التدريس مع كونه خطيباً وإماماً لمسجد الأبيض الكبير حتى وفاته رحمه الله رحمة واسعة. وكان ميلاده عام 1905 بقرية « الزريقة القيزان»، وقد حفظ القرآن وهو في السادسة من عمره وتعلم حرفة الصياغة ثم هاجر لطلب العلم في مناطق النيل الأبيض ثم عاد إلى كردفان وقصد مناطق دار حامد للعمل التجاري واستقر نهائيا بالأبيض عام 1931م. وعند افتتاح مسجد الأبيض الكبير، عام 1932م، واصل في طلب العلم علي يد الشيخ عبدالباقي أبّو ودخل في سلك الطريقة التجانية على يد أحد علماء شنقيط – محمد السالك بن حي الحسين التجاني – وجددها علي يد الشيخ عبدالرحيم الرشيد من منطقة الفرجاب وعلى يد الشريف عبدالمنعم بأم سعدون وعلى الشيخ عبدالله آدم بقرية – أم كتيره. ونظراً للمعرفة العلمية التي ألم بها لقب بمفتي الأبيض ومفتي كردفان وشيخ علماء كردفان ويعد موسوعة في الإدارة الأهلية وامتاز بالتواصل الاجتماعي مع كل سكان مدينة الأبيض وقد أسس مكتبة عامرة في مختلف مجالات المعرفة بما فيها الفلسفات الغربية من ماركسية ووجودية لكي يرد بها على معارضيه وله دور واضح في انتشار الطريقة التجانية في مدينة الأبيض حتى وفاته عام1995.

ومن هؤلاء العظماء الفكي آدم البشير، ذلكم البحر الذاخر والعالم العلامة الذي تخصص في تعليم الكبار وتدريسهم أصول الفقه. وقد أدركته ورأيته في أواخر عمره عندما قدم من قرتيه شريم ميما لزيارة الوالد في بارا، فما كان إلا أن وقف له جميع الحاضرين وقبلوا رأسه فهو شيخهم في الدين.

ومن الذين عملوا بتدريس القرآن ونشر العلم الشريف أبو فليجة الخزرجي الأنصاري، قدم من شمال مالي ووضع عصا الترحال في قرية صنوبر، شمال بارا، في منطقة الخيران، حيث أسس مسيده وشرع يعلم الناس القرآن وأمور دينهم بينما كان يعمل بالتجارة، جزاه الله عنا خير الجزاء. رحمهم الله جميعا بقدر ما قدموا لهذا الدين ولأهله.

(10) انتشار التعليم الديني

كانت دار الريح، أو شمال كردفان عموماً، ولأسباب أشرنا لبعضها سابقاً، منطقة جذب والتقاء وتواصل، لعديد من المجموعات السكانية، من داخل البلاد وخارجها. وصارت تلك المنطقة أيضاً بوتقة انصهار وتلاقح لكثير من الرؤى والتيارات والمذاهب والطرق الإسلامية، التي حملها رجال عظماء، قدموا من أقطار شتى، من الغرب الإفريقي ومن الشمال من مصر ومن الشرق، خاصة من الحجاز عبر منطقة الجزيرة، على عهد الدولة السنارية، ومن السودان الشرقي عموماً، فوجدوا في دار الريح مرتعاً خصباً، حيث وضع بعضهم عصا الترحال، وأتخذ من شمال كردفان سكناً له؛ وتبعاً لذلك تأسست مراكز دينية كان لها بالغ الأثر في تبصير الناس بأمور دينهم ودنياهم، عن طريق نشر العلم الشرعي، بكل فروعه، من فقه وحديث وسيرة نبوية وتوحيد، مع بعض علوم النحو والصرف، وقبل هذا وذاك تحفيظ القرآن بروايات ورش والدوري، وحديثاً رواية حفص.

فعندما سقطت الدولة الإسلامية في الأندلس، انداح العلماء شرقاً عبر شمال إفريقيا، واستقر بعضهم لفترة من الزمن في أراضي السلطنات الإسلامية التي كانت قائمة آنذاك؛ خاصة واداي وسلطنة دافور، فنشر أولئك المشايخ رواية الدوري وورش ومنهم انتشرت إلى دار الريح. وبما أن أهل دار الريح يتحدثون لهجة عربية فيها قدر كبير من الإمالة الصغرى والكبرى وحذف الهمزة أو إبدالها في كثير من الأحيان كقولهم ''سبوع، وبير، واشتريْ وجيْ''، كان من السهل عليهم إجادة تلك الروايات حتى صارت هي السائدة في المنطقة. ومن المشايخ الذين نشروا تلك القراءات الفكي آدم البرناوي وجمال الدين البرقاوي، وقد عمل كلاهما في مسيد الفكي الناير وحفظ القرآن على أيديهما كثير من المشايخ الذين ساروا على هذا النهج. ومع بداية العهد التركي في السودان، دخلت رواية حفص عن طريق القادمين من مصر والحجاز. أما الآن فقد أصبحت رواية حفص هي الغالبة نظراً لارتباطها بالتعليم الحديث وانتشار المصاحف التي طبعت بهذه الرواية.

ومن الغرب وصل أيضاً المذهب المالكي بكل شروحه وكتبه؛ خاصة الرسالة ومختصر خليل وما شابه ذلك من مصادر هذا المذهب العظيم، وقام بنشره رجال علماء من الشناقيط وغيرهم. وتجدر الإشارة في هذا الصدد إلى أن الشيخ محمد ود دوليب قد درس العلم على يد محمد بارقوم البرناوي، الذي جاء من مصر عابراً بطريق خُرسي من الأزهر الشريف، حيث كان يتلقى العلم لمدة ثلاثين عاماً، فطلب يس عم محمد ود دوليب من الشيخ البرناوي أن يدرس محمداً العلم فقبل بعد تردد. وقد استمرت فترة التعليم ثماني سنوات وبعدها أعطاه الشيخ البرناوي إجازة العلم وقال له: «العلم الذي درسته في الأزهر الشريف لمدة ثلاثين عاماً أعطيتك له في عشرة سنوات.»

وكذلك الطريقة التجانية دخلت السودان أيضاً من البوابة الغربية. وعلى سبيل المثال أخذ الشريف عبد المنعم الطريقة التجانية عن سيدي الشيخ محمد الغالي عن السيد أحمد التجاني أبو العباس مباشرة، وتعد هذه أقصر سلسلة للطريقة التجانية في السودان. أما الشيخ محمد ود دوليب طريق التجاني فقد أخذ الطريقة التجانية على يد الشيخ المولود فال اليعقوبي (موريتاني) وله خلافة لطريق التجاني في موريتانيا. مع أن السادة الدواليب قد كانوا قبلاً على الطريقة القادرية.

ومن منطقة الوسط انتشرت الطريقة القادرية والسمانية؛ فمثلاً نجد أن الشيخ محمد وقيع الله والد عبد الرحيم البرعي، راجل الزريبة، قد أخذ الطريق السماني عن الشيخ عمر راجل الكريدة، في النيل الأبيض، علماً بأن هذه الطريقة قد دخلت السودان على يد الشيخ أحمد الطيب، في أمرحي، وقد أخذها عن الشيخ السمان، في المدينة المنورة. وعند قدوم السيد محمد عثمان الختم إلى كردفان، أخذ عنه بعض مشايخ دار الريح الطريق الختمية.

ولابد من الإشارة هنا إلى أن الطريقة الوحيدة ذات المنشأ الكردفاني هي الطريقة الإسماعيلية على يد السيد إسماعيل الولي. وتشير بعض المصادر المعتبرة إلى أن الشيخ إسماعيل الولي قد مكث في الطريقة الختمية سبعة أشهر فقط، وبعدها منّ الله عليه بالفتح وأحله في ذروة السطح وصار من أكابر الرجال فجاءه الإذن النبوي بتأسيس الطريقة الإسماعيلية، فقام بتأسيسها في العشر الأواخر من رمضان المبارك عام 1241هـ /1821م.

نستطيع القول بأن دار الريح استقطبت أكابر المشايخ والعلماء الذين أسهموا بقدر كبير في نشر المذاهب الإسلامية على فترات متعاقبة وكذلك أدخلوا التصوف بمختلف طرقه ومدارسه، وذلك أثروا في إثراء الحراك العلمي والروحي في المنطقة دون تطرف أو غلوٍ أو دروشة تخل بحسن المعتقد. ولهؤلاء الرجال يعود الفضل في استقرار المنطقة وتماسك نسيجها الاجتماعي حتى وقتنا هذا، ولله الحمد، من قبل ومن بعد.

(11) مكانة المشايخ في المجتمع

تناولت الحلقات السابقة، من هذه السلسلة، جملة من المعلومات العامة عن المراكز الدينية في شمال كردفان وتحديداً في دار الريح. ومن الملاحظات التي لابد من ذكرها في هذا المقام أن كبريات المراكز أو الخلاوي في تلك الديار يعود تأريخها إلى فترة السلطنة الزرقاء، التي شجعت العلم الديني وسعت لنشرة بمساندة المشايخ بطرق شتى منها منح الأراضي، وإسناد القضاء والأحكام الشرعية عموماً إلى الفقهاء ومشايخ الدين، الأمر الذي عزز من مكانتهم الاجتماعية وحفز الناس على إرسال أبنائهم إلى تلك الخلاوي؛ لحفظ القرآن ودراسة العلوم الشرعية من فقه وحديث وتفسير، كما أنشأت السلطة رواق السنارية في قاهرة المعز حتى توفر السكن للطلاب السناريين الذين كانوا يدرسون في الأزهر الشريف.

من جانب آخر، دخل التصوف إلى السودان في عهد الدولة السنارية على يد الشيخ تاج الدين البهاري، ومن بعد ذلك انتشر في كل بقاع السودان وخاصة الوسط، فبدأت طلائع الدارسين من دار الريح تصل إلى مناطق بعينها في منطقة الجزيرة، ووسط السودان عموماً، حيث تتلمذ الشيخ مضوي لبن على يد الشيخ عبد الباقي النيل في أم قرقور، وسلك الطريق القادري. ومن بعد ذلك درس ابنه الحاج اللين على يد الشيخ يوسف أبو شرا في أبو حراز. وكان الشيخ برام الحمر قد تخرج في خلوة أم قرقور أيضاً.

وعندما سطع نور الشيخ محمد ود دوليب في خرسي، قادماً من الشمال، وفد عليه بعض الطلاب من الذين صاروا يشار إليهم بالبنان في هذا المجال، فقد درس الشيخ عمر راجل الكريدة القرآن في مسيد ود دوليب بيد أنه لم يسلك الطريق التجاني، بل أخذ الطريقة السمانية، على يد مشايخها في أمرحي، شمال أم درمان. ومع مطلع القرن العشرين صارت الكريدة منطقة رائدة فتخرج فيها الشيخ محمد ود وقيع الله، وسلك الطريق السماني، وأسس خلوة الزريبة التي كان لها ولا يزال القدح المعلى في تحفيظ القرآن ونشر العلم والمدائح النبوية، حتى حمل اللواء فيها أبونا الشيخ البرعي، فسار بها سيراً مشهوداً، والآن الشيخ الفاتح يقتفي ذات النهج القويم. وقدم إلى مسيد ود دوليب أيضاً العالم الهادي ود طلحة من منطقة الجديد في شمال الجزيرة، بعد أن حفظ القرآن هناك وأثنى ركبتيه أمام أحد العلماء القادمين من غرب السودان في الأبيض، ثم جوّد دراسة الفقه عند الشيخ محمد ود دوليب وصار يفتي على المذاهب الأربعة. ومن الذين درسوا عليه الفقه على يد الهادي ود طلحة عمنا الفكي مهدي ود اللازم الذي التقاه في قرية الكويمات بالقرب من أم دم حاج أحمد، ومن تلاميذه أيضاً ابنه العالم سيد أحمد ود الهادي ود طلحة الذي عاش عمراً ناهز المائة وعشرين عاماً.

أما الفكي النابر ود منعم فقد تلقى القرآن في خلوة الفكي الضو في ديار الجمع قرب النيل الأبيض، وعاد إلى دار الريح وأسس خلوته في أم بعاشيم، حتى انتقلت إلى حلة الفكي من بعد ذلك على عهد جدنا الفكي عيسى ود النابر وإخوته الكرام. وقدم إلى دار الريح ودرّس في خلوة الفكي النابر الشيخ العاقب محمد أحمد الأمين، بعد أن حفظ القرآن في مسيد جده الشيخ المقابلي، في العيلفون، ثم تلقى العلم خاصة التوحيد، والفقه والحديث والسيرة النبوية في معهد أم درمان العلمي، وبعدها عمل بالتدريس وتحفيظ القرآن في قرية الحديد، شمال بارا، إلى استقر به المقام في حلة الفكي، حي أفاد من علمه خلق كثير، رحمه الله تعلى، وهو مدفون في مقابر الفكي عيسى.

وإلى تلك المراكز يعود الفضل في ظهور خلاوي كثيرة، لا يزال الناس يجنون ثمارها حتى يومنا هذا؛ فعلى سبيل المثال ظهر مسيد الفكي التوم ود يوسف، في دميرة التوم، وظل قائماً لفترة طويلة من الزمن حتى تخرج فيه الكثيرون من حفظة كتاب الله. ولعل الخلوة الخضراء التي أسسها الشيخ التجاني يوسف عبد المنان وإخوته، في ثمانينات القرن الماضي، هي امتداد طبيعي لذلك المسعى المحمدي، ولذلك صار خريجو هذه الخلوة من أمثال الشيخ إسماعيل أحمد خليفة، وغيره من أبناء دار الريح، هم أئمة المساجد الكبرى في العاصمة المثلثة الآن.

وظل التواصل بين دار الريح ومنطقة الوسط قائماً، فبعد أن تخرج الشيخ أحمد ود أقروب، في مسيد الفكي أحمد بيوضة في نكور، شد الرحال إلى الشكينيبة حيث التقى بالشيخ والمربي الكبير عبد الباقي المكاشفي وسلك عليه الطريقة القادرية، ثم قفل راجعنا إلى منطقة القاعة وانقطع للعبادة والتبتل إلى الله ومن ثم أسس مسيده الذي لا يزال قائماً في رهد ود أقروب حيث يواصل أحفاده تحفيظ القرآن وإرشاد الناس وتعلميهم أصول دينهم وتسوية ما ينشأ بينهم من خلافات.

ومن الذين أخذوا العلم وحفظوا القرآن وسلكوا الطريق السماني في خلوة الشيخ عبد المحمود ود نور الدائم بطابت، وتحت رعاية الشيخ الجيلي مباشرة، مولانا وحبيبنا طيب الذكر والمعشر، الراحل الشيخ المبارك ود مركز الدين، الذي ازدهرت في خلافته خلوة الشوق حتى صارت واحدة من أكثر المراكز الدينية أثراً في دار الريح. وإذا توجهنا شمالاً نحو الجبال البحرية، لرأينا كيف أن الشيخ محمد ود الريح السنهوري، قد جاء بإرث السادة السناهير، من علم وفقه وقرآن، فأحيا منطقة النهد وأنارها بتقابة القرآن بعد أن وصلها في العام 1958. ويضاف إلى ما ذكر أعلاه أن المشايخ من خريجي الخلاوي المنتشرة في دار الريح هم الذين يحملون مشاعل النور القرآني على مستوى السودان في وقتنا الحاضر ويئمون الناس في المساجد، كما أن هنالك طلاباً كثر من هذه المنطقة يعكفون حالياً على حفظ القرآن في الجزيرة وسنار وولاية نهر النيل وغيرها.

(12) الشيخ الحاج المونس

ذكرنا سابقاً أن من بين أكبر أربعة وعشرين خلوة قرآن في السودان، قبيل المهدي، كانت هنالك اثنتي عشرة خلوة في شمال كردفان لوحدها. وحظيت المنطقة الواقعة إلى الشرق من مدينة بارا، بأقدم وأعرق خلاوي تلك المنطقة. وفي الصفحات التالية سوف نسلط الضوء على بعض خلاوي دار الريح حسب الأقدمية. ووفقاً للمعلومات المتوفرة لدينا فإن أقدم خلوة في دار الريح هي خلوة الفكي المونس في قرية القفلة، التي تقع على بعد ستين كيلومتراً إلى الشرق من بارا، وعلى بعد عشرين كيلاً شمال أم دم حاج أحمد.

تأسست تلك الخلوة الرائدة على يد الشيخ الحاج المونس الشيخ رحيمة حوالي عام 1685م أي في نهايات القرن السابع عشر. وقد قدم الشيخ المونس من الشمال، واستقر لبعض الوقت في دبة فخار، الواقعة بين شمال كردفان والنيل الأبيض، ومن ثم توجه إلى قرية أم ضيفرة، غرب أم دم حاج أحمد، حيث أسس خلوته ذائعة الصيت، وبها توفي ودفن هناك. ومن بعد ذلك نقل أبناؤه منصور والنور بنقل الخلوة إلى قرية القفلة وظلت شعلة النور أو تقابة القرآن متقدة في خلوة الشيخ المونس منذ ذلك الوقت حتى وقتنا الراهن بتوفيق من الله وبالجهد المخلص لخلفاء الشيخ المونس وتلاميذه، من بعد.

في عهد سلطنة سنار، كان الخليفة الذي يتولى شأن الخلوة هو الشيخ منصور المونس. وتعاقب على الخلوة مشايخ كثر منهم الشيخ سليمان بن منصور المونس، ويونس بن سليمان وهو أحد ألمع المشايخ الذين تعاقبوا على مشيخة خلوة الشيخ المونس، حيث اتسعت في خلافته الخلوة وذاع صيتها بشكل غير مسبوق؛ فأقبل عليها الطلاب والمشايخ من كل حدب وصوب لينهلوا القرآن ندياً من ذلك المورد العذب. وقد أسهم رجال كثر في ازدهار خلوة المونس، منهم الشيخ النور المونس، والشيخ حاج بشير منصور صالح المونس، وهو أحد الرجال المشهود لهم بجودة الحفظ وبحسن التلاوة والصوت، وقد جاور في المدينة المنورة وكان يتلو القرآن بصوته الندي حتى يجتمع حوله الناس ليستمعوا حلاوة القرآن وطلاوته، بشكل أبهر كثيراً ممن سمعوه وقد كان الشيخ حاج بشير يكثر من الأسفار والتنقل من أجل التطواف على تلاميذه ومريديه في المنطقة.

وفيما بعد اسند أمر الخلوة للشيخ الحاج الجزولي بن يونس، ثم الشيخ الأمير ود الجزولي، والشيخ أحمد بدر الدين بن الشيخ الأمير. ويقوم على أمر الخلوة الآن الدكتور الجزولي ود الشيخ الأمير، الأستاذ بجامعة القرآن الكريم بأم درمان.

هذه الخلوة المباركة ظلت تنشر النور القرآني لفترة طويلة من الزمن فتخرج فيها رجال كان لهم

دور كبير في تأسيس خلاوي القرآن الكريم على نطاق واسع في دار الريح. ومن الذين تخرجوا في مسيد القفلة، الشيخ محمود ود خالد الذي تخرج على يده الشيخ محمد ود كدام صاحب أشهر خلوة في منطقة أم حصحاص. ومنهم أيضاً الفكي عوض الكريم ود عبد الله النضيف. وهنالك الفكي عبد الله ود حسن الذي أوقد تقابة القرآن في منطقة الحفير بالقرب من تندلتي حيث توفي ودفن بعد أن نشر القرآن والعلم الشرعي في تلك المنطقة. وتشمل قائمة خريجي خلوة الشيخ المونس كذلك الشيخ عبد الله ود المراد في الهشابة. ومن تلاميذ الشيخ المونس الشيخ المونس ود آدم الذي أسس مسيده في قرية ود الخضر الواقعة إلى الغرب من المزروب وهو من الذين كانوا يكتبون المصحف الشريف بأيديهم. ومن أشهر حفظة كتاب الله الذين تخرجوا من مسيد القفلة الفكي حامد ود سليمان ود منصور المونس وقد كان أبنه أحمد ود حامد من أبرع وأشهر كتاب المصحف. ومن ضمن خريجي هذه الخلوة الرائدة الشيخ محمد الأمين عبد المحمود الذي عمل بدارفور في منطقة الملم بالقرب من الفاشر، فكان يعمل في مجال التجارة وتحفيظ القرآن. ومن شيوخ مسيد القفلة الشيخ إبراهيم حسين الضرير، وهو قارئ وأحد المشايخ الذين اشتغلوا بتحفيظ القرآن في ذات المسيد.

والجدير بالذكر أن بعض خريجي مسيد القفلة قد كان لهم باع طويل في نشر القرآن ومن هؤلاء الشيخ المختاري الذي اتخذ من أم قريقير، شرقي الزريبة، مقراً له وأسس فيها خلاوي مشهورة لتحفيظ القرآن، لا تزال قائمة. ومن رحم مسيد القفلة خرجت خلوة الشيخ الرشيد الحراني، الذي حفظ القرآن في مسيد المونس، ومن بعد ذلك أسس مسيده في قرية الفرجاب، شرق بارا، ولا تزال نار التقابة عامرة في تلك القرية، وإلى الشيخ الرشيد ينسب الفضل في نشر القرآن على نطاق السودان الغربي وبعض دول إفريقيا، ولا يزال خليفته الشيخ المكي عبد الرحيم يسير على نهجه. بيد أن هنالك من يقول إن الشيخ الرشيد درس القرآن وعلومه على يد عمه الشيخ محمد ود الشيخ الفضل ود الفكي الضو ود جالس بمسيد الفرجاب. ومن خريجي القفلة الشيخ المعمر الذي قضى عمره في طاعة الله وتحفيظ آي الذكر الحكيم، طيب السيرة، المعروف براجل أم كتيرة، قرب الأبيض، الشيخ عبد الله الدقيل، طيب الله ثراه. وقد جاء مهاجراً إلى مسيد القفلة الشيخ محمد ود الزاكي من قوز بشارة في شمال السودان، ودرّس في القفلة حيث تزوج وعاش لفترة من الزمن ثم أرتحل إلى خرسي وتلقى العلم وسلك الطريق على يد الشيخ العلامة ود دوليب. عاش الشيخ محمد ود الزاكي متنقلاً بين خرسي والقفلة يدرس العلم الشرعي ويقوم بالفتوى. وفيما بعد التحق أحد أبنائه وهو الشيخ الصديق ود محمد ود الزاكي بمعهد أم درمان العلمي وتتلمذ على يد الشيخ ود البدوي، شيخ الإسلام في السودان قاطبة.

ومن المعلوم أن الشيخ الفقيه التقي الورع محمد أحمد البدوي «ود البدوي» قد ولد في مدينة الأبيض عام 1259ه الموافق 1911م. ونشأ في الأبيض وحفظ القرآن الكريم وتلقى علوم التوحيد والفقه وأدب

اللغة العربية على مشاهير عُلمائها ذلك الحين، من أمثال السيد أحمد الكُردفاني وأبناء القاضي عربي وغيرهم، ثم تتلمذ على يد الشيخ عليش في الأزهر الشريف. ولذلك كان من الطبيعي أن يقوم الشيخ صديق الزاكي بدور عظيم في نشر العلم الشرعي من خلال تدريسه في مسيد القفلة، فهو عالم لا يشق له غبار. وما هؤلاء الرجال إلا قليل من كثير من الذين تلقوا القرآن على ضوء نار التقابة في القفلة. وهنالك الآن مجموعة كبيرة من الأئمة من خريجي مسيد القفلة يعملون في منطقة الجزيرة مثل الشيخ الحبيب التجاني في مدني.

هذه الخلوة العامرة لا تزال تؤدي دورها القرآني في القفلة تحت رعاية وإشراف أحفاد الشيخ المونس وبقيادة رشيدة وحكيمة من الدكتور الجزولي ود الأمير، الذي وفر كثيراً من عوامل ومطلوبات الاستقرار كتوفير الطعام وبناء الخلوة بالتعاون والانسجام التام بينه وبين إخوته الآخرين، بارك الله فيهم وزادهم من فضله. كان الشيخ المونس قادرياً، والشيخ المنصور كان ختمياً، وقد زارهم السيد محمد عثمان الختم في القفلة. وفي عهد الشيخ يونس تحولت المنقطة إلى الطريقة التجانية.

تاريخياً، كانت للشيخ المونس صلات طيبة ووطيدة بسلاطين الفونج، وحافظ أبناؤه النور ومنصور على تلك العلاقات المتميزة مع سنار التي كانت تشجع مشايخ الدين وتجلهم وتقدرهم. وفي وقت لاحق حمل الراية الشيخ خالد ود بخيت فيما يتعلق بشأن الخلوة، وسمي محمد ود النور ناظراً على المنطقة الممتدة من دار المرامرة في المقنص وحتى بحر أبيض، بما يشمل بعض مناطق الجوامعة وجزء من دار حامد الشرقية. وظلت تلك الزعامة قائمة حتى عهد الشيخ إبراهيم ود محمد النور.

خلال فترة المهدية، ظلت خلوة الفكي المونس في القفلة تؤدي رسالتها على أكمل وجه، وتواصل معها بعض رموز المهدية حيث زارها محمود ود أحمد القائد المشهور إبان تلك الفترة، وطلب من الشيخ البيعة للإمام المهدي، إلا أن الشيخ يونس لم يستطع مقابلته؛ نظراً لتقدم سنه، فأوفد إليه ابنه حاج الجزولي، الذي كان من الوجهاء، وقد وهب حسن الوجه وصوت جهوري، وهو متقن للتلاوة، فالتقى الشيخ الجزولي بمحمود ود أحمد في منطقة أبو شوك، بالقرب من القفلة. وعندما وقف الشيخ الجزولي أمام ذلك القائد، تلا قول الله تعالى: «إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا» حتى آخر سورة الفتح، فسر محمود ود أحمد وجيشه بتلك التلاوة العطرة واعتبروها بشارة خير، فكتب تأميناً للشيخ الجزولي وخلوة القفلة وسمح له بالاستقرار في دياره.

واستمرت خلوة القفلة خلال فترة الاستعمار وكان على رأسها في ذلك القوت الشيخ الجزولي آنف الذكر، فزاره مفتش الخلاوي الشيخ علي الحويج واقترح عليه تأسيس مدرسة نظامية إلى جانب المسيد، فطلب منه الشيخ الجزولي ألا يفعل حتى تستمر الخلوة في دورها الرائد ونصحه بإنشاء تلك المدرسة في مكان آخر، فأقيمت المدارس الأولية في كل من المقنص والبحرية وبعض المناطق

الأخرى.

في الوقت الحاضر تشهد خلوة القفلة توسعاً وتطوراً ملحوظاً ونهضة عمرانية كبيرة حيث شيّد سكن للطلاب، واستراحة وتكية للطعام وبئر لإمداد المسيد بالماء. وهنالك أيضاً مولد كهربائي يوفر الإضاءة والطاقة ومسجد متكامل تبلغ مساحته حوالي 400 متراً مربعاً وهو مبني على أحدث طراز. ويتولى شأن الخلوة في وقتنا الحاضر الشيخ الجزولي الأمير الجزولي ود يونس ود سليمان ود منصور المونس، ويعاونه أبناء أخيه بدر الدين.

أما قرية القفلة نفسها فقد شهدت هي الأخرى تطوراً عمرانياً كبيراً بعد أن شملها التخطيط ويوجد بها الآن كل المرافق التعليمية من مدارس للبنين والبنات من الأساس وحتى المرحلة الثانوية، وبها مركز صحي بمثابة مستشفى ريفي متكامل، وشيدت بها خمسة مساجد وهنالك آبار للمياه تعمل بالآلات الحديثة ويزيد عدد سكانها عن خمسة آلاف نسمة.

هذه القرية تعد بلا شك واحدة من القرى المباركة التي نشأت على ضوء تقابة القرآن وسارت على نهج الدعوة المحمدية منذ أيام سلطنة الفونج وحتى اليوم. وجدير بالذكر أن أحفاد الشيخ المونس لهم علاقة مشيخة مع السجادة التجانية في خرسي ولهم صلة رحم وقرابة بالشيخ العبيد ود بدر في أم ضبان. وقد أفادني بهذه المعلومات الأستاذ خالد إبراهيم عبد المحمود إبراهيم محمد النور الحاج المونس وهو أحد خريجي مسيد القفلة، وكان يعمل بالتعليم سابقاً وهو الآن تاجر ويقيم في مدينة أم درمان وهو أحد القائمين على أمر خلوة الفكي المونس، وبإشراف مباشر من الدكتور الجزولي الأمير الجزولي الأستاذ بجامعة القرآن الكريم في أم درمان.

(13) الشيخ محمد ود دوليب

قرية وادعة، تتوسط الرمال الناعمة، تقع جنوب شرق بارا، يحفها الوقار، وتغشاها السكينة والطمأنينة، وتهدهدها أصوات الذاكرين ليل نهار، ولا غرو في ذلك، فهذه القرية ظلت تنيرها تقابة القرآن، التي نشأت حولها منذ القدم، وكان قدرها أن تكون مركزاً لنشر الدين والعلم الشرعي وتحفيظ كتاب الله وإرشاد الناس عبر الطريق التجاني، هي خرسي تلك المنقطة المباركة، التي تهفوا إليها قلوب المريدين وطلاب العلم، حيث عاش الشيخ محمد ود دوليب وأسس مسيده.

قدمت أسرة ود دوليب من شمال السودان وتحديداً من منطقة دنقلا. وبيت السادة الدواليب معروف بمنطقة البديرية، وهم أسرة عرفت بالعلم والعمل بتدريس القرآن والجهاد. وبعد انتقالهم إلى دار الريح، استقر أسلاف ود دوليب أولاً في منطقة الحرازة، غرب حمرة الوز، في الجبال البحرية بشمال كردفان، وأوقدوا بها نار القرآن وظلوا يعلمون الناس القرآن وعلوم الشرع لفترة من الزمن، حتى انتقلوا إلى خرسي حيث أسسوا مسيدهم في تلك القرية التي شاع ذكرها وعمت بركتها جميع أنحاء كردفان. ويكفي أن الشيخ محمد ولد دوليب، كان يجتمع في مسيده سبعون دارساً يحفظون مختصر خليل، من بينهم تلميذه العلامة أُمْحُمَّدْ ود الطفح، وآخرون. وهذا الفضل لم يأت صدفة، بل هو استمرار لأرث قديم تعود أصوله إلى الشيخ غلام الله بن عائد الركابي، الذي يقال إنه أول من أوقد ناراً للقرآن والعلم في السودان.

مسيد خرسي يعد امتداداً لأول خلوة لتحفيظ القرآن أسست لهذا الغرض في السودان. ثم انتقلت تلك الخلوة جنوباً من دنقلا العجوز إلى كرمكول، ومن بعد ذلك انتقلت الخلوة إلى مقرها الراهن في خرسي، في عام 1170 هجرية، الموافق 1756، 1757 ميلادية، وكان ذلك في أثناء عهد الخليفة محمد الأحمر، وبالتالي يكون مسيد ود دوليب واحداً من أقدم المراكز الدينية في دار الريح، إن لم يكن الأعرق على الإطلاق، سيما وأنه الأبعد أثراً؛ إذ ظل يتطور بشكل مستمر عبر كل الحقب، دون أن يتأثر بكل الظروف والعوامل التي أثرت في غيره من خلاوي المنطقة؛ حتى صار كلية معروفة على نطاق الوطن في وقتنا الحاضر.

تاريخياً، حافظ السادة الدواليب على علاقات وطيدة مع السلطات على مر التاريخ ومختلف الحقب. فكما نعلم انتقل أجداد الشيخ ود دوليب إلى خرسي، بطلب من سلاطين الفور الذين اقطعوهم أرض خرسي إكراماً لهم وتشجيعاً للمشايخ؛ إذ عرف أحفاد غلام الله بن عائد بالعلم والتقوى والعمل الدؤوب على تحفيظ القرآن. وفي العهد التركي حظي الدواليب بمكانة خاصة فأسندت إليهم مهام الإدارية

وكان لهم دور مرموق في الإدارة الأهلية ولا يزال في منطقة الجبال البحرية في شمال كردفان؛ خاصة منطقة الحرازة، غرب حمرة الوز. في عهد المهدية، حاول المهدي التواصل مع الشيخ محمد ود دوليب إلا أن الشيخ أنتقل إلى الرفيق الأعلى أثناء حصار قوات المهدية لمدينة الأبيض. وتجدر الإشارة في هذا المقام إلى البيت المشهور الذي تضمنته منظومة ود دوليب ذائعة الصيت فهو يشير إلى المهدي بقوله:

وبيننا لا جمع الإله ... فجمعنا دين الهدى يأباه

ولا نعلم لآل الشيخ محمد ود دوليب أي موقف ينم عن ميلهم لحزب أو نظام بعينه، فشغلهم الأساسي هو نشر العلم والإرشاد؛ ولذلك ظلوا يتمتعون باحترام الحكام والمحكومين، بغض النظر عمن يكون في سدة الحكم، فلله درهم.

إذن حديثنا في هذا المقام عن طود شامخ، ورجل سارت طبقت شهرته الآفاق، ذلكم هو العارف بالله الشيخ محمد بن إدريس بن محمد الأحمر المشهور بالخليفة ود دوليب، باعتباره صاحب الأثر الأقوى على مسيرة خلوة خرسي لعدة أسباب أهمها حرصه على نشر العلم الشرعي واجتذاب أكابر المشايخ والعلماء الذين أسهموا بقدر كبير في تعزيز دور مسيد خرسي منذ القدم وحتى العهد الراهن. علاوة على ذلك فإن الخليفة ود دوليب نفسه قد عمل بتدريس الفقه بعد أن تلقاه على يد الفقيه محمد بارقوم البرناوي. وهو أحد العلماء الذين درسوا في الأزهر الشريف، ومر عابراً عن طريق خرسي، حيث ولد الشيخ محمد ود دوليب وحفظ القرآن في مسيدها. وبعدما توسم الشيخ بارقوم البرناوي علامات الذكاء والعبقرية في ود دوليب، وبإلحاح من بعض أعمام ود دوليب، وافق الشيخ على تدريسه وتعليمه الفقه وغيره من العلوم الشرعية، فجلس ثمانية حجج يعلم ذلك الفتى المجتهد حتى أجازه بعد تمام عشرة سنوات وقال له ما معناه: «العلم الذي درسته في ثلاثين عاماً في الأزهر الشريف، أعطيتك له في عشر سنوات».

وأخذ الخليفة ود دوليب الطريق التجاني على يد الشيخ المولود فال اليعقوبي «موريتاني» بينما كان أسلافه على الطريق القادري. وتشير بعض المصادر إلى ما يلي: «حضر إلى السودان مولود فال، حاملاً الطريقة التجانية إلى السودان، وكان أول من تلقاها بالقبول والإيجاب الخليفة محمد بن إدريس، المشهور بمحمد ود دوليب، بقرية خرسي، بسنده المتصل عن الشيخ أحمد التجاني. وأجازه بما نصه، أني قد أجزت أخي وحبيبي في الله السيد العالم، الأجل والأديب، الحيي التقي الوقور والمحسن، المتفضل الأنبل اللبيب، حاوي الكرم والجود، ومعدن الأمانة، وتوفية العهود، الشيخ الإمام محمد الخليفة في استعمال الطريقة التجانية المثلى، وفي تلقينها لكل من التزمها منه وبعد التزام الشروط». ويكفي بهذه شهادة في حق الشيخ محمد ود دوليب، لما ورد فيها من صفات كثيرة بحقه،

وهو أهل لذلك وأكثر. وبهذا يكون شيخنا ود دوليب قد حفظ القرآن وتلقى العلم وسلك الطريق وهو في داره دون أن يشد الرحال إلى أي مكان، وهذا في حد ذاته أمر نادر الحدوث. وقد سلك الطريق على يد الشيخ ود دوليب، وبذات السند، رجال أعلام مشهود لهم بالتقوى والصلاح، منهم العلامة الشيخ محمد ود الزاكي، والشيخ محمد ود البدوي، شيخ الإسلام المعروف، والشيخ إبراهيم التليب. وقد توفي الشيخ محمد ود دوليب، رحمه الله، ودفن بخرسي، عام 1300هجرية، الموافق 1882، 1883ميلادية.

أحدث الشيخ محمد دوليب نهضة كبيرة في طريقة التدريس في تلك الخلوة التي تأسست أصلاً لنشر الدين والعلم الشرعي، وإرشاد الخلق في وقت كان فيه الجهل بتعاليم الإسلام هو السائد في كثير من مناطق السودان. بذل ود دوليب جهداً خارقاً لتوفير التمويل لتلك الخلوة حتى يستمر نشاطها القاصد إلى الله تعالى على أساس قويم مبني على المعرفة والتقوى والبعد عن الشعوذة والتطرف وفق منهج علمي سليم؛ فكان لطريقة تعليمه وشرحه أثرٌ كبيرٌ في زيادة أعداد الطلاب ورفع كفاءتهم في شتى ضروب العلم التي تتمحور حول القرآن وتفسيره. كما كان الشيخ يشرف على أمور الخلوة بنفسه ويدرس العلم والفقه بطريقة مستحدثة ومتطورة ترتكز على النقاش والتطبيق، ولهذا السبب يعد محمد ود دوليب سابقاً لعصره. كان ذلك الشيخ المعلم البارع يشرح لطلابه النصوص والمتون والحواشي شرحاً يساعدهم على الفهم والفقه والحفظ والاستيعاب بما كان متاحاً في ذلك الوقت المبكر من وسائل تعليمية بسيطة ترتبط بالبيئة المحلية، تتمثل في استخدام ألواح الخشب والدواية! وكان يتلطف مع الدارسين ويرق لهم ويتبسط في شرح ما يستعصي على تلاميذه؛ وكل ذلك يعود بالدرجة الأولى لسعة معرفته وبلاغته وحسن إدراكه، وبصيرته الفذة، وزهده في الدنيا، بتوفيق من الله، حتى كان يقال إن الشيخ محمد دوليب إنما خلق؛ ليكون معلماً ومرشداً؛ إذ حقق نجاحاً لم يوفق له كثير من معاصريه، فنشر العلم الشرعي، وسلك كثير من الرجال الطريق التجاني على يديه وصاروا أعلاماً حيثما حلوا في كل أنحاء كردفان. ولعلنا نضرب مثلاً في هذا الصدد بانتشار الطريقة التجانية في منطقة بارا، وسودري، والسميح، والمزروب، ووسط مناطق دار حامد والجوامعة، وفي غرب كردفان وجنوبها، على يد الخليفة الدرديري ود محمد ود دوليب، ولمزيد من التفصيل أنظر «بحث الدكتور ابن عمر عبيد الله عن التجانية».

ظلت خلاوي خرسي، كما جاء في نبذة مختصرة عن مجمع خرسي، تخرج الدفعات المتتالية من الحفظة والقراء والعلماء، منذ تأسيسها وحتى الآن، على ذات النهج المعهود ووفقاً لأوقات الدراسة المعروفة التي تبدأ قبل الفجر «الدغشية» ثم الإملاء «الرمية» ثم «الضحوية» وغيرها من تقسيمات للوقت بحيث يرتبط الطالب والدارس بالقرآن والعلم، أطراف الليل وآناء النهار، حتى يحفظ القرآن

ويتلقى مبادئ العلم الفقهي ويجيد الكتابة والقراءة والخط العربي، وبعض العلوم الحديثة. وبعد حفظ القرآن يلتحق الطالب بمعهد ود دوليب للتجويد ثم معهد القراءات.

يدرس الطالب في معهد ود دوليب التجويد والتفسير والفقه والسيرة النبوية والنحو والصرف والأدب العربي والإنشاء والمطالعة والرياضيات وبعض العلوم الإنسانية وأساسيات اللغة الإنجليزية. وبعد هذه المرحلة يجلس الدارس لامتحان قومي يؤهله لمرحلة القراءات حيث يدرس الطلاب مزيداً من التجويد، ولكن يكون التركيز على القراءات وما يرتبط بها من مسائل كتاريخ المصحف ورسمه، والبلاغة مع فقه المواريث على وجه الخصوص. هذه المرحلة تؤهل الدارسين للجلوس لامتحان الشهادة السودانية، في مساق القراءات وبالتالي يتأهل الطلاب للالتحاق بجامعتي القرآن الكريم وأم درمان الإسلامية.

بدأت مظاهر التطوير والعمران في خرسي في خلافة مولانا الشيخ الدسوقي ود الشيخ جعفر، حيث بنا المسجد ومنزل الخليفة وأدخلت الكهرباء. ومن بعده قام ولده الخليفة الدرديري بن الشيخ الدسوقي بإحداث قفزة عمرانية كبيرة فحوّل الخلوة إلى معهد أو بالأحرى كلية لتدريس علوم القرآن والفقه وهي الآن تشق طريقها بكل قوة واقتدار لما تجده من اهتمام ومتابعة من الخليفة جعفر بن الشيخ الدرديري، حتى صارت منارة للعلم والإرشاد، في هذا الوقت.

خلوة خرسي، لم تكن مجرد مركز تعليمي فحسب، بل هي منارة ذات تأثير اجتماعي واسع النطاق على المجتمع المحلي، فقد ظل الخلفاء من أحفاد ود دوليب والأشياخ الذين تخرجوا في هذه البقعة المباركة، يقومون بدور إصلاحي كبير لجبر الخواطر، وإصلاح ذات البين، وتسوية الخلافات والنزاعات التي تنشأ بين الأفراد والجماعات والقبائل مما عزز من مكانة خرسي التي ظلت في تعاظم مضطرد على مر التاريخ. وفي هذا الصدد تجدر الإشارة إلى أن الخليفة الدرديري ود الشيخ الدسوقي، على وجه الخصوص، قد كان له باع طويل في الإصلاح بين الناس والسعي لتسوية ما يعكر صفو المنطقة من إشكالات طارئة، فما من مجلس صلح إلا وكان فيه ذلك الرجل المصلح الموفق حاضراً، رحمه الله رحمة واسعة.

وقد تعاقب على خلوة ود دوليب منذ تأسيسها عدة خلفاء هم كما يلي:

الخليفة محمد الأحمر، والخليفة إدريس بن محمد، ثم الخليفة محمد ود دوليب، ثم الخليفة إدريس محمد إدريس «الفكي أبّا»، والخليفة الدرديري محمد إدريس، والخليفة جعفر الدرديري، ثم الشيخ الدسوقي ومن بعده ابنه الخليفة الدرديري. كل خلفاء ود دوليب حفظوا القرآن ودرسوا العلم في خرسي. وكل هؤلاء الخلفاء مدفونون في خرسي بجوار الشيخ المؤسس. ويحمل الراية الآن مولانا الخليفة جعفر ود الشيخ الدرديري وهو أحد الخلفاء الذين جمعوا بين التعليم الديني، والتعليم النظامي في المدارس

والجامعات، وهو يسير على خطى أسلافه الكرام، بكل حنكة وحكمة ويشرف على المعهد الديني ويقوم بالإصلاح بين الناس من مريديه وتلاميذه وغيرهم من الذين يقصدون هذا المكان المبارك.

تطورت خلوة خرسي تطوراً ملحوظاً عبر مراحلها المختلفة فتخرج فيها رجال علماء وضعوا بصمات واضحة على خارطة العلم الشرعي والفقه في كثير من مناطق دار الريح وكردفان عموماً، ومن هؤلاء الأفذاذ الذين يشار إليهم بالبنان تلاميذ ود دوليب النجباء وهم الشيخ عمر راجل الكريدة، والشيخ السنوسي في أم حجر، والعلامة النابغة الهادي ود طلحة، والشيخ محمد ود الطفح، والشريف حسين في أبو زبد، والشيخ العلامة محمد ود الزاكي، والشيخ الرشيد المدني الحراني، عليهم رحمة الله جميعاً. وفي واقع الأمر القائمة طويلة وما هؤلاء الرجال الذين ذكرنا إلا قليل من كثير. ومن خريجي خرسي المعاصرين الشيخ القارئ الزين محمد أحمد، والشيخ الحافظ صالح أحمد صالح، والشيخ نور الدين محمود والشيخ الهادي التجاني والشيخ عبد الخير صالح، والدكتور معاذ محمد ثاني، وكل هؤلاء من الأئمة الكبار الذين يعطرون مساجد السودان بتلاوة آيات الذكر الحكيم. ومن المشايخ الذين عملوا في هذا المركز الرائد في الآونة الأخيرة الشيخ حسين حامد يوسف، وتخرج على يده عدد من حفظة كتاب الله، وهو الآن صاحب مسيد عامر بحي عرفات بالأبيض.

منذ أن أوقد السادة الدواليب تقابة القرآن في خرسي، ظلت هذه القرية الوادعة المباركة مركز إشعاع فكري وعلمي رائد، وهي تتطور بشكل مستمر، متطلعة للمستقبل، مع السعي الدؤوب لتحقيق ذات الهدف ألا هو تحفيظ كتاب الله وتقديم المعرفة والإرشاد للأجيال المتعاقبة. ومما يحسب لمركز خرسي التزام القائمين عليه من أسرة الشيخ محمد ود دوليب، على مر العصور، بنهج السنة مع المحافظة على تقديم علوم القرآن والعلوم الشرعية الأخرى وفقاً لما هو متفق عليه بين العلماء والفقهاء، سيما وأن القائمين عليه لديهم الطموح في تطوير المركز باستمرار حتى يصبح صرحاً إسلامياً يضاهي كبريات المعاهد الدينية في أنحاء العالم الإسلامي.

(14) الشريف عبد المنعم

من يريد الحديث عن رجال دار الريح، أو شمال كردفان بأكملها، لابد له من التوقف مليّاً عند محطة الشريف عبد المنعم، دفين أم سعدون الشريف، الواقعة إلى الغرب من بارا، في منطقة وسط دار حامد. فهنا عاش أحد عظماء الرجال الذين تركوا أثراً لا تخطئه البصيرة أو البصر. فقد قدم الشريف عبد المنعم من مصر بعد أن طاف كثيراً من بلدان العالم الإسلامي من تركيا في المشرق إلى فاس في المغرب العربي، وهو في أثناء كل تلك الرحلة القاصدة كان يعلم الناس ويكتسب المعارف في شتى النواحي، ويترك أثره حيثما حل، حتى استقر به المقام ووضع عصا الترحال في تلك القرية التي عرفت باسمه حيث بنى مسيده الذي تحول مع مرور الزمن إلى مركز إشعاع معرفي وبوتقة انصهار واندماج لكثير من الجماعات التي جذبتها أنواره المحمدية الساطعة؛ فصاروا إخوة متحابين في كنف ذلك الأب المربي العظيم والشيخ الجليل الذي وسع الناس بفضائله وحسن خلقه وعلمه وكرمه الفياض، وما ذلك إلا عملاً وامتثالاً لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "إنكم لن تَسَعوا الناس بأموالكم، ولكن يَسَعهم منكم بسطُ الوجه وحسنُ الخلق". وقد أشرنا قبلاً، في ثنايا هذه السلسلة، أن دار الريح ترحب بالغريب أياً كان، فما بالك إذا كان القادم هو رجل بقامة سليل المجد والكرم والعلم الشريف عبد المنعم الذي رحب به زعيم دار حامد تمساح سيماوي، ووهب له تلك القطعة من الأرض، التي تعرف الآن بأم سعدون الشريف وما حولها من أراضي.

جاء في كتاب رجال الطريقة التجانية، لمؤلفه السيد محمد الحافظ التجاني المصري، ما نصه: "وفي يوم الأحد 16 شوال 1353 هجرية سافرنا إلى سيدي عبد المنعم في جمع من خاصة الأحباب، أذكر منهم سيدي الشريف الحاج محمد طه، كبير السادة التجانية بالأبيض، والعلامة الفاضل الشيخ عبد الباقي، وبعض الأخوة الفضلاء، فوصلنا حلة أم سعدون التي بها سيدي عبد المنعم، واجتمعنا به ورأيناه نائماً على سرير من الجريد، وقد بلغ من الكبر عتياً، فهو جلد على عظام ولكنه ضخم المبنى، وقد كف بصره وضعف سمعه، فكنا نرفع أصواتنا حتى نسمعه، وصوته جهوري شديد، وكان يداعب أصحابه ويباسطهم، وهو حاضر الذهن، قوي الذاكرة، عظيم الهيبة، خبير بشؤون الماضين، الذين عاشرهم وكان يسأل عن أصدقائه ممن يعرفهم فيخبر بأنهم صاروا إلى جوار الله فيترحم عليهم. وكان إذا بايع الناس على السير إلى الله، يبايع كلاً بما يناسبه. وقد سمعته يدعو الله بدعوات ويذكر من أسمائه الخاصة ما تندهش له العقول. وينقل عنه أصحابه من المكاشفات، والكرامات الشيء العديد! وإن حاله لعجيب وأخباره كثيرة وهو مع تقدم السن، دائم الذكر، يسمع له دويٌ بالذكر والتسبيح والصلاة طول

الليل. وإنّ في رأياه لخيراً جماً، فالحمد لله حيث شاهدناه وأشهدناه على ذلك، وقد أذن لنا في الطريق والتقديم وأنبنا عنه في إذن أحبابنا، وإننا لنحبه في الله تبارك وتعالى. وقد توفي سيدي الشريف عبد المنعم في شعبان سنة 1354 من الهجرة ودفن، رحمه الله، في حلة أم سعدون الشريف."

هذا لعمري وصف فائق الدقة والوضوح لتلك القامة الفارعة، والشيخ الكبير سيدي الشريف عبد المنعم، أوردناه هنا ليكون منطلقاً ومرتكزاً لحديثنا عن أحد الذين وضعوا أسساً راسخة للعلم والإرشاد، ليس في دار الريح فحسب، بل على نطاق واسع في الديار السودانية، سيما وأنه قد ترك أثراً بلغ أصقاع الغرب الإفريقي عبر تلاميذه ومريديه الذي حملوا معهم رايات الدين والشرع والطريق التجاني في كل بقعة وطأتها أقادمهم.

فمن هذا الرجل الذي حاز كل هذه الصفات الكريمة وترك كل هذا الإرث والأثر الروحي والعلمي في دار الريح، يا ترى؟ ولحسن الحظ يسعفنا حفيده الشريف النذير بالإجابة الشافية على هذا السؤال في مؤلفه الموسوم "سيرة الشريف عبد المنعم".

وهو الشريف عبد المنعم بن أحمد بن سلامة بن حسين وينتهي نسبه إلى الإمام علي بن أبي طالب والسيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنهما. ارتحل أجداده من الحجاز إلى صعيد مصر في عهد بني أمية الذين ضايقوا الأشراف وعذبوهم. وإثر ذلك هاجر كثير من الأشراف إلى مصر والعراق والمغرب والحبشة، وتفرقوا في كل أنحاء الدنيا. وسكن أجداد الشريف عبد المنعم في الصعيد المصري بقرية نجع الطويل، محافظة الأقصر، ولا يزال لهم عقب في الديار المصرية.

بعد ذلك بدأ الشريف عبد المنعم رحلة سياحية وصل فيها إلى الحبشة ومنها إلى السودان ثم المغرب العربي برفقة الشريف الزبّال، دفين النهود بغرب كردفان، والشريف محمد الحنفي، وساروا في تلك الرحلة حتى وصلوا إلى عين ماضي. وبعد ذلك توجه الشريف عبد المنعم إلى إسبانيا، ومنها إلى بريطانيا، ثم الهند، ولكننا لا نعلم على وجه الدقة متى كانت تلك الرحلة الممتدة.

وعندما ضايقه الحكام الإنجليز في الهند، شد الشريف عبد المنعم الرحال إلى تركيا. ولكن أشار الإنجليز إلى الحكومة التركية بإخراج الشريف عبد المنعم من أراضيها؛ ليتوجه إلى السودان. ومرة أخرى وجد الشريف عبد المنعم نفسه ميمماً شطر الحبشة في طريق عودته إلى السودان حيث استقر في أم درمان وتزوج من السيدة نفيسة علي عبيد. وعندما تعرض لمضايقات الإنجليز هاجر الشريف عبد المنعم إلى منطقة المسلمية، حيث مكث لفترة من الزمن، وتوجه نحو الحبشة مرة أخرى. عاد الشريف إلى أم درمان واستقر بحي الشهداء هو وأهله، وما زال منزله قائماً، شرق سوق أم درمان على شارع السيد علي الميرغني. ولكن يبدو أن قدرة الله كانت تسوق الشريف عبد المنعم باتجاه كردفان، أو بالأحرى دار الريح، ليدق أطنابه بشكل نهائي في تلك البقعة الجميلة التي عرفت باسمه

ألا وهي أم سعدون الشريف. فبعد الإقامة بأم درمان، اضطر الشريف عبد المنعم إلى الهجرة صوب الغرب متوجهاً نحو كردفان، ونزل ضيفاً عند العارف بالله السيد إسماعيل الولي في مدينة الأبيض وظلت العلاقة بينهما قائمة حتى وافتهما المنية عليهما من الله شآبيب الرحمة والمغفرة.

تنقل الشريف عبد المنعم خلال تلك الفترة بين الأبيض وجبال النوبة وتزوج هناك وأنجب بنتاً. وبعد انتهاء المهمة التي انتدب إليها في جبال النوبة، ولعلها الدعوى إلى الله، ذهب سيدي الشريف إلى دار حامد وتحديداً إلى منقطة أم شُحيطة والقفلة وكمّار، حتى طاب له المقام أخيراً كما قلنا بأم سعدون الشريف بعد أن رحب به أهلها، وجاءته قبائل دار حامد وشاركته السكنى في تلك القرية التي أسس بها مسيده لتحفيظ القرآن الكريم، وبدأ ينشر علوم الفقه والسيرة النبوية، وتوافد عليه الناس والعلماء والدارسون من كل حدب وصوب؛ خاصة من إفريقيا وبلاد الشناقيط في موريتانيا، إذ كانوا يفدون على الشريف في طريقهم إلى الديار المقدسة في الحجاز؛ لأداء فريضة الحج، ومنهم من سلك عليه الطريق التجاني.

سلك الشريف عبد المنعم الطريق التجاني على يد سيدي محمد الغالي عن سيدي الشيخ أحمد التجاني أبو العباس، مؤسس هذه الطريقة الموصلة إلى الله تعالى. وهذا السند يعتبر هو الأقرب في سلسة الطريقة التجانية. ولذلك جدد عليه سند الطريق كثير من أحفاد الشيخ أحمد التجاني، منهم السادة ابن سالم، ومحمد الطاهر، وعبد الصمد وعلال وسيدي ابن عمر بن سيدي بن سالم. وقد زاره كثير من أقطاب الطريقة التجانية وشيوخها، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، سيدي محمد الحافظ والسيد ابن عمر وسيدي الحاج علي بالعربي.

تشمل قائمة العظماء الذين تتلمذوا على يد الشريف عبد المنعم، أو سلكوا الطريق على يده، أو جددوا عليه العهد، أسماء لرجال عظماء كتبوا أسماءهم في سجل التاريخ والمجد بأحرف من نور وبماء الذهب؛ منهم زعيم دار حامد الشيخ تمساح سيماوي، دفين أم سعدون الشريف، وابنه الشيخ محمد تمساح سيماوي، ناظر عموم دار حامد، والشيخ فضل الله ود الإعيسر، ناظر عموم الكواهلة، والشيخ موسى عبد المجيد الحراني، ومنهم جدنا عمر محمد قش، والشيخ عبد الله آدم راجل أم كتيرة، والشيخ محمد الحاج عثمان الجعفري، والشريف أحمد عبد القادر المشهور بركركة وغيرهم كثر لا يتسع المجال لذكرهم.

ظلت تقابة القرآن في أم سعدون الشريف متقدة منذ ما يزيد عن قرن من الزمن، وظلت تلك البقعة الطيبة تحمل مشاعل النور وتنشر المعرفة وتنير الطريق عبر خريجيها الذين انتشروا في كثير من بقاع السودان وهم يبصِرّون الناس بأمور دينهم ويهدوهم إلى سواء سبيل وفقاً لذات المنهج الذي ظل الشريف عبد المنعم وأحفاده يلتزمون به ويسيرون على هداه كابراً عن كابر حتى يومنا هذا. وكما

ورد آنفاً انتقل الشريف عبد المنعم إلى جوار ربه راضياً مرضياً، بعد عمر تجاوز مائتي سنة بكثير، في شعبان 1354، ودفن في أم سعدون الشريف، رحمه الله وجزاه عنا خير الجزاء بقدر ما نشر العلم وخدم القرآن والسنة النبوية المطهرة وأنار الطريق لكثير من الناس.

تعاقب على خلافة السجادة في مقام سيدي الشريف عبد المنعم نفر كريم من أحفاده منهم:

- الخليفة أحمد الشريف عبد المنعم
- الخليفة إبراهيم الشريف عبد المنعم
- الخليفة عبد المنعم أحمد الشريف عبد المنعم
- الخليفة مصطفي أحمد الشريف عبد المنعم
- والخليفة الحالي هو الشريف النذير أحمد الشريف عبد المنعم
- هذا بجانب خلفاء الشريف إبراهيم بن الشريف عبد المنعم وهم:
  - الخليفة أحمد إبراهيم الشريف
  - الخليفة عبد المنعم الشريف إبراهيم
  - والخليفة الحالي عبد الحليم إبراهيم الشريف

هذا باختصار شديد قيض من فيض عن سيرة الشريف عبد المنعم وهو أحد الرجال الذين خدموا الدين وأناروا الطريق أمام كثير من الناس الذين هداهم الله، بفضل منه، على يد الشريف عبد المنعم، والذين حملوا الراية من خلفائه حتى غدت أم سعدون الشريف منارة للعلم والهداية. ومن المؤسف لا تسعفنا المصادر المتاحة عن مكان تلقي الشريف عبد المنعم العلم ولا عن المشايخ الذين درس على أيديهم، إلا أن من المرجح، حسب نشأته، في كنف السادة الأشراف، أن يكون الشريف عبد المنعم قد تلقى العلم على طريقة أبناء الأشراف في ذلك الزمن؛ إذ كانوا يجلسون لدى المربين والمشايخ الذين يقدمون لهم العلم والمعرفة والتربية.

وختاماً لا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر الجزيل لسيدي وزميلي أبن عمر محمد إبراهيم، حفيد الشريف عبد المنعم، الذي يسر لي الحصول على هذا السفر القيم الذي استقيت منه هذه المعلومات، فجزاه الله عنا خير الجزاء.

(15) آل الفكي الناير

من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه، فمنهم من قضى نحبه، ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا، ولعمري إن انطبق هذا الكلام الربّاني على أحد في زمننا هذا، فإنما ينطبق على آل بيت من دار الريح، عرفوا بالعلم والزهد والتقوى والكرم والشجاعة وقول الحق وفصل الخطاب والحكمة والإصلاح بين الناس، وإرشادهم إلى طريق الحق والهدى والصبر على التعامل معهم! رأيت ذلك وشهدته بأم عيني ممن أدركتهم من هؤلاء القوم الذين ما ذكر المجد إلا ذكروا، فقد كان لهم ولا يزال القدح المعلى في كثير من الفضائل والمكارم، فهم قوم كرام السجايا، أينما ذكروا يبقى المكان على ذكرهم عطراً. وهم من نفاخر بهم بين البرية، ليس على سبيل الجاهلية والادعاء، أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين، ولكنهم كانوا تماماً كما قال الشاعر:

أُولَئِكَ آبَائي، فَجِئْني بمِثْلِهِمْ إذا جَمَعَتْنا يا جريرُ المَجَامِعُ

أعني هنا آل الفكي النايرود الفكي منعم ود الفكي عليْ، وهم من دار حامد، فرع الفراحنة. ولد الفكي النايرـ، رحمه الله، في قرية أم بعاشيم، إلى الشمال من بارا، وعاش فيها في مقتبل العمر ثم شد الرحال في أول صباه إلى دار الجمع في غرب النيل الأبيض وشرق كردفان لتلقي العلم وحفظ القرآن على يد الشيخ النور ود العجوز في أبو ركبة، شرق تندلتي. وبعدما حفظ كتاب الله، وتلقى قدراً من العلم الشرعي؛ خاصة الفقه والسيرة النبوية، وظهر نبله ونبوغه، أعجب شيخه النور ود العجوز بأخلاقه وحسن تصرفه؛ فزوجه بنته. بعد ذلك سار الفكي النايربأهله راجعاً إلى مسقط رأسه في دار الريح. وأنجبت له تلك السيدة الفاضلة منينة بت الفكي النور ود العجوز أحد العلماء والرجال الأفذاذ ألا وهو الفكي عيسى ود النايرـ، والفكي محمد ود النايرـ، وجدتنا عدلة بنت الفكي النايرالتي انجبت جدي عمر محمد قش، رحمهم الله جميعاً.

في مطلع القرن التاسع عشر، أوقد الفكي النايرتقابة القرآن في أم بعاشيم، التي تحولت من مجرد قرية صغيرة في وسط كثبان كردفان إلى قبلة يؤمها طلاب العلم والراغبون في حفظ كتاب الله من مشارق السودان ومغاربه، وجاءه الطلاب من دار حمر وكتول ومن دار المرامرة والهبابين، من دار حامد، واجتمع حوله خلق كثير؛ لما عرف عنه من كرم وحسن وفادة، فقد فتح الله عليه أبواب الرزق، ولم يكن يبخل على تلاميذه بشيء، حتى قيل إن الفكي النايركان يذبح بقرة كل يوم جمعة؛ لإطعام التلاميذ وحدهم، علاوة على ما ينفق عليهم من مأكل ومشرب، وكان، رحمه الله، لا يشرف على المسيد فحسب، بل يتولى التدريس بنفسه؛ حتى حفظ عليه القرآن الكريم، من اسم محمد لوحده ما يزيد عن مائة حافظ لكتاب الله، حسبما روى لنا حفيده الفكي الجزولي ود عبد الله ود الفكي عيسى.

عاش الفكي الناير عمراً طويلاً؛ إذ أدرك أواخر دولة سنار، وكان قد بلغ من العمر عتياً في أواخر العهد التركي، وتوفي قبيل المهدية بقليل، وفقاً لبعض المصادر الشفوية. حفظ القرآن الكريم في مسيد الفكي الناير رجال كثر منهم أولاً أبناؤه الكبار، الفكي عيسى ود الناير، ومحمد ود الناير، والأمين ود الناير وطه والمهدي وبعض أحفاده ومنهم جدي عمر قش والفكي التوم ود مبارك، وبعض عيال أبو زوايد والفكي أبو النور، والشيخ النور أبو علي، وكثيرون لا يتسع المجال لذكرهم. تزوج الفكي الناير وأنجب عدداً من الأبناء الأعلام منهم الفكي محمد ود الناير، كما أنجب بنات فاق عددهن السبعة فزوجهن جميعاً لبطون الفراحنة، ولذلك يقال ما من فرحاني إلا وله له صلة بهذا الرجل العظيم. توفي الفكي الناير ودفن بقرية أم بعاشيم ولا يزال قبره يزار هناك.

بعد وفاة الفكي الناير انتقل أحفاده إلى حلة الفكي، التي لا تبعد كثيراً عن أم بعاشيم، وهي تقع في منطقة الخيران إلى الجنوب من دميرة. وتولى شأن المسيد بعد ذلك الفكي عيسى ود الناير وهو كما أشرنا قد حفظ القرآن على يد والده في أم بعاشيم، ثم توجه نحو مسيد الفكي ضو البيت راجل أم عرق ودرس عليه الفقه حتى صار يفتي على المذاهب الأربعة، وتخصص في المذهب المالكي، فحفظ خليل والرسالة وغيرها من كتب المذهب. ودرس الفكي عيسى أيضاً على يد الشيخ صالح راجل أم عش، شمال أم روابة، وهو من الجمع، وتزوج بنته الحرم بت صالح، تلك المرأة الصالحة، التي أنجبت جدنا الفكي عمر ود الفكي عيسى المعروف بكريدم. وصار الفكي عيسى ود الناير من الذين يرجع إليهم في المسائل الشرعية التي تصل إلى القضاء في العهد التركي وفي هذا الصدد يقول الدكتور عمر بدوي أبو البشر في مؤلفه القيّم، عن سيرة الشريف كرّام، بعنوان من كادوقلي إلى شنقيط-صفحة 95_ 96 ما نصه: ''استقدمت الحكومة التركية لبارا الفقيه بحر صالح من شندي، فهو أول قاضي بها، وكان سكان بارا قبل ذلك يستفتون العلماء في القرى المتفرقة مثل ''أم عرق''. وبعد حضوره إلى بارا أقام الشيخ بحر محمد صالح مجلساً للعلم لتدريس أبنائه وقد انضم لمجلسهم الفقيه عيسى ود الناير والعالم المشهور ''ضو البيت''. ولعل هذا النص يعطي مؤشراً واضحاً على تلك العلاقة التي كانت قائمة بين آل الفكي الناير والفقيه ضو البيت؛ لذلك انضم الفكي عيسى إلى ذلك المجلس.

سلك الفكي عيسى ود الناير الطريق التجاني على يد العالم الفذ والرجل المشهور، أحد أقطاب التجانية، سيدي الشيخ الطاهر بن التلب الحيمادي، دفين أم درمان، بسنده إلى الشيخ الأكبر سيدي أحمد التجاني أبو العباس، مؤسس الطريقة، ولكننا لا نعلم متى وأين التقى الفكي عيسى ود الناير بالشيخ الحيمادي. وتشير بعض المصادر أن الشيخ الطاهر الحيمادي هو رجل من كبار العلماء، من قبيلة التعايشة، فرع النُمورة، ولد في منطقة رهيد البردي، بجنوب دارفور، وبعد أن تلقى العلم وحفظ القرآن، أكمل سلوكه للطريق التجاني عند سيدي محمد المختار الشنقيطي. وقد تتلمذ الشيخ الحيمادي

أولاً على الشيخ أحمد بن إدريس، وجلس معه أربعة عشر عاماً، تلميذاً بصبية باليمن السعيد، فأمره أن يرجع للسودان، ورجع الشيخ الحيمادي واشتغل مؤذناً بمسجد الفاشر حتى اجتمع بالشريف محمد المختار التشيتي الإدريسي، فأكمل العلم والسلوك على يده. وتوفي الشيخ الحيمادي، رحمه الله، في زمن الخليفة عبد الله التعايشي، ويقال إنه قد مات مقتولاً، ودفن بأم درمان في مقابر الجمرية، وقبره معروف، يؤمه الزوار.

تولى الفكي عيسى ود الناير تدريس الفقه في مسيد والده بحلة الفكي ودرس على يديه كبار الذين يشار إليهم في هذا المجال منهم إخوته أولاد الفكي الناير والفكي عبد الرحيم ود إدريس وعمر محمد قش أبناء أخواته وغيرهم كثير، والشيخ الحاج عمر ملي الذي قدم من مالي، في طريقه إلى الحج فجلس يدرس العلم على يد الفكي عيسى لفترة من الزمن. وأعجب الحاج عمر ببعض صفات الفكي عيسى وقال عنه إنه يخاف الله؛ ولذلك يخافه الناس من الحكام والمحكومين، ثم إنه كان يطعم الطعام وينفق ماله بلا رياء ولا منة، ويقيم الليل بالذكر والعبادة. واستقدم الفكي عيسى ود الناير علماء كبار للتدريس وتحفيظ القرآن منهم الشيخ آدم البرقاوي والشيخ جمال الدين، كما عمل بذات المسيد المشايخ الذين تخرجوا فيه من حفظة كتاب الله، من أبناء الفكي الناير.

وظل المسيد يؤدي رسالته في العهد التركي بشكل متميز، فازدهرت الخلوة وكثر عدد الطلاب. وظلت علاقة الفكي عيسى برموز الحكم التركي في الأبيض متميزة؛ خاصة مع إلياس أم برير مدير كردفان آنذاك قائمة، وكانت بينهما صداقة وله معه مواقف طريفة. عند ظهور المهدي ووصول دعوته إلى دار الريح، وجدت معارضة صارخة من الفكي عيسى ود الناير الذي أنكر على المهدي تلك الدعوة. ولذلك بعد فتح الأبيض مباشرة أرسل المهدي مجموعة من جنوده فأخذوا الفكي عيسى إلى الأبيض، فطلب منه المهدي تولي القضاء أو الإمامة أو أن يصبح رئيساً لكافة قبائل دار حامد، ولكنه رفض كل تلك الوظائف؛ لأنه لم يؤمن بفكرة المهدية. وبعد فتح الأبيض، اصطحب المهدي الفكي عيسى ود الناير، تحت الحراسة المشددة، في طريقه لفتح الخرطوم، ولكنه لم يؤذيه أو يسئ إليه؛ نظراً لما كان يعرفه عنه من علم وصلاح.

بعد وفاة المهدي، نقلت وشاية إلى الخليفة عبد الله بأن الفكي عيسى يعيد صلاته في بيته، فما كان من الخليفة إلا أن أودع الفكي عيسى في سجن الساير. ولما تبين له أنه رجل صادق وعالم، أفرج عنه وطلب منه مثلما طلب المهدي أن يتولى القضاء أو الإمامة، ولكنه رفض مرة أخرى، ولم يرد العمل لدى من يراهم من الظالمين. وقرر الخليفة أن يضع الفكي عيسى تحت الإقامة الجبرية في أم درمان، بيد أنه نفاه إلى جبال المرخيات في أواخر عهده. مكث الفكي عيسى في أم درمان خمس عشرة سنة، طيلة مدة المهدية. وبعد معركة كرري، خرج الفكي عيسى من منفاه في جبال المرخيات وسافر مع

صديق له من العركيين يسمى ود النتيفة، وذهب إلى الدويم واشتغل بتدريس العلم وتحفيظ القرآن وأنشأ داراً عامرة هناك، ومن بعد ذلك ذهب إليه الفكي يوسف ود التوم وأرجعه إلى دار الريح، فعمرت الخلوة مرة أخرى وعاد كل الذين زعزعتهم المهدية.

في أثناء فترة الخليفة عبد الله تعرضت حلة أولاد الفكي لما يعرف «بالكتلة»؛ إذ أرسل الختيم موسى، عامل الخليفة عبد الله في الأبيض آنذاك، مجموعة من الجهادية إلى حلة الفكي، إثر وشاية كاذبة، فقتلوا نفراً كثيراً من أبناء الفكي الناير، وسبوا الأطفال وبعض النساء والرجال وأخذوا الأموال والسلاح، ودكت تلك القرية التي كانت عامرة. ومن الذين قتلوا في تلك المذبحة البشعة الفكي محمد ود الناير، والفكي إدريس ود المهدي والفكي عبد السلام ود الفكي الناير وآخرون. ولم تعد الحلة إلى سالف عهدها إلا بعد عودة الفكي عيسى ود الناير من الدويم، أو بالأحرى من سجون التعايشي!

في عهد الإنجليز أجمعت كل قبائل دار حامد، وفق وثيقة مشهودة، وموقعة من قبل كل مشايخ المنطقة، على أن آل الفكي الناير هم بيت الدين في القبيلة؛ ولذلك كانت تحال إليهم جميع القضايا ذات الطابع الشرعي؛ فيحكم فيها الفكي عيسى ومن بعده أبناؤه وفق الشرع وما قال الله وقال رسوله. وظل ذلك الوضع قائماً حتى انتقل الفكي عيسى إلى جوار ربه في مطلع العقد الرابع «بعد 1930» من القرن العشرين، ووري جثمانه الثرى في المقابر التي عرفت باسمه بالقرب من حلة الفكي عيسى إلى حوار إخوانه من أولاد الفكي الناير الذين سبقوه بالممات، عليهم الرحمة جميعاً. قبيل وفاته تلا الفكي عيسى ود الناير المصحف الشريف ألف مرة وكتب بخط يده أبيات من الشعر قال فيها:

أرح قلبك الفاني وسلم له القضاء   وتقرب بالرضا فأصل لا يتحول

علامات أهل الله فينا ثلاثة   إيمان وتسليم وصبر مجمّل

واصل مسيد الفكي الناير أداء رسالته ومسيرته القاصدة إلى الله، فتولى شأن المسيد الفكي الناير ود الفكي عيسى، وهو أحد المشايخ البارزين، بينما كان الفكي عمر كريدم ود الفكي عيسى يتولى تدريس الفقه والفتوى، وهو من الحفاظ المهرة فقد أوتي ذاكرة قوية ومقدرة على الحفظ واستنباط الأحكام، وقد حفظ القرآن في مسيد الفكي الناير، ودرس الفقه والتفسير على يد جده لأمه الشيخ صالح، من الجوابرة، في قرية أم عش الواقعة إلى الشمال من مدينة أم روابة. ومن العلماء الذين تولوا التدريس والحكم الشرعي من خريجي هذا المسيد، الفكي عبد الرحيم ود إدريس، ابن أخت الفكي عيسى. وقدم للعمل في المسيد الشيخ الفكي العاقب محمد الأمين من أحفاد الشيخ إدريس ود الأرباب. فبعد أن حفظ الفكي العاقب القرآن في العيلفون، التحق بمعهد أم درمان العلمي، ونال قسطاً من العلم على يد كبار علماء المعهد، ثم جاءه نفر من آل ساعد ود بلال من قرية الحديّد، شمال بارا، واتفق معهم على تدريس القرآن في تلك المنطقة، التي مكث بها لفترة طويلة وانتقل بعدها لدميرة بطلب من الشيخ

عيسى عمر قش، حيث راجع عليه القرآن كبار أهل المنطقة ومنهم عمنا عبده عمر قش، ووالدي التجاني عمر قش، وعلي ود مهدي، وعمنا العبيد عامر، وعمر محمد عيساوي، وضو البيت ود فضل، وغيرهم، ثم أنتقل الفكي العاقب إلى حلة الفكي، وتزوج هناك وظل يعمل بتحفيظ القرآن حتى وافاه الأجل ودفن في مقابر الفكي عيسى، بعد أن حفظ القرآن على يديه خلق كثير ومن هؤلاء الفكي أحمد ود حاروق، والفكي عبد الله ود الطيب وأحمد ود حامد ود جابر.

وبعد وفاة الفكي الناير ود الفكي عيسى، تولى الأمر جدنا الفكي الأمين ود الفكي عيسى، وظلت الخلوة قائمة حتى شرعت الحكومة في إنشاء المدارس النظامية، مثل مدرسة خور جادين الأولية التي بنيت في عام 1949 فتحول إليها معظم الطلاب والتلاميذ، ولكن مع ذلك ظلت نار القرآن متقدة حتى وفاة الفكي الأمين رحمه الله، وحمل الراية من بعده نجله الأمين عيسى الأمين عيسى، وهو من الشباب الذين حفظوا القرآن في كثير من خلاوي دار الريح مثل زربية البرعي ، وذهب إلى أم ضواً بان في شرق النيل، ومسيد الشيخ الجعلي في كدباس، ولا يزال مسيد الفكي الناير الفكي قائماً، ولله الحمد.

عرف آل الفكي الناير بحرصهم على قيام الليل وشدة الذكر وتلاوة القرآن والسعي للإصلاح بين الناس وإطعام الطعام والزهد في الدنيا والتواضع، كما عرفوا بالشجاعة والإقدام وبذل المعروف في سبيل الله، وظل هذا ديدنهم الذي اشتهروا به كابراً عن كابر؛ ولذلك كان لهم ولا يزال أثر واضح في دار الريح من كافة النواحي الدينية والاجتماعية.

ومن الذين درسوا في مسيد الفكي الناير، الفكي التوم ود يوسف، وهو ابن أخت الفكي الناير، وبعد أن حفظ القرآن، أنشأ مسيده في دميرة التوم، في عام 1850 تقريباً، وحفظ القرآن على يديه أبناؤه الفكي يوسف ود التوم، وعينه وغيرهم من أبناء المنطقة. وخلفه على شأن المسيد أنبه الأكبر الفكي يوسف ود التوم، الذي صار يباشر تحفيظ القرآن للتلاميذ بنفسه فحفظ عليه أبناؤه الفكي عبد المنان، وبشير، وبولاد، وعبد المجيد، والفكي التجاني والحاج عيسى، رحمهم الله جميعاً. ومن الذين تولوا التدريس في هذا المسيد الشيخ العوض من الجوامعة، ومن بعده الفكي حامد ود محمد ود مكين، من أم عشرة شرق بارا، وظل يعمل بالتدريس في مسيد الفكي التوم ود يوسف حتى عام 1914. ومن بعد ذلك جاء الشيخ محمد ود سعد الضرير، من الدويم، وهو الذي راجع القرآن على يده الفكي يوسف ود عبد المنان، ومن بعد ذلك تولي الفكي يسوف التدريس وأكمل الحفظ على يديه الفكي التجاني ود يوسف والحاج عيسى.

ثم ذهب الفكي يوسف ود عبد المنان للعمل بالتدريس في مسيد الحاج إبراهيم ود خمسين بالقرب من المزروب وتتلمذ عليه الشيخ الأمين حاج خمسين. وعمل الفكي يوسف أيضاً لدى الشيخ جمعة ود سهل في المزروب، وحفظ عليه القرآن أبناء شيخ جمعة سالم والحبيب، ومعهم الحاج الشيخ الزاكي

ومولانا حافظ الشيخ الزاكي، رئيس القضاء السابق، وعبد الله الشيخ البشير الحسن، ومن تلاميذ الفكي يوسف الفكي محمد عباس قادر.

ومن المعلوم أن الفكي يوسف قد درس الفقه عند الشيخ العلامة محمد ود الزاكي، وسلك على يده الطريق التجاني، ودرس المواريث على الشيخ موسى عبد المجيد، وتلقى الفكي يوسف ود عبد المنان مبادئ النحو واللغة العربية في بارا، وربما كان ذلك على يد الشيخ العالم عيسى، من أهل غرب السودان.

بعد افتتاح المدارس النظامية اضمحل مسيد الفكي التوم، فأنشأ الحاج عيسى ود يوسف، الذي تلقى العلم في مسجد أم درمان العتيق، خلوة في قرية الزرائب، وتولى التدريس فيه الفكي مهدي ود اللازم ود مهدي ود أبو النور، وحفظ أبناء الحاج عيسى القرآن على يده ومن هم المرحوم الوسيلة ود حاج عيسى وبعض أبناء القرية مثل يوسف ود طه ود يوسف ومحمد ود عبد المنان ود يوسف.

وفي مسيد الفكي الناير درس أيضاً الفكي عوض السيد ود إدريس ود هلال من فرع الهبابين، ومن بعد ذلك أنشأ خلوة لتحفيظ القرآن بمنطقة أم سرحان بالقرب من أم سعدون الناظر وتلقى العلم وحفظ القرآن في تلك الخلوة رجال كثيرون.

في وقتنا الحاضر يدرس في مسيد الفكي الناير عدد من أبناء القرية، ومنهم بعض الحفظة الذين يتولون إمامة المساجد في مدن العاصمة المثلثة وهم لا يزالون يسيرون على هدي آبائهم من الرجال العظماء، الذين ذكرناهم، نسأل الله لهم التوفيق والسداد.

أنا مدين فيما يتعلق بمعلوماتي في هذا الصدد إلى جدي الفكي الأمين ود الفكي عيسى وعمنا الجزولي ود عبد الله ود الفكي عيسى، رحمهما الله، والشيخ التجاني يوسف عبد المنان، وبعض الإخوة ومنهم الشريف إبراهيم الدلال، جزاهم الله عني خير الجزاء.

(16) الشريف كرّام

ظل طريق الحج الإفريقي، على مر الأزمان والحقب، جسراً للتواصل بين السودان وغرب إفريقيا وشمالها؛ خاصة بعد سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس، حيث اضطر كثير من العلماء إلى الهجرة نحو المشرق، إما بحثاً عن موطن جديد، أو سيراً في طريقهم إلى الأراضي المقدسة في الحجاز وبيت المقدس؛ لأداء الحج في مكة المكرمة، وزيارة المسجد النوبي في المدينة المنورة، وبيت المقدس في فلسطين. وكان السودان إحدى أهم المناطق التي استقطبت عدداً من أولئك الرجال العظماء، ومن الطبيعي في تلك الظروف أن تكون دارفور وشمال كردفان، ومنها دار الريح، نقطة العبور التي يمر من خلالها القادمون من غرب إفريقيا. أولئك العلماء جلبوا معهم معارف جديدة إلى السودان، منها المذهب المالكي، وكتبه المعروفة مثل مختصر خليل ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وغير تلك من كتب المذهب وشروحه، وألفية بن مالك وبعض كتب النحو، الذي برع فيه الشناقيط، وجلبوا أيضاً قراءة ورش، وهي الرواية المنتشرة في بلاد المغرب العربي والجزائر وموريتانيا وبعض الدول الإفريقية، ونشر بعض هؤلاء العلماء الطريقة التجانية، التي تأسست أصلاً في المغرب العربي.

طاب المقام لبعض القادمين من الغرب الإفريقي، وبلاد المغرب العربي، المقام في مدن غرب السودان وكردفان وأريافها، وصاروا جزءاً لا يتجزأ من النسيج الاجتماعي، بعد أن تصاهروا مع أهل الديار الذين رحبوا بهم كعادتهم، فهم يرحبون بالغريب؛ خاصة إذا علموا أنه من الأشراف أو آل البيت المحمدي، فما من مدينة أو قرية من تلك المناطق إلا وبها حي للقادمين من غرب إفريقيا.

باختصار شديد كان لغرب إفريقيا وشمالها أثر على نواحي عدة على الحياة في شمال كردفان ودار الريح، اجتماعياً واقتصادياً ودينياً وربما حتى سياسياً، فكثير من المهاجرين هم من أصحاب العلم والخبرات والتجربة. ومن الطبيعي أن ينقلوا كل تلك المعارف والتجارب إلى مقرهم الجديد، فأفاد منهم الناس وتقرب إليهم الحكام والزعماء وقدموا لهم كل ما يحتاجون من عون وحماية وتشجيع. ونتج عن ذلك كله تلاقح علمي واجتماعي فريد شكل وجدان أهالي المنطقة والقادمين إليها، وساهم في تطورها واستقرارها. واتخذ الحكام مستشارين من هؤلاء العلماء يرجعون إليهم فكانوا يشاورنهم في المسائل الفقهية والقضاء والإدارة، هذا فضلاً عن التواصل الحضاري بين العلماء وعامة الناس عبر مجالس العلم وحلقات تحفيظ القرآن والمعاملات التجارية وغيرها من الأنشطة البشرية فتولدت مفاهيم جديدة وبرزت أجيال هي نتاج طبيعي لكل ذلك التمازج والاندماج.

عموماً كان علماء الشناقيط هم أصحاب الحظ الأوفر في هذا الصدد؛ نظراً لما يوجد من تشابه كبير

بين المجتمعين السوداني والموريتاني ولهذا السبب استقر نفر كريم من الشناقيط في دار الريح واندمجوا مع السكان، وجدير بالذكر أن كثيراً من السادة الأشراف استقروا بمنطقة دار حامد كدعاة إسلاميين ومعلمين للفقه والقرآن في الخلاوي التي كانت تنتشر في تلك المنطقة، فأفاد الناس من علمهم، ومن هؤلاء الرجال الكرام الشريف المعروف بكرّام.

وهو كرّام بن عبد الغفار بن عثمان بن محمد الدوليمي الشنقيطي، وينتهي نسبه إلى علي بن أبي طالب وفاطمة الزهراء رضي الله عنهما. قدم هذا الرجل العظيم إلى السودان في الفترة ما بين عامي 1810 و1830 قادماً من الحج. وقد طاب له المقام فتواصل مع زعيم دار حامد المعروف أمبدة «دود أم دقينة» الذي أعجب به وزوجه بنته فاطمة الحمرة.

استقر الشريف كرّام وعاش في منطقة الخيران، شمال غرب بارا، بين قرى البويرة وأبو قايدة والحُمَرة والرغاي والبشيري. وقد كان الشريف كرّام رجل علم ودين وصلاح ظاهر، كما كان على خلق رفيع وشهامة ومرؤة؛ ولذلك وجد كل الترحاب وحسن الضيافة من أهل المنطقة الذين ما لبث أن صار جزءاً منهم يستشيرونه في أمورهم الخاصة والعامة، ويفتيهم بما أوتي من علم وفقه.

وفي وقت وجيز صارت للشريف كرّام مكانة مرموقة وسط الأهالي والحكام من الأتراك على حد سواء، لما عرف عنه من نسب شريف وخلق حسن وتدين، فصار يستعان به في حل ما ينشب بين أهالي المنطقة من خلافات ونزاعات، وبالتالي أصبح الشريف كرّام من أبرز رجالات المنطقة ومن الأعلام المعروفين حتى استعان به الحكام الأتراك في إدارة شؤون المنطقة. وتزوج الشريف كرام، بعد زوجه من فاطمة الحمرة، بإحدى كريمات العريفية وهي سلطانة بنت سلمان فكانت له ذرية طيبة من زوجتيه من دار حامد الذين كان يكن لهم كل الود والاحترام بسبب المصاهرة والعشرة الممتدة والنسب.

التقى الشريف كرّام كذلك بأحد العلماء الأفذاذ وهو القاضي بحر محمد صالح، قاضي بارا وزاد الارتباط بينهما حتى بلغ درجة المصاهرة ومن ثم الاندماج الكامل بين هذين الأسرتين، حتى لم يعد من الممكن التمييز بينهما، فقد جمع بينهما أصلاً الاهتمام المشترك بالعلم والإصلاح وشؤون الدعوة ونشر الإسلام والقضاء بين الناس فيما شجر بينهم. لقد كان الشيخ بحر قاضياً، أما ابناه جمال الدين وإدريس فقد كان كلاهما مدرساً للفقه والقرآن وما تربك بذلك من معرفة، ولا يزال الناس في بارا ودار الريح عموماً يذكرونهم بخير.

عندما حدثت «كتلة شاكر»، الحاكم التركي على شمال كردفان، على يد دار حامد بقيادة أم بدة؛ نظراً لأن شاكراً قد كان قاسياً في تعامله مع أهل المنطقة من أجل جمع الضرائب، فقررت الحكومة التركية الانتقام، وعلى إثر ذلك اضطر الشريف كرّام للرحيل مع دار حامد إلى منطقة أم دخن، غرب الفاشر،

وهناك توفي العالم الجليل الشريف كرّام ووري الثرى في قرية الشرفة، رحمه الله تعالى بقدر ما خدم الرسالة المحمدية وأرشد الخلق.

ومن العلماء الشناقيط الكبار الذين كان لهم دور بارز في دار الريح، حيث تولوا التدريس والإمامة، العلامة المتفنن الشيخ محمد السالك ولد خي «دفين المزروب»، وقد تتلمذ عليه نخبة من العلماء الأجلاء، على رأسهم الولي الكامل والعالم العامل الشيخ عبد الباقي أبوه في الأبيض، والعالم موسى عبد المجيد الجامعي الحراني، والشيخ عبد الرحيم البشير البزعي، من أهل مليحة، والشيخ عبد الرحيم ود وقيع الله المشهور بالبرعي، واستفاد منه غاية الاستفادة تلميذه ولزيمه الحاج الشيخ ود الزاكي. والشيخ محمد السالك أخذ من كل فن بطرف، وله في النحو اليد الطولي، وقد نظّم قطر الندى لابن هشام ونظم الأجرومية وأضاف أبياتاً لألفية ابن المالك، واستدرك على ابن قتيبة في أدب الكاتب.

ومنهم صاحب السر الجامع الشريف أحمد حماه الله والعالم الجليل عمنا الشريف عبد الله محمد صالح الملقب بأبونا الناصري، الذي كانت تتجاذبه المدامر بين الكوكيتي وأبو رقاشة ورهد ود أقروب، من ديار دار حامد، وكان يحفظ موطأ الإمام مالك وألفية ابن مالك وألف بيت شرحاً لها، فضلاً عن حفظه التام للقرآن الكريم. وضع الشريف عبد الله عصا الترحال أخيراً في كنف صديقه الشيخ التجاني عمر قش، في قرية دميرة، واستفاد منه الناس وله علينا يد سلفت ودين مستحق، وكان لا يبالي في قول الحق والنصح وعاش بين الناس كواحد منهم حتى وافته المنية، في منتصف ثمانيات القرن الماضي ودفن في مقابر أبو زوايد بدميرة، وهو متزوج من الشريفة مريم بنت العالم الرباني الشريف محمد عمر الشنقيطي، رحمهم الله وغفر لهم جميعاً.

ومن الأشراف الذين استقروا في دار الريح، الشريف أبو فليجة، واسمه الأصلي فكيا بن محمدون بن عبد القادر الملقب بباقي ابن الفقيه بله وهو من سلالة الحسن بن علي رضي الله عنهما، وقيل إنه ينتمي للأنصار؛ أي الأوس والخزج، الذين عاشوا في مالي بعد سقوط الدولة الإسلامية في الأندلس.

تلقى الشريف فكيا العلم في الصحراء شمال مالي، من شيخه الحسين ووالدته، وحفظ القرآن وهو ابن عشر سنوات، ودرس المذهب المالكي وألفية ابن مالك. وقدم إلى السودان وهو في ريعان شبابه وأدي فريضة الحج مع الناظر جمعة ود سهل وبشير الفكي من الأبيض وآخرين. وبعد عودته من الحج أقنعه أصدقاؤه بالبقاء في السودان، وكان مولعاً بالتربية الصوفية فزار الصالحين مثل الشيخ ود بدر وود حسونة واستقر مع الشيخ المكاشفي للتربية الصوفية في الشكينيبة ردحاً من الزمن، ثم أذن له أن يذهب ويستقر في دار الريح. جاء إلى دار الريح والتقي بأحد أقربائه الشريف محمد خير في جبير وتزوج في منطقة صنوبر، وسط دار حامد وبقي هناك طيلة عمره.

وكان الشريف فكيا يعمل بالتجارة فانتقل الي قرية قوز خليفة، وأسس فيها خلوة لتحفيظ القرآن الكريم

وكان المعلم في تلك الخلوة شيخنا الفكي محمد الأمين موسي من الجوامعة. استمرت الخلوة كما هي الي أن ذهب الحيران كلهم الي مدرسة خور جادين في أوائل الخمسينيات وكان دخولنا من العوامل التي أدت الي زوال الخلوة ولم تقم لها قائمة.

أقام الشريف أبو فليجة، كما يلقبونه نسبة لفلجة في أسنانه، في منطقة دار حامد، وكانت علاقته وثيقة بالعمدة التجاني عمر قش وأخيه عبده، طيب الله ثراهما، كما كانت علاقته أيضا حميمة مع ناظر عموم دار حامد المرحوم محمد تمساح سيماوي والناظر جمعة سهل. وكانت له صلة بالشريف عبد المنعم والشريف احمد حماه الله بحكم الطريقة التجانية وهو مقدم فيها وله اتباع ومريدين من الجوامعة. توفي الشريف أبو فليجة بعد في يوم ٢٣ ديسمبر ١٩٩٥ عن عمر ناهز ٩٧ عاماً ودفن في مقبرة الفكي صافي بصنوبر، اللهم اغفر له وارحمه رحمة واسعة.

هذا قليل من كثير عن سيرة السادة الأشراف الذين عاشوا في دار الريح وأتقدم بالشكر هنا للدكتور عمر البدوي أبو البشر، حفيد الشريف كرّام، والشريف إبراهيم الدلال، والشريف موسى ود الشريف أبو فليجة على ما أتحفونا به من معلومات قيمة وثرة عن هؤلاء السادة الأجلاء، بارك الله فيهم وزادهم علماً وبركة وتشريفاً.

(17) الشيخ البانور

هذه السلسلة يقصد بها تسليط الضوء على أهم المراكز الدينية التي قامت وانتشرت في دار الريح، حتى نذكّر الناس ونعرّف الأجيال الشابة على ذلك المجد التليد الذي أسسه الآباء والأجداد وكان سبباً لسير المجتمع على هدى المصطفي صلى الله عليه سلم؛ ولذلك تمسك الناس بتلك القيم الرفيعة من التعاون والتكاتف ونجدة الملهوف وإكرام الضيف والتراحم، والتواصل وفق منهج قيمي مستقيم هو نتاج طبيعي لانتشار تقابات القرآن في كثير من مناطق دار الريح شرقها وغربها. ويعتبر التصوف السني، الذي ارتبط به كثير من تلك المراكز الدينه، هو ما أرسى قواعد السلوك؛ وذلك لما تراكم في هذا المجال من رصيد تربوي أسهم-عبر التاريخ-بصورة فعالة جداً في تشكيل الوجدان الديني والسلوك الاجتماعي لدى العامة والخاصة. وقد ظلت الخلوة أو المسيد الملاذ الآمن الذي يلجأ إليه الناس لطلب الرأي والمشورة، والفتوى، من المشايخ مما أكسب تلك الخلاوي مكانة اجتماعية راسخة.

ونظراً لدورها في تحفيظ القرآن وتعليم الفقه وتأثيرها في تفاصيل الحياة اليومية، وتكريسها للثوابت الدينية المشتركة عقيدة ومذهباً وسلوكاً، فإن خلاوي القرآن هي مؤسسات مجتمعية لتعزيز الجوانب الأخلاقية، والتربية الروحية، وتزكية النفوس وتطهيرها. من هنا يمكن التأكيد على القيم النبيلة التي تسود في مجتمعاتنا إنما هي من غراس قيم الوسطية والاعتدال والمحبة والتسامح وإشاعة الأمن والسلام التي ازدهرت أصلاً في كنف الخلاوي وبرعاية مباشرة من لدن المشايخ الفضلاء الذين أسسوا تلك الخلاوي، وقاموا برعايتها.

هنالك خلاوي تركت أثراً بالغاً في مجتمعاتها المحلية؛ لعدة أسباب أولها ظهورها المبكر في تلك المناطق قبل انتشار التعليم النظامي بسنين عدداً، واختيار مناطق بعينها لتقام فيها تلك الخلاوي بقصد تربية النشء وتدريبه على التعايش مع بيئته المحلية بكل معطياتها، وعلاوة على ذلك صدق نية الرجال الذين أنشأوا تلك الخلاوي لنشر القرآن والعلم الشرعي، ليس لأمر لتحقيق مكاسب دنيوية، وإنما خدمة لدين الله، وسعياً لنيل الثواب والإصلاح بين الناس. ومن تلك المراكز التي كان ولا يزال تأثير كبير على حياة الناس، خلاوي الشيخ البانور في أم ضبان، ومسيد الشيخ المبارك في قرية الشُوَق، وخلوة الشيخ عبد الغفور في أم هجليج، وتعرف أيضاً بمسيد أو نوار، وكل هذه الناطق تتبع الآن لمحلية غرب بارا.

خلوة الشيخ البانور، واحدة من أقدم خلاوي دار الريح؛ إذ يعود تاريخها إلى أواخر القرن التاسع عشر في قرية أم ضبان، بمحلية غرب بارا الآن. مؤسس هذا المسيد هو الشيخ البانور ود نور الدين ود

حمدنا الله ود إبراهيم أبو حجل ود الفكي بليلة ود عمرو، دفين البنية بالقرب من قرية شرشار، وهو أحد أجداد أهلنا النواهية، من دار حامد. ولد الشيخ البانور في القرن التاسع عشر، وتوفي تقريباً في الفترة من 1922-1925 ميلادية. نشأ الشيخ البانور في بيت علم ودين في كنف الشيخ نور الدين، الذي كانت تربطه علاقة وطيدة وصداقة مع الشيخ إسماعيل الولي.

حفظ الشيخ البانور القرآن الكريم على يد يرجل يسمى الشيخ حسين، ولكننا لا نعلم متى وأين كان ذلك. ومن ثم سلك الشيخ البانور الطريقة السمانية على يد الشيخ عبد المحمود بن الشيخ نور الدائم بن الشيخ أحمد الطيب البشير «راجل أمرحي» الذي أدخل الطريقة إلى السودان لأول مرة من مؤسسها في المدينة المنورة. كان الشيخ البانور مقرباً من الشيخ عبد المحمود؛ لأنه كان مادحاً حسن الصوت، بينما الشيخ عبد المحمود هو أحد أكبر شعراء المديح في السودان، سيما وأنه من الدوحة الطيبية. وللشيخ البانور زيارة سنوية كان يقوم بها هو وتلاميذه على ظهور الدواب من دار حامد، مروراً بقرية الزريقة في دار الجوامعة حتى طيبة الشيخ عبد المحمود في شمال الجزيرة.

وفيما يتعلق بحال الشيخ البانور مع عشيرته وأهله في أم ضبان وأم هجليج، فقد كان متواضعاً، رحيماً، حريصاً على تعليم الناس أساسيات الدين من حيث العقيدة الصحيحة وفقه العبادات، كما كان يشارك الناس في أنشطهم إذ كان يفتل الحبال ويصلح ما تلف من أوعية السقيا مثل القرب وغيرها. هذا فضلاً عن إرشاد الناس وتحفيظهم كتاب الله، ويرشدهم إلى صالح الأعمال والقيم ويحثهم على الالتزام بالشرع في تعاملاتهم كافة.

بعد وفاة الشيخ البانور، تولى الخلافة ابن أخيه الشيخ محمد، الذي لم يعش طويلاً وانتقل إلى جوار ربه، فظلت تلك السجادة بلا خلافة لفترة من الزمن، حتى كبر أبناء الشيخ البانور، وهما تحديداً البلة وبناني والبوني الذي توفي في ريعان شبابه. ذهب الشيخ البلة مهاجراً إلى طيبة الشيخ عبد الباقي، التحق بخلاوي العركيين بمنطقة ود مدني، حيث حفظ القرآن على يد الشيخ الناجي. وبعد ذلك توجه الشيخ البلة إلى طابت الشيخ عبد المحمود ومكث مع الخليفة الجيلي، خليفة الشيخ عبد المحمود مدة من الزمن، وسلك على يده الطريق السماني.

في عام 1956 ميلادية، ذهب الشيخ البلة وأخوه بناني إلى طابت وهناك اتفقا على أن يتولى الشيخ بناني الخلافة في أم ضبان، حيث كان يقيم الشيخ البانور، بعد استشارة الشيخ الجيلي، الذي رحب بالفكرة وباركها، فمن ثم عاد الشيخ بناني إلى موطن آبائه فصار خير خلف لخير سلف، حيث سار على ذات النهج تجاه أهله وفيما يتعلق بالدعوة لله وفقاً لمنهج القوم وأعراف الطريق السماني، فكان يسعى في تسوية الخلافات وإرشاد الناس وحثهم على فعل الخيرات والطاعات، الأمر الذي أكسبه حبهم واحترامهم، كما اجتهد في عمارة الخلوة والمسجد حتى شيده في العام 1996 بالمواد الثابتة من

الحجر والأسمنت. يوجد الآن ما يزيد عن مائة طالب يحفظون القرآن ويتلقون العلم في ذلك المسيد العامر، الذي تقام فيه صلاة التراويح في رمضان، ويختم القرآن كاملاً حيث يؤم المصلين الشيخ أحمد عدوي نور الدين.

توفي الخليفة بناني في 19 رمضان 1439، الموافق 14/6/ 2017 وتولى الخلافة من بعده ابنه البانور، بإشارة مباشرة من عمه الشيخ البلة البانور. أما خلافة الشيخ البانور الكبير فقد تولاها الشيخ البلة البانور، أطال الله عمره، ومع تقدم عمره، حفظه الله، إلا أنه يشرف على الخلوة بمساعدة أحفاده وأبناء أخوته وأهل القرية عامة؛ قد ازدهرت الخلوة الآن وتسير فيها الأمور على أكمل وجه؛ إذ يوجد بها شيخان لتحفيظ القرآن وتدريس الفقه، والعلوم الإسلامية الأخرى، هما الشيخ عدوي نور الدين، والشيخ الطيب محمد الطيب.

وبفضل الله وتوفيقه تأسس فرع آخر لهذه الخلوة في منطقة ود العباس، بالقرب من سنار، في عام 2009، ويتولى شأنه الشيخ عبد الله ود الشيخ البلة ود الشيخ البانور. وقد حفظ على يده القرآن الكريم عدد كبير من الطلاب والدارسين.

عموماً، إن أهل هذا البيت الكريم ظلوا يخدمون الدعوة الإسلامية والقرآن الكريم بكل جد وإخلاص؛ وقد أفاد من علمهم وبركتهم خلق كثير لا يتسع المجال لذكرهم. ويكفي أن احفاد الشيخ البانور ومنهم الدكتور العدوي البلة البانور هو الآن أستاذ القراءات والدراسات الإسلامية في الجامعات السعودية، وهو من أفادنا بهذا القدر الكبير من المعلومات، جزاه الله عنا خير الجزاء.

أما الشيخ عبد الغفور حمدان موسى، شيخ الطريقة وعالم الحقيقة، فقد ولد في عام ١٩١٤، وتوفي عام ١٩٨٩. نشأ الشيخ عبد الغفور في بيئة عربية بدوية بعد أن توفي والده، وعمره ثمان سنين، وتربى يتيما في حجر أمه التي كانت تلاطفه وتعامله برفق وتؤكله من الحلال من كسب يمينها؛ لأنها كانت معتمدة على الزراعة والحراثة. لم يدرس الشيخ عبد الغفور في خلوة ولا مدرسة، وبعدما بلغ سن الرشد سعي الإبل وكان يظعن بها مع عشيرته بالبادية، واشتغل بالتجارة وقد كان بارزاً وسط قومه، وكان صاحب عند كل القبائل.

وقد هيأ الله له الظروف التي جمعته بالشيخ المكاشفي؛ فأخذ عليه الطريقة القادرية وأجلسه على ككر المشيخة وأعطاه الأوراد. وكتب له الإجازة التي فيها سلسلة الطريقة القادرية إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ أبا سعيد المخزوم الي الجنيد الي خاله السري السقطي إلى السيد الباقر. وبعدما حظي بهذه النعمة العظيمة قال "الزول كما بطل غرض ما بقضى غرض"، وبعد ذلك ترك الدنيا بأجمعها فباع الإبل وترك التجارة وزهد الدنيا زهداً حقيقياً من غير رياء، فصار يلبس الدمور وينتعل بالكركب، وهو مصنوع من حطب الشجر، وكان يصوم النهار ويقيم الليل بالذكر وكان يذكر بالتهليل

وهي لا إله إلا الله، والمفرد وهو اسم الجلالة، وكان يحافظ على وصية شيخه التي أوصاه بها وقال له: أجزتك في رفع الرايات والنوبات.

وبعد ذلك عاد وأسس مسجده بالمزروب وأوقد نار القرآن وعلم فيها أولاد المسلمين، وسلك عليه طريقة القوم خلق كثير. وبعدها ارتحل الي دار أخواله بدار حامد النواهية بجريو، ومن ثم إلى أم هجليج، ثم رجع ثانياً إلى حمدانة وأسس مسجده وسماه أبو نوار. وكان يوصي المريدين ويقول لهم عليكم بملازمة الأذكار والأكل من الحلال، وكان يقول احفظوا عقائد التوحيد وهي الواجبة، والملحقات الخمسة، والواجب في حق الله وحق الرسل، وأركان الإيمان الستة، وقواعد الإسلام الخمسة والأربعين النووية وأصول الدين.

وكان يحرص على أن يحفظ الطلاب القرآن ويعملوا به. وكان صادقا مع شيخه الشيخ المكاشفي وقد كان يسافر له بالجمال والحمير هو وتلاميذه، من المزروب الي الشكينيبة. كما كان ينفق علي أولاد المسلمين عامة كبيرهم صغيرهم غنيهم وفقيرهم، والنساء والرجال من المحتاجين.

وكانت الوفود تأتي إلى الشيخ عبد الغفور من داخل السودان وخارجه، فما كان يطلب من الحكومة كثيراً ولا قليلاً، وإذا اعانته بشيء يقول لا حاجة لي به، فمرة يرجعه وتارة يتصدق به، ويقول نحن واقفين على باب الله، والله رازقنا، وظل هذا دأبه الي أن توفاه الله بمسجده في أبو نوار.

وبعد وفاته خلفه ابنه الخلفية الشيخ حمدان الشيخ عبد الغفور وهو رجل حافظ لكتاب الله وتابع لسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم وعالم بشرائع الدين ومتفقه في علوم الفقه والتوحيد، ولتزم بطريق القوم، وله باع في علم الفرائض والحمد لله.

أوقد الخليفة حمدان نار القرآن برهد التيتل التابعة لريفي المزروب، محل آبائه واجداده، وهو نور يستضاء به وسط أهله، تابع لأثر والده، زاهد الدنيا ومرابط في مسجده لا يتجول يمينا ولا شملاً؛ وعاملاً بقوله تعالى من عمل صالحاً من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة؛ وكل اخوانه ينظرون اليه بعين الاعتزاز ويحترمونه وكل الفقراء والمريدون يدعون له بالبركة وينظرون له كما ينظرون إلى الشيخ والده، وهو ينظر إليهم نظرة الأخ لأخيه ويشرف على الخلاوي التي تأسست بعد وفاة والده، ويتشاور مع إخوانه؛ عملاً بقوله تعالى: وأمرهم شوري بينهم. (حرره محمد الشيخ عبد الغفور حمدان).

والرجل الآخر الذي كان له أطيب الأثر في دار الريح هو الشيخ مركز بن مضوي بن إبراهيم بن إسماعيل، وينتهي نسبه إلى الفكي بليلة ود عمرو جد النواهية عموم. وهو المؤسس لمسيد أو خلوة الشوق. وقد جاء الشيخ مركز إلى الشوق من أم ضبان وأم هجليج باعتبار أن الساكنين في الشوق أبناء عمومته ولعل فطنة الشيخ مركز ونظرته الثاقبة فضل إن ينشأ الخلاوي في الشوق لكون الشوق تتميز بوجود الماء الوفير والنقي العذب إضافة لوجود أبناء العمومة. وقد استقبله أهل الشوق برحابة

وحب عميق ومن ضمن الذين استقبلوا الشيخ مركز قبل وصوله للشوق الشيخ البله الشيخ البانور؛ فلما وصل الشيخ مركز إلى الشوق بدأ بتأسيس الخلوة والمسجد وقد منّ الله عليه بالتوفيق في سير الدعوة إلى الله. ووجد الشيخ مركز القبول والاحترام والحب من أهل الشوق، فشدوا من أزره في بناء المسجد والخلوة. وقد هيأ الله له الفكي محمد النور الخضر، شيخ الحيران، فهو أول شيخ درّس بالخلوة وكان جاداً؛ ولذلك استفاد منه الطلاب إفادة ملحوظة؛ فمنهم من حفظ القرآن كاملا مثل شيخنا محمد ود المقدم وشيخنا الفكي إبراهيم. ثم خلف الشيخ محمد النور الشيخ العالم الفكي الزين -صاحب المجمع المشهور الآن في أم درمان-ومن بعده الفكي محمد ود المقدم وشيخنا الفكي إبراهيم. لا نعلم تحديداً متى قدم الشيخ مركز إلى الشوق وتأسيسه للمسجد والخلاوي بالضبط لكن القرائن تشير إلى أن ذلك كان قبل ثمانين سنة أو تزيد قليلاً.

إن الشيخ مركز، إضافة لنشاط الخلوة، كان رجلاً يتميز بالسير على طريق القوم من أهل التصوف؛ مما أثر في جلب الناس له وأخذهم البيعة عنه -الطريقة السمانية -لم يقتصر الأمر على أهل الشوق فحسب وإنما تعداهم لأهل القرى المجاورة والنائية مثل أم كريدم؛ حيث تتلمذ عليه الشيخ عبد الحليم والشيخ حاج آدم ود الماحي وغيرهم كثير. وكان الشيخ مركز قمة في الزهد حتى أنه كان يربط الحجر من شدة الجوع على بطنه وهذه مسألة تفوق الشهرة إلى حيز التواتر، كمان كان رهبان ليل في العبادة والفزع إلى الله. وقد ظل على الحالة إلى إن انتقل إلى الدار الآخرة.

ثم خلفه ابنه محمد المبارك الرجل البارز العالم والفقيه العابد، والشجاع المتوكل على الله وقد وفقه الله في تطوير الخلوة والمسجد بعد أن كانتا مشيدتين من القش فبناهما من المواد الحرة وتوسع في عمل البناء فوسع دائرة المسيد عامة وأنشأ الدونكي والشونة وجلب مولدا للكهرباء.

وقد حباه الله بالقبول لدى الحكام ورجال الإدارة الأهلية وعامة الناس من كل مناطق دار الريح. وكانت له صلات طيبة مع رجال الدين من داخل السودان ومن خارجه؛ فقد زاره من أعيان الشيوخ من داخل السودان مثل الشيخ عبد المحمود الحفيان وبقية خلفاء طابت مثل الشيخ محمد عظيم بن الشيخ عبد المحمود ود نور الدائم ومن خارج السودان الشيخ طارق من المدينة المنورة وهو من خلفاء الشيخ عبد الكريم السماني مؤسس الطريقة السمانية. ولعل مما ساعد الشيخ المبارك في هذا النشاط الديني الكبير والحركة الاجتماعية خبرة الشيخ التي استقاها من شيوخه بطابت الشيخ عبد المحمود حيث الحضارة الفكرية والأدبية لا سيما أن الشيخ المبارك درس الفقه وعلوم الدين على يد الخلفة الشيخ الجيلي الأغر تلميذ العالم الجليل عالم السودان ود البدوي، مع العناية الخاصة به من تلقاء الشيخ المبارك بن الشيخ عبد المحمود الذي كفله في بيته ورعاه راعية خاصة.

وقد وافت المنية الشيخ المبارك سنة ١٩٨٠م في شهر رجب، وكانت وفاته صدمة لأهل تلك الديار بل ولدار حامد عامة، ثم خلفه ابنه الشيخ السماني ولازال العطاء متدفقا ونار القرآن متقدة وصوت المؤذن مجلجلاً.

(18) مسيد الفرجاب

شهدت الفترة ما بين عام 1700 الى 1800 ظهور معظم الخلاوي في السودان الأوسط وشمال كردفان؛ لأن سلطنة الفونج قد دأبت على تشجيع العلماء وصاحب ذلك انتشار التصوف، بعد قدوم الشيخ تاج الدين البهاري، وانتشار العلم الشرعي على يد بعض العلماء القادمين من مصر والحجاز. علاوة على ذلك ساهم استقرار الأوضاع نسبياً، خلال تلك الفترة، في تشجيع التواصل بين شمال كردفان ومنطقة الجزيرة والنيل الأبيض وذهب كثير من طلاب العلم للدراسة في المراكز الدينية أو الخلاوي التي نشأت في كنف السلطنة السنارية. وعندما عاد هؤلاء الى مناطقهم في دار الريح أو شمال كردفان، أنشأوا خلاوي في دار الريح فكانت تلك هي النواة الأولى لانتشار التعليم الديني في دار الريح على وجه الخصوص.

من القرى التي شهدت قيام واحد من أهم مراكز تحفيظ القرآن في شمال كردفان قرية الفرجاب التي تقع إلى الشرق من بارا، على بعد ما يقارب 30 كيلومتراً. هذه القرية صارت بفضل الله منطقة معروفة حيث أنشأ فيها الشيخ الفضل ود الفكي الضو مسيد الفرجاب في عهد السلطنة الزرقاء في حوالي عام 1770م. ومنذ ذلك التاريخ المبكر وحتى هذا اليوم ظلت نار القرآن أو التقابة تضيء ليالي الفرجاب ويلتف حولها الطلاب ليحفظوا كتاب الله ويتلقوا مبادئ العلم الشرعي. أذكر أنني عندما دخلت هذه القرية لأول مرة كان معي أحد الشباب فقال لي: يا عم هذه القرية يبدو أنها تسير على نظام محكم. فسألته كيف عرفت ذلك؟ فرد بقوله: تبدو عليها السكينة والهدوء، فقلت له: لا غرو في ذلك، فإن الفرجاب تنام على صوت الترتيل في المسيد وتصحو عليه قبيل طلوع الفجر الأول، فهي لذلك تحفها الملائكة الذين يحضرون مجالس الذكر، وأي ذكر أعظم من القرآن الكريم.

درس الشيخ الفضل ود الفكي الضو، مؤسس مسيد الفرجاب، على يد الشيخ الشريف ود مضوي بالنيل الأبيض، وعاد الى ديار أهله الحرانية في منطقة الجوامعة، وبدأ يعلّم أبناء المنطقة القرآن وظل على تلك الحال لفترة طويلة من الزمن حتى وافته المنية، رحمه الله.

وبعد وفاة الشيخ الفضل تولى الخلافة ومهمة التدريس في المسيد ابنه الشيخ محمد، الملقب «قديريش» وعليه درس القرآن ابن أخيه المدني الشيخ الرشيد الذي تزوج ابنته السيدة الفاضلة خديجة ورزقت بولد واحد هو الشيخ عبد الرحيم الرشيد، في عام1914م، وتوفي عام1980م. حفظ الشيخ الرشيد القرآن في مسيد الفرجاب ثم درس الفقه المالكي على يد الشيخ العلامة محمد ود دوليب وابنه الشيخ الدرديري في خرسي الواقعة بالقرب من بارا. توفي الشيخ الرشيد المدني ود الشيخ الفضل في عام 1948م وقد ناهز عمره 93عاما. في عهد خلافة الشيخ الرشيد قبيل الثورة المهدية اذ زاد عدد طلاب المسيد وازدهرت الخلوة وذاع صيتها حتى وفد عليها الدارسون من كل بقاع كردفان وتخرج فيها رجال أعلام نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: الشيخ العدنان ود الشيخ الرشيد، الشيخ عبد

الرحيم الرشيد، الشيخ عبد الله آدم راجل أم كتيرة، الشيخ موسى عبد المجيد الحراني والشيخ عبد الرحمن الرشيد وغيرهم كثر.

بعد وفاة الشيخ الرشيد المدني 1948 م آلت الخلافة الى الشيخ عبد الرحيم الرشيد، وهو أحد الذين درسوا القرآن على يد والده الشيخ الرشيد، ثم جود القراءات على بعثة الجامعة الأزهر الشريف الاتي قدمت إلى كردفان في أربعينات القرن الماضي، حتى صار واحداً من الذين يرجع إليهم فيما يتعلق بالقراءات المختلفة. بذل الشيخ عبد الرحيم الرشيد جهدا مقدرا للنهوض بمسيد الفرجاب وخصص جل وقته لتحفيظ القرآن، فتخرج على يده نفر من المشايخ الكبار نذكر منهم ابنه الخليفة الحالي في الفرجاب الشيخ المكي ود الشيخ عبد الرحيم ود الشيخ الرشيد والعمدة أبو القاسم عمر محمود والدكتور البلّح أحمد مساعد والشيخ أحمد عيسى بريمة (من بني جرار) والأستاذ الماحي عبد الرحيم الرشيد. وجدير بالذكر أن مسيد الفرجاب أتاح فرصة الدراسة وحفظ القرآن للفتيات ومن الحافظات في هذا المسيد الشيخة أم قرون بنت الحسن.

بعد وفاة الشيخ عبد الرحيم الرشيد في عام 1980م تولى الخلافة المربي العظيم، والذاكر الكبير، رجل الفضل والكرم، الذي تشد إليه الرحال، وتقضى على يده حوائج الناس، الشيخ المكي ود الشيخ عبد الرحيم أطال الله عمره. وهو لا يزال يسير على هدي سلفه فيما يتعلق بالإشراف على المسيد والتكية والإنفاق عليها حتى يتفرغ التلاميذ لحفظ القرآن وتحصيل العلم النافع. ويكفي هذه الخلوة شرفا أنها منذ أن أوقدت بها تقابة القرآن لم تنطفئ حتى هذا اليوم، وظلت تخرج أعدادا مقدرة من حفظة كتاب الله من أمثال الشيخ نور الله ود الشيخ عبد الرحيم الرشيد، والشيخ عمر البشير يوسف، والشيخ نورين محمد صديق (إمام مسجد النور بكافوري) والشيخ محمد بلال ود مخمس من الشنابلة والشيخ حسن جاد السيد من الكبابيش. وعند زيارتي الى خلوة الفرجاب لاحظت أن هنالك طلابا من أفريقيا الوسطى ودارفور وشرق تشاد وكلهم قد تعلم العربية وحفظ القرآن ونال قسطاً من العلم الشرعي ولله الحمد والفضل.

هذه الخلوة التي مر على إنشائها ما يزيد عن مائتي عام ظلت ذات تأثير اجتماعي وعلمي قوي، ليس في منطقة الفرجاب فحسب، بل على نطاق دار الريح، ذلك لأنها قامت أولا حول تقابة القرآن وتولى شأنها رجال مشهود لهم بالزهد في متاع الدنيا والتعلق بالآخرة والحرص على ارشاد الناس، فقد كان الشيخ الرشيد رحمه الله يتلو القرآن آناء الليل وأطراف النهار ويحرص على صوم التطوع وهو من الذين فتح الله عليهم ويسر لهم علاج السرطان بالرقية الشرعية وظلت هذه النعمة الربانية متوارثة في أحفاده حتى الآن. ومن جانب آخر فإن الشيخ المكي ود الشيخ عبد الرحيم الرشيد هو من الرجال الذين لهم باع طويل في أمور الصلح والإصلاح بين الناس من مختلف المجتمعات المحلية ولذلك كسب تقدير الناس واحترامهم له. هذه الأسرة جميعها من السالكين للطريقة التجانية عن طريق الشيخ محمد ود الزاكي الأحمر بسنده الى الشيخ التجاني أبو العباس ولهم فيها خلافة وتقديم، نسألهم الله لهم الحفظ والتوفيق. وقد ذكر ماكمايكل في كتابه عن قبائل شمال كردفان ووسطها منطقتين أثريتين،

هما منطقة الحرازة في الجبال البحرية ومنطقة الفرجاب في شرق كردفان، دون أن يحدد نوع تلك الآثار ولا الحقبة التاريخية التي تعود إليها. ولكنه عثر على أواني فخارية قديمة في الفرجاب، وهي تدل على أن هذه المنطقة قد ظلت مأهولة بالسكان من ذ وقت ضارب في القدم. ولا نعلم سبب تسمية هذه القرية بالفرجاب.

هذه المعلومات أفادني بها الشيخ الأستاذ الماحي عبد الرحيم الرشيد جزاه الله عنا خيرا وإحسانا.

(19) الحاج الليّن

رجل ظلت سيرته الطيبة على ألسنة الناس منذ السلطنة الزرقاء وحتى هذا اليوم، فقد نذر نفسه وماله وجهده في سبيل الدعوة إلى الله وإرشاد الناس الى طريق الحق المستقيم، في وقت كان فيه الجهل هو سيد الموقف. وقد نشأ أجداده في قرية الهيماوي ثم حلة الفكي في وسط غرب دار حامد بين الغبشان والحاج اللين في الوقت الحاضر. ذلكم هو الشيخ المعروف بالحاج اللين واسمه محمد بن مضوي لبن بن محمد بلول بن زوايد من دار حامد، فرع العريفية. وتفيد المصادر الشفوية بأن الشيخ مضوي والد الحاج اللين قد تتلمذ على يد الشيخ عبد الباقي النيَل، راجل أم قرقور بمنطقة الجزيرة، وسلك عليه الطريقة القادرية. وقد عاش ذلكم الرجل العظيم والشيخ الذاكر والزاهد المتواضع في نهاية السلطنة الزرقاء وبداية العهد التركي وتوفي في منتصف القرن التاسع عشر حسب ما تفيد الروايات الشفوية المتواترة عنه. وقد لقب بالحاج لأنه سافر للحج عن طريق برزخ السويس بالأبل وحج سبع مرات. وقد ولد الحاج اللين في قرية تسمى حلة الفكي لا تبعد كثيراً عن القرية التي تعرف باسمه الآن ألا وهي قرية الحاج اللين إحدى كبريات القرى التي تتبع لمحلية غرب بارا.

بدأ الشيخ الحاج اللين مشوار حياته باكرا، حيث شد الرحال وهو في ميعة الصبا إلى منطقة الجزيرة وحفظ القرآن في مسيد الشيخ يوسف أبو شرى، في ديار العركيين، وربما يكون قد تلقى العلم على يد الشيخ دفع الله المصوبن نفسه. وبعد حفظه للقرآن وتجويده عزم على دراسة الفقه والعلوم الشرعية فما كان منه الا ان يمم شطر الأرضي المقدسة في الحجاز في الجزيرة العربية فأدى فريضة الحج، وزار قبر المصطفي صلى الله عليه وسلم، في المدينة المنورة، وملأ رئتيه من نسيم الفيض المحمدي، فكان ذلك دافعا له لكي يحط الرحال في مكة المكرمة فمكث هناك لمدة سبعة أعوام تلقى خلالها علوم الفقه والتوحيد في المسجد الحرام في ذلكم الوقت المبكر في ثلاثينات القرن التاسع عشر.

عاد الحاج اللين الى السودان وطلب من السلطات التركية آنذاك السماح له بإعادة فتح خلوة القرآن في تلك القرية التي باتت تحمل اسمه والمعروفة بالحاج اللين، وذلك وفقاً لتصريح موثق باسم حسن كاشف بتاريخ 1243ه. ولهذا نعتقد أن ذلك هو التاريخ الحقيقي لتأسيس خلوة الحاج اللين التي تعتبر واحدة من أقدم خلاوي القرآن بكردفان. وظل هناك يشرف على المسيد ويدرس الناس الفقه والتجويد والسيرة بالإضافة الى علوم القرآن، فصارت الحاج اللين مركزا دينياً رائدا في تلك البقعة من دار الريح حتى أمها طلاب العلم من كردفان ودارفور لينهلوا من ذلك المورد العلمي العذب ويحفظوا كتاب الله، وكل ذلك على نفقة الفقيه الحاج اللين، وظل ذلك شأنه من تعليم وإنفاق على الدارسين حتى وافته المنية.

بعد وفاة الحاج اللين كان أول خليفة له ابنه مضوي الملقب بأبي نائب الذي حفظ القرآن ودرس الفقه على يد والده الحاج اللين وأصبح من الفقهاء البارزين حيث صار قاضياً شرعياً في عهد المهدية. ظل الخليفة أبو نائب، مع عمله في القضاء، يتولى شؤون المسيد ويشرف على تحفيظ القرآن وحلقة العلم والفقه حتى توفي رحمه الله. ثم خلفه ابنه الخليفة حامد بن مضوي أبو نائب الذي سار على نهج آباءه وطريقتهم في التحفيظ والتعليم علماً بأن هذه الأسرة المباركة تسلك الطريق القادري. أما الخليفة الثالث فهو الشيخ إسماعيل بن عبد الرحمن بن الشيخ مضوي الذي درس القرآن والعلم في مسيد الشيخ إسماعيل الولي بالأبيض وتوفي في عام 1978م وآلت الخلافة من بعده للشيخ محمد يحيى بن عبد الرحمن الذي درس القرآن بخلاوي الشيخ البشير ود المضوي في منطقة العليقة بالنيل الأبيض وتوفي عام 2019م ليخلفه ابنه عبد الله بن محمد يحيى الذي درس القرآن وتلقى العلم على جده الخليفة إسماعيل ووالده الشيخ محمد يحيى وهذا الرجل أي الخليفة عبد الله هو واحد من حفظة كتاب الله المجودين.

تخرج من هذا المسيد العامر رجال حملوا راية العلم والقرآن وانداحوا في شتى مناطق ديار الريح ولا يزالون يرشدون الناس ويبصرونهم بأمور دينهم ودنياهم، ومن هؤلاء الرجال الشيخ إسماعيل عبد القادر ود عبد الباقي الذي يقيم في حلة بلول في منطقة العرجان ولديه خلوة كبيرة بها عدد من التلاميذ الذين يحفظون كتاب الله. وهنالك أيضا الشيخ حامد شقد حامد في حلة أولاد شقد ولديه مسيد به عدد من التلاميذ. أما الشيخ زاكي جبارة أحد ألمع خريجي مسيد الشيخ الحاج اللين فهو الآن امام وخطيب المسجد العتيق بمدينة أم كريدم حاضرة محلية غرب بارا. ومن أشهر خريجي هذه الخلوة الشيخ إسماعيل مضوي يحيى من أحفاد الشيخ الحاج اللين وهو مؤسس خلوة الصحوة في مدينة بشمال كردفان.

الشيخ الحاج اللين رحمه الله كانت له صلة قوية وصداقة مع كبار رجالات دار الريح؛ خاصة أولاد الشيخ محمد ود دوليب في خرسي والشيخ سلامة الأحمر في منطقة الشويحات. لا يزال مسيد الحاج اللين يؤدي رسالته ويوجد به طلاب من مختلف المناطق بما فيها الأبيض.

تلقيت هذه المعلومات من أحفا الشيخ الحاج اللين وهما الأخوين الكريمين الدكتور عبد المجيد محمد يحيى والأستاذ بشير اللين.

(20) الشيخ أحمد المكاشفي

خرج الشيخ أحمد المكاشفي من قرية أبو حجار بالقرب من الشكينيبة وهو لا يحمل الا كتاب الله في صدره وقليلاً من المتاع والزاد متوجهاً ناحية القرب متوكلاً على الله بعد أن حفظ القرآن في الشكينيبة في منطقة الجزيرة في مسيد جده الشيخ المكاشفي الكبير وعلى يد العالم محمد أحمد شاكر الذي تلقى عليه الفقه أيضاً. ولد الشيخ أحمد المكاشفي بن الشيخ يوسف بن قرشي الذي ينتهي نسبه إلى المكاشفي أبو عمر في عام 1932م. وقد اهتم رحمه الله منذ صباه بحفظ القرآن وتجويده وتحصيل العلم والسعي في سبيل الدعوة الى الله؛ نظراً لتلك البيئة الروحية التي نشأ فيها.

بعد أن غادر الجزيرة توجه الشيخ أحمد المكاشفي إلى شمال كردفان في أوائل خمسينات القرن الماضي بهدف الدعوة إلى الله وتعليم أبناء المسلمين القرآن والعلم الشرعي. استقر الشيخ أولاً في قرية السرحة الواقعة شرق بارا وأسس بها خلوة لتحفيظ القرآن عام 1952م حيث درس على يديه عدد مقدر من التلاميذ والحفظة، واستمرت تلك الخلوة حتى عام 1968م. بعد ذلك انتقل الشيخ أحمد المكاشفي إلى قرية أم دليكة، الواقعة جنوب غرب بارا في عام 1971م. ومرة أخرى أسس الشيخ أحمد مسيداً واستأنف تحفيظ القرآن حتى افاد منه خلق كثير وحفظ المئات كتاب الله وجودوه. شارك خريجو تلك الخلوة في منافسات عالمية وإقليمية حيث نال الطالب الشيخ الحاج النور جمعة المرتبة الثانية في حفظ كتاب الله على مستوى العالم الإسلامي عام1978م في مكة المكرمة بالمملكة العربية السعودية. في عام 1979م انتقلت الخلوة الى قرية الشوال في غرب بارا باسم خلوة الرياض ولا تزال هناك وهي تقوم بدورها على أكمل وجه في مجال تحفيظ القرآن والدعوة إلى الله ونشر العلم والإصلاح بين الناس.

عندما كانت الخلوة في السرحة ظل الشيخ يدرس القرآن والفقه بنفسه ويعاونه في شأن الخلوة مولانا الشيخ موسى الحساني والشيخ محمد البزعي الكاهلي. أما في أم دليكة فقد عمل بالتدريس وتحفيظ القرآن كل من مولانا الحاج النور جمعة والشيخ محمد العوض الجعلي وكلاهما من خريجي الخلوة. أما في خلوة الرياض فيقوم بالتدريس كل من مولانا الحاج النور جمعة والشيخ فضل الله حسن عبيد والشيخ الطاهر بلل والشيخ عبد الله ود الشيخ أحمد المكاشفي، وهو الذي يشرف على الخلوة الآن، بمعاونة الشيخ عبد الرحمن الجبوري من أبناء دار فور.

تخرج على يد الشيخ أحمد المكاشفي مشايخ كثر، واشتغل كثير منهم بتحفيظ القرآن على مستوى السودان، منهم على سبيل المثال لا الحصر، الشيخ عبد السلام بشرى الذي أسس خلوة كبيرة في منطقة أبو زبد بغرب كردفان. والشيخ عبد الباقي محمد زيادة، وهو من أبناء العريفية، دار حامد، وهو مؤسس خلاوي البشاير كدام في غرب كردفان أيضا. أما الشيخ إسماعيل أبو زيد والشيخ

إسماعيل بخيت فقد أسس كلاهما مراكز أو مجمعات إسلامية في مدينة الأبيض حاضرة ولاية مال كردفان. ومن رحم خلوة الرياض خرجت أيضا خلوة الشيخ فائز قمر الدين وخلوة الشيخ حامد الهادي في مدينة غبيش. وهنالك أيضا خلوة الشيخ محمد يوسف محمد زيادة في قرية أم سيطان بغرب كردفان. توفي مولانا الشيخ أحمد المكاشفي الى رحمة مولاه في عام 2014م وخلفه ابنه الشيخ عبد الباقي بن الشيخ أحمد المكاشفي وهو الآن يسير بالخلوة قدماً من حيث العمران وعدد الدارسين الذي بلغ حوالي500 تلميذا.

من مناقب الشيخ أحمد المكاشفي أنه كان يحرص ويتميز بترسيخ فكرة الدعوة الى الله، وتجويد حفظ القرآن، وتدريس علوم الفقه، وكان يركز بصفة خاصة على تحفيظ متن العزية والصِفْتي ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وهي أهم كتب المذهب المالكي المتداولة في خلاوي حفظ القرآن. كان الشيخ أحمد رحمه الله ذا تأثير قوي في مجتمعه المحلي؛ اذ كان يسعى بالصلح والمصالحات بين الناس ويبذل في ذلك جهدا كبيرا، كما كانت له علاقات طيبة مع كبار أهل المنطقة وزعماءها.

من اللافت للنظر أن يكون لخلاوي الشيخ أحمد المكاشفي امتدادات خارج السودان حيث توجد خلوة الشيخ عبد الرحمن الجبوري في قطاع غزة بفلسطين. أما في اليمن فهنالك خلوة الشيخ حسين اليمني في مدينة تعز حيث يتولى الشيخ حسين تدريس القرآن للأولاد بينما تقوم بنته الشيخة بالمكاشفية بتدريس القرآن للفتيات.

وجدير بالذكر أن الشيخ أحمد المكاشفي هو الشقيق الأكبر للشيخ عبد الله بن الشيخ يوسف بن الشيخ القرشي (المعروف بعبد الله ود العجوز)، حفيد الشيخ المكاشفي الكبير، وهو صاحب مسيد المنارة بشرق كردفان. وهو أيضاً أحد الذين نشروا القرآن الكريم في أكثر من موقع، وهو ذو باع طويل في التصوف، فقد سلك الطريق القادري على يد عمه ومربيه الشيخ عبد الباقي المكاشفي بسنده عن طريق الشيخ تاج الدين البهاري إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني. وهذا إن دل على شيء إنما يدل على أن هذه الأسرة المباركة قد وفقها الله لخدمة دينه حتى طبقت شهرتها الآفاق.

الخليفة الحالي الشيخ عبد الباقي أحمد المكاشفي بدأ حفظ القرآن بخلوة السرحة شرق بارا وأكمله في أم دليكة غرب بارا وهو الذي يشرف على خلوة الرياض في الشوال بنفسه سيراً على نهج والده أحمد المكاشفي رحمه الله.

هذه المعلومات تلقيتها من الشيخ عبد الباقي أحمد المكاشفي، خليفة والده في الشوال، بارك الله فيه وجزاه عنا خيراً.

(21) الشيخ ود كدّام

لم تكن خلوة الشيخ ود كدّام، في منطقة أم حصحاص، بديار المجانين، في ولاية شمال كردفان، مجرد مسيد أو خلوة لتحفيظ القرآن، مع عظم مكانة تلك المؤسسات وأهمية دورها في كثير من المجتمعات، بل كانت مركز تدريب متكامل بكل ما تحمل هذه العبارة من معاني ودلالات. فقد أختار الشيخ المؤسس ود كدام تلك المنطقة النائية، وذات الطبيعة التي تعتبر قاسية، مقراً لإنشاء خلوته، ليس صدفة ولا مجازفة، بل عن قصد لأنه إنما كان يريد أن يخرج دعاة وحفظة قادرين على حمل راية الإسلام والقرآن مهما كانت قسوة الظروف والأحوال التي قد يعيشون فيها مستقبلاً. فمن المعلوم بحسب طبيعة الحال إن منطقة غرب المزروب عموماً يندر فيها وجود المياه العذبة التي تصلح للشرب، ولكن مع ذلك قرر ود كدام اختيارها لكي يؤسس بها مسيده في ذلك الوقت المبكر الذي لم يكن فيه جلب المياه ممكناً إلا بالدواب، ومن مناطق بعيدة نسبياً؛ ولهذا السبب خصص الشيخ ود كدام عدداً من الجمل ليجلب بها كبار التلاميذ الماء للشرب والوضوء من آبار المزروب، تدريباً لأولئك الصبية حتى يعايشوا ظروف منطقتهم، فكانوا يردون إلى «العد» مرتين في الأسبوع، مع ترشيد استهلاك المياه.

من جانب آخر، خصص الشيخ محمد ود كدّام مساحات واسعة من أرضه لتكون بمثابة مصدر للغلة، وتوفير الغذاء لتلاميذ المسيد، الذين كانوا يزرعون تلك الأرض بالدخن والذرة والبطيخ، ويحرثونها بأنفسهم، وربما يساعدهم الخيّرون من الناس، في موسم الخريف، ثم يحصدونها في وقت الحصاد، وتنقل الغلة إلى «المطامير» وتستخدم فقط للتكية التي تتبع للمسيد، وما هذا إلا تدريب عملي؛ خاصة إذا علمنا أن الزراعة هي الحرفة الرئيسة لأهالي تلك المنطقة بجانب الرعي. علاوة على ذلك كان الطلاب يجمعون الصمغ العربي من أشجار الهشاب، وبيعه لشراء مستلزمات الخلوة، ويتولى الطلاب أيضاً حلب الأبقار لتوفير الحليب لتلاميذ المسيد.

ومما يجدر ذكره في هذا المقام أن مسيد ود كدام قد كان أيضاً مركزاً مبكراً للاستنارة، الأمر الذي جعل أهل المنطقة يتقبلون التعليم النظامي بكل سهولة ويسر في ذلك الوقت المبكر فأقبل الطلاب، من أبناء المجانين على تلقي التعليم النظامي في تلك المدارس التي أسست في خور جادين والمزروب حتى نال منهم عدد كبير أعلى الدرجات العلمية وصار بعضهم من مشاهير الإداريين وكبار المسؤولين في الدولة. وقد قوى مسيد ود كدام من ترابط النسيج الاجتماعي بين مكونات دار الريح عبر الحفظة الذين تخرجوا منه، والفضل في ذلك، بعد الله، يعود للشيخ محمد ود كدام، رحمه الله وأجزل له الثواب واسكنه فسيح الجنان.

فمن هو ذلكم الرجل العظيم يا ترى؟ بحثاً عن الإجابة على هذا السؤال اتصلت بعدد من الإخوة الكرام

من أحفاد الشيخ ود كدام ومن الذين لهم صلة بهذه المنطقة فما بخلوا بما لديهم من معلومات مفيدة عن هذا الشيخ الجليل الذي ترك أثراً لا تخطئه العين أو البصيرة، في منطقة واسعة تمتد في الطرف الغربي والشمالي من دار الريح، في شمال كردفان، منذ وقت باكر وحتى هذا اليوم. مؤسس هذه الخلوة هو الشيخ محمد كدّام ود جمعة جبريل، الذي أوقد نار القرآن بأم حصحاص في عام 1917.

كان والد الشيخ محمد تربطه علاقة وصداقة مع الشيخ ود الزاكي في النيل الأبيض، لذلك طلب من صديقه أن يرسل له ابنه الوحيد ليحفظ القرآن في كنفه. لم يتردد والده في تلبية ذلك الطلب لعلمه المسبق أن ود الزاكي سوق يولي ابنه الاهتمام الفائق، فحلمه على ظهر بعيرة وتوجه به نحو تلك القرية الهادئة التي يحتضنها النيل الأبيض، فجلس بها حتى حفظ القرآن وجوده تماماً. وقيل أيضاً أن ود كدان قد حفظ بعض أجزاء القرآن في خلوة عد العود، غرب الدويم، ثم أكمل الحفظ والتجويد بخلوة الشيخ هجو الأحمر، بمنطقة اليعقوباب، قرب سنار، حيث درس هناك لفترة من الزمن، وعاد بعدها إلى دياره، وكأن الأقدار كانت تسوقه لتلك المنطقة لأمر أرده الله سلفاً. أسس الشيخ محمد ود كدام خلوته أصلاً في منطقة أم عشار، ثم الحماري، غرب المزروب، ومكث بها عشرات السنين، يدرس كتاب الله، ويعلم الناس أمور دينهم، ويرشدهم، ويحثهم على فعل الخيرات والطاعات وفقا العقيدة الصحيحة والعلم الشرعي، وهو في الأحوال ناصح أمين. ثم قرر الشيخ ود كدّام نقل ذلكم النشاط المبارك والقاصد إلى الله إلى منطقة أم حصحاص التي لا تبعد كثيراً عن الحماري، ربما لأن معظم أراضيه يقع في تلك المنطقة، في وقت ازداد فيه عدد التلاميذ، وصار المسيد بحاجة إلى مصادر إعاشة وتمويل فكان لابد من إيجاد مورد دائم ومستدام للغذاء.

تأسست الخلوة بأم حصحاص، وأقبل عليها الدارسون من مناطق المجانين ودار حامد والكبابيش والكواهلة وكاجا وكتول والجبال البحرية، ومن دار حمر وغيرها، وسار بذكرها الركبان وذاع صيتها حتى وصل تخوم دارفور فجاءها التلاميذ من كل تلك البقاع النائية، وتطلب ذلك توسيع المباني، وجلب المشايخ؛ فشمر الشيخ ود كدام عن ساعد الجد، وكان يكلف كبار التلاميذ بمساعدة الصغار، وأحضر مشايخ مشهود لهم بالتقوى والصلاح حتى حفظ القرآن على يديه أناس كثيرون منهم من عمل لاحقاً في ذات المسيد ومنهم من توجه إلى مناطق أخرى ينشر القرآن ويدعو إلى الله على بصيرة. كان الشيخ محمد ود كدام يلزم طلابه بتلاوة السبع من القرآن كل ليلة، فيما يشبه البيعة، من أجل ألا يتركوا القرآن أو يتخذوه مهجوراً. كما كان يلزم الطالب بالتدريس في الخلوة لمدة عام بعد الحفظ. وهذا نوع من التدريب الروحي المطلوب إلى جانب ما ذكرنا من تدريب على شؤون الحياة.

وقد ظل الشيخ محمد ود كدّام يشرف على المسيد، ويقوم بتحفيظ كتاب الله، حتى وافته المنية، في نهاية أربعينات القرن الماضي، رحمه الله رحمة واسعة.

بعد ذلك تولي الخلافة والإشراف على المسيد الشيخ محمد صالح محمد كدّام، وهو أحد خريجي

الخلوة؛ إذ حفظ القرآن، وسار على هدي أبيه، من حيث العمل على تشجيع الطلاب وحثهم على الحفظ والتجويد والتعاون فيما بينهم، تقوية لأواصر الأخوة في الله، وتدريباً على بذل الجهد المستطاع في سبيل الله، وظل هذا ديدنه المعروف، وواصلت الخلوة، في عهده، مهمتها الأساسية ألا وهي تحفيظ القرآن ونشر الفقه، بعد أن وظف لها بعض المجيدين من حملة كتاب الله ومنهم الفكي يوسف ود عبد المنان والفكي عينية عيسى عينة، والفكي الأمين أحمد عبد الخالق، بينما عمل كل من الشيخ عبد الواحد يوسف الإخيضر، والشيخ فضل الله الجهيمابي لدى الشيخ موسى بالخلوة بعد انتقالها لحلة إدريس، وظل الشيخ محمد صالح يسير بالخلوة قدماً إلى أن توفاه الله وأنتقل إلى الرفيق الأعلى، راضياً مرضياً، في عام 1977.

تولى أمر إدارة الخلوة والإشراف عليها بعد وفاة الشيخ محمد صالح، رجل آخر من أولئك الأخيار، هو الشيخ موسى محمد كدام، فباشر تحفيظ القرآن بنفسه، ولا يزال يقوم بذلك الدور التربوي المتوارث في هذه الأسرة المباركة، على الرغم من تقدم سنه، حفظه الله ورعاه، بعد أن انتقلت الخلوة إلى مقرها الجديد في حلة إدريس التي تعبر الآن إحدى ضواحي مدينة المزروب، يساعده ابنه الشيخ عبد الله موسى محمد كدام.

عبر تاريخها الطويل، خرجت هذه الخلوة عدداً كبيراً من حفظة كتاب الله، والرجال الذين تبوأوا مواقع قيادية عالية منهم عمنا المرحوم الشيخ مشاور جمعة سهل، النائب البرلماني، وممثل دائرة دار حامد الغربية، الذي ثنى اقتراح الاستقلال من تحت قبة البرلمان، عام 1955، وأصبح بعد ذلك مسؤولاً عن الشؤون الدينية بشمال كردفان، فأبلى بلاءً حسناً وأسدى خدمة متميزة لخلاوي القرآن المنتشرة في شرق الولاية وغربها ولم يتوان في مساعدة المشايخ حتى لحق بالرفيق الأعلى رحمه الله وأحسن ثوابه. ومن خريجي، خلوة ود كدام الفكي ماهل أحمد محمد نعمان، وهو من الذين درسوا القرآن فيها، وعمل بعد ذلك مندوباً لقبيلة دار حامد لدى الحمر، وكان مقره في الخويْ، ومكث بها حتى توفي رحمه الله. ومن الذين تخرجوا على يد ود كدام الفكي جبريل سالم بحير، وقد كان مندوب دار حامد لدى الكبابيش، رحمه الله وغفر له. ومن خريجي الخلوة أباء الشيخ ود كدام أنفسهم من أمثال الشيخ إبراهيم محمد كدام الذي كان يمد الخلوة بما تحتاجه من مال في كثير من الأحوال.

أما قائمة خريجي الخلوة في وقتنا اراهن فتطول، ولكننا نذكر بعضهم على سبيل المثال الشيخ أو ذر التجاني ود المراد، الداعية المعروف، والإمام والخطيب ذائع الصيت في مساجد العاصمة الخرطوم، والشيخ إبراهيم محمد خير بشير، وهو صاحب مدرسة وإمام وخطيب بمساجد أم درمان، والشيخ الدكتور إبراهيم إسماعيل محمد كدام، أستاذ القراءات بالجامعات السودانية والسعودية، والدكتور أحمد إسماعيل كدام أستاذ التفسير بجامعة إفريقيا العالمية، وكثيرون غير هؤلاء من حملة الدرجات العلمية العليا.

هنالك خلاوي يعود منشؤها إلى خلوة ود كدام وهي تشمل خلوة أم حصحاص الجديدة التي أنشأها أحفاد الشيخ ود كدام إحياءً لذكرى تلك الخلوة العريقة بدعم ومساندة من الدكتور إبراهيم محمد صالح كدام، ويشرف عليها الدكتور الشيخ محمد صالح كدام. وهنالك خلوة الشيخ أبو الحسن، وهو من الغدينات، أحد فروع قبيلة المجانين، وهي بالقرب من المزروب، يضاف إليها خلوة حي الصالحين بالأبيض أسسها في الأصل الشيخ إبراهيم إسماعيل كدام.

إن خلوة الشيخ محمد ود كدام هي واحدة من خلاوي دار الريح ذات الأثر والتأثير الكبير في المجتمع، وقد كانت ولا زالت تقوم بدورها العظيم على نفقة المشايخ الذين يشرفون عليها، بمساعدة وتعاون مثمر من وجوه المجتمع في المنطقة؛ ولذلك استطاعت هذه الخلوة أن تحافظ على مكانتها ولا تزال تقوم بدورها. الخلوة القائمة الآن في حلة إدريس شهد تطوراً عمرانياً ملحوظاً؛ إذ يوجد بها مسجد مبني على أحدث طراز وهنالك مهاجع للطلاب وسكن للمشايخ، وكلها بالمواد الثابتة.

هذا قليل من كثير في حق خلوة ود كدّام التي هي بحاجة لدراسة مستفيضة من قبل الدراسين لإبراز دورها العلمي والاجتماعي، واضعين في الاعتبار ما يقوم بها مشايخها من إصلاح بين الناس وإرشاد ودعوة إلى الله.

أشكر الإخوة الذين أمدوني بهذه المعلومات، وأخص منهم الأستاذ أحمد إبراهيم الطاهر، والأستاذ أحمد آدم سالم، والأستاذ النيل محمد جمعة سهل والدكتور إبراهيم إسماعيل كدام.

(22) سكّان العلق

من الرجال الذين يكثر ذكرهم في دار الريح، سكان العلق وعيال بلي السبعة والشيخ أحمد بيوضة، وبالطبع الشيخ أحمد ود أقروب. أما سكان العلق فهم من فرع الفراحنة الغبشان، وجميعهم من حفظة كتاب الله، تلقوا العلم في مناطق متفرقة فمنهم من هاجر إلى منطقة الجزيرة والنيل الأبيض، سعياً منهم لحفظ كتاب الله وتجويده، بينما حفظ بعضهم القرآن في خلوة الفكي الناير ود منعم في أم بعاشيم. وقد عاش معظمهم في وقت مبكر ربما إبان عهد دولة سنار أو في أوائل التركية السابقة كما يقال. وتشمل مجموعة سكان العلق رجال عرفوا بالتقوى والصلاح والزهد في الدنيا والالتزام بذكر الله، منهم على سبيل المثال لا الحصر، الفكي مدني آدم تقالة، وكباشي آدم تقالة، وعبد الخالق لزم سبيل آدم تقالة، ومحمد لزم سبيل آدم تقالة، وكل هؤلاء من حفظة كتاب الله المجودين. وقد أطلق عليهم مسمى سكان العلق لأنهم مدفونون في بقعة تقع بالقرب من قرية الغبشان، بإدارية دميرة، يكثر فيها شجر العلق، وهو شجر ظليل وله فوائد كثيرة؛ إذ يستخدم في البناء ومفيد جداً للبائهم.

ومن هؤلاء الرجال الشيخ محمدين عبد الله لزم سبيل آدم تقالة، الذي حفظ كتاب الله في خلوة الفكي الناير ود منعم، في أم بعاشيم، قبيل المهدية بقليل، ثم أنشأ خلوة في قرية الغبشان، عرفت باسم دار محمدين، وظلت يرتادها التلاميذ الراغبون في حفظ كتاب الله لفترة طويلة من الزمن، ولا يزال بعض أحفاد ذلكم الرجل الصالح يعملون في مجال تحفيظ القرآن. وقد حفظ القرآن نفر كريم، من الذين حملوا الراية فيما بعد، في تلك الخلوة، نذكر منهم الفكي عبد الله ود محمدين الذي أكمل حفظ القرآن لدى الشيخ عمر في الكريدة بالنيل الأبيض. أما الفكي إبراهيم ود محمدين فقد شد الرحال إلى قرية الشيخ طلحة بمنطقة سنار حيث حفظ القرآن على يد الشيخ محمد توم ود طلحة الفلاتي، وبعدها عاد إلى دياره وأسس خلوة في قرية الغبشان إلا أنه توفي بعد وقت قصير.

قدم الشيخ أحمد بيوضة، وهو من البزعة، من قرية مليحة بالقرب من بارا، بدعوة كريمة من الشيخ محمد ود مدني الكاروري، فأوقد نار القرآن في تلك القرية التي عرف أهلها بالكرم والسخاء، الأمر الذي ساعد في قدوم أعداد كبيرة من التلاميذ؛ ليحفظوا القرآن الكريم على يد ذلك الشيخ المبارك أحمد بيوضة، الذي حفظ القرآن على يد شيخ اسمه غريب ثم عند الشيخ البرير جد الشيخ قرشي ود الزين، وبرعاية كريمة من الشيخ محمد ود مدني الذي تكفل بالإنفاق على الخلوة هو وإخوته الكرام. والشيخ أحمد بيوضة، هو من فطاحل دار الريح وعظمائها، ورجل من أكابر رجالها الصالحين، فقد كان حافظاً ومعلماً للقرآن الكريم، وبلغ شأواً عظيماً في مجال تحفيظ القرآن لدرجة أنه كان يدرس الإنس

والجن على حدٍ سواء، ولهذه الأسباب طلب منه الشيخ محمد ود مدني الكاروري أن يتولى التدريس بالمسيد، في نكور، مع التفويض الكامل له في الإدارة. وقد عاش الشيخ أحمد بويضة إلى ما بعد فترة المهدية، وشهد غارات جنود التعايشي على المنطقة، فيما عرف بعصر الجولات والكسرات، وتصدى لتلك الغارات بالدعاء على الجهادية، الذين أرسلهم خليفة المهدي؛ لإحضار أعيان الفراحنة، وعلى رأسهم الشيخ عمر محمد قش، والشيخ محمد ود مدني، وغيرهم من رجال المنطقة، وقد استجاب الله لدعوة ذلك الرجال الصالح، فلم يظفر الجهادية بزعيم واحد، من منطقة الفراحنة على الرغم من القتل الذي تعرض له أولاد الفكي الناير، في "دار الكتلة". وقد أفاد بهذه المعلومات تلميذ الشيخ بيوضة الحاج سلامة ود جقدول، الذي ذكر أن ذرية الشيخ بيوضة تضم عدد من الأبناء منهم محمد وحامد وسعيد وله من البنات اثنان، هما حسنة وأم الحسين.

وفي تلك الخلوة، التي أسسها الشيخ أحمد بيوضة في نكور، حفظ القرآن عدد كبير من الرجال الذين صاروا أعلاماً في زمانهم منهم الفكي عبد الله ود عطية الله المعروف بكوكاب، وهو والد شيخنا عبد الخالق ود كوكاب، المقيم الآن في قرية الغبشان بين القاعة ودميرة، أطال عمره وهو رجل من الذاكرين أولى البصيرة. ومن الذين تخرجوا في تلك الخلوة الفكي سلامة ود حامد ود حمد، والفكي حامد ود عقارب الجعلي، وهو من أهالي حي الموردة في أم درمان، لكن طاب له المقام في قرية نكور، ولا يزال عقبه يقيم فيها، ومنهم الفكي الطاهر ضيفان، الذي ربما أكمل حفظ القرآن في خلوة ود كدام، وهو من منطقة أبو حجار، وقد أسس خلوة، في تلك المنطقة، حفظ فيها القرآن عدد من أبناء القرية، ولا يزال أحفاده يعملون في ذات المجال، فمنهم أئمة مساجد وحفظة لكتاب الله. كما حفظ القرآن على يد الشيخ أحمد بيوضة شيخ العرب محمد تمساح سيماوي، ناظر عموم دار حامد. وقد ظل الشيخ أحمد بيوضة يدرس كتاب الله والفقه الإسلامي في نكور حتى وافته المنية في أواخر عشرينات القرن الماضي وقبره معروف هناك.

ومن أشهر تلاميذ الشيخ أحمد بيوضة، رجل فتح الله عليه حتى صار علماً بارزاً من أعلام دار الريح ورجالها، ألا وهو الشيخ أحمد ود بليلة ود جاد الله، المعروف بود أقروب، دفين الرهد. وهو حفيد عيال بلي السبعة، الذين نذكر منهم الفكي أبو قرين ود بلي، والفكي خميس ود بلي، وجاد الله ود بلي، جد الشيخ أحمد، وكلهم من حفظة كتاب الله، ومن سالكي الطريق السماني، وكلهم من فرع الفراحنة، الأقاريب.

وبعد أن حفظ القرآن في نكور، توجه ود أقروب صوب الشكينيبة في الجزيرة فقيّض الله له اللقاء بالشيخ المكاشفي أبو عمر فجوّد حفظ القرآن هناك وسلك الطريق القادري. وبعد إقامة لفترة من الزمن في كنف الشيخ المكاشفي، توجه ود أقروب إلى أرض أجداده أولاد بلي في قرية مجلدة إلى الغرب

من شرشار، وأقام بها بعض الوقت، ثم أنقطع للعبادة والذكر في جبل القاعة، وبعد ذلك فتح خلوته في القاعة؛ لكن واجهته مشكلة مياه الشرب فقرر نقل الخلوة إلى القرية التي عرفت باسمه ألا وهي رهد ود أقروب الواقعة إلى الغرب من القاعة، في منطقة كانت وعرة جداً في ذلك الوقت، وتعاني من شح مياه الشرب، لكن بتوفيق من الله حفر بها الشيخ أحمد أول بئر للمياه العذبة، وأسس مسيده الذي صار وجهة لطالبي العلم والراغبين في حفظ كتاب الله فعمرت القرية وتوسعت وازدهر المسيد بفضل من الله وبصبر من ود أقروب وتلاميذه. واستمرت الخلوة تقوم بدورها الرائد في تحفيظ القرآن ونشر الوعي بين الأهالي في تلك المنطقة وما جاورها منذ ثلاثينات القرن الماضي حتى هذا اليوم. كلمة الرهد تعني المنطقة التي تتجمع فيها مياه الأمطار بكثرة، فهي بمثابة مصب لبعض الأودية، وتحفها الأشجار الضخمة من السنط والسمر، والسيال، وتحتفظ بالمياه لفترة طويلة جداً.

كان الشيخ أحمد ود أقروب رجلاً زاهداً، ورعاً وذاكراً، كريماً، وجم التواضع حتى وصف بأنه من الموطئين أكنافاً الذين يألفون ويؤلفون؛ وهذا ما جذب إليه كثيراً من المريدين والتلاميذ الذين وفر لهم طيب العيش وكريم الرعاية حتى تخرج في مسيده رجال كثر، وأشاع الوعي والعلم الشرعي في تلك المنطقة، وظل يشرف على المسيد حتى رحيله عن الفانية في عام 1981م، رحمه الله وغفر له.

وتولى الخلافة من بعده أبنه الشيخ الجيلي الذي حفظ القرآن عند والده، وعمل بتحفيظ القرآن في ذات المسيد، ومن الذين علموا الناس القرآن في المسيد الشيخ عبد الله ود سليمان، وعبد الباقي ود الشيخ الجيلي، وبليلة ود جمعة ود رخا، والجيلي ود جمعة ود رخا، ومحي الدين ود الشيخ الجيلي، وكلهم من الذين حفظوا في مسيد ود أقروب. وقد شهد المسيد توسعاً كبيراً في خلافة الشيخ الجيلي حيث شيدت خلاوي للطلاب، وبني المسجد بالمواد الثابتة، وكثر المريدون والدارسون بشكل ملحوظ. وقد كان الشيخ الجيلي رحمه الله بارعاً في حل النزاعات وتسوية الخلافات بين أفراد القبيلة، حيث كان يقضي الليالي ذوات العدد في حل مشكلات الناس دون كلل أو ملل. وقد توفي الشيخ الجيلي إلى رحمة مولاه في عام 2004 وخلفه ابنه الشيخ أحمد بن الشيخ الجيلي بتفويض من عمه الشيخ عبد الباقي ود الشيخ أحمد، وهو الآن يسير بالمسيد سيرة حسنه. وجدير بالذكر أن الخليفة أحمد ود الشيخ الجيلي هو أحد خريجي مسيد ود أقروب. وهنالك الآن خلوة أخرى يشرف عليها الشيخ حبيب الله ود الشيخ أحمد في نفس قرية الرهد.

ومن أصلاب هؤلاء الرجال خرج مشايخ لهم باع طويل في إرشاد الناس وحثهم على الفضائل وتعليمهم أصول دينهم، نذكر منهم الشيخ محمدين محمد عبد الله ود أو هبادة، الذين درس أولاً في مدرسة خور جادين الأولية، ثم حفظ القرآن في مسيد قرية العفينة، الواقعة شرق مدينة أم روابة، في خلوة الشيخ الشاذلي ود الشيخ برير ود الشيخ عمر راجل الكريدة، الذي سلك على يده الطريق

السماني. وبعد أن أتم حفظ القرآن في تلك الخلوة عمل الشيخ محمدين بتحفيظ القرآن في ذات المسيد لمدة سنتين، ثم عاد لينشأ خلوة في القاعة حيث ظل إماماً وخطيباً في مسجدها. ومن تلاميذ الشيخ محمدين الذين بدأوا حفظ القرآن على يده الشيخ الفاتح أحمد عيسى، الذي أكمل الحفظ في مسيد الشيخ محمد أحمد أبو عزة في شرق كردفان، وواصل تعليمه حتى تخرج من الجامعة وهو الآن إمام أحد المساجد في مدينة أم درمان.

وعموماً، لا تزال خلوة أو مسيد الشيخ ود أقروب تستقطب التلاميذ من أهالي المنقطة ومن دار الكبابيش وكاجا وكتول، والدواليب، بتوفيق من الله. ولا يسعني إلا أن أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للشيخ محمدين أبو هبادة والمهندس إسرافيل الجيلي، والشيخة حسنية بت الشيخ أحمد على هذه المعلومات.

(22) آل الشيخ المراد

إذا ذكر الكرم تحدث الناس عن آل المراد، وإذا جاز الحديث عن الشعر لقال الناس إن تلك صنعة خالصة لآل المراد، وإذا ذكر القرآن وتلاوته في دار الريح، اشرأبت الأعناق لآل المراد. فمن هم هؤلاء النفر الكريم الذي حازوا كل تلك الفضائل والمكارم؟ للإجابة على هذا السؤال تتوجه الأنظار نحو منطقة الهشابة الواقعة على الحدود بين ولاية شمال كردفان وولاية النيل الأبيض، إلى الشرق من مدينة أم دم حاج أحمد. ولعلنا نتوقف أولاً عند اسم الهشابة، تلك الشجرة التي تنتج الصمغ العربي، فما عرفت تلك المجموعة من القرى التي يبلغ عددها سبعة عشر، إلا لأنها اشتهرت بإنتاج هذه السلعة الغالية، بيد ما أعطى الشهرة للمنطقة ليس هو إنتاج الصمغ العربي، بل لأنها ارتبطت باسم آل المراد، خاصة بعدما أوقدوا فيها تقابة القرآن وأقاموا فيها تكية، وصار قدح الشيخ ود المراد لا يفرغ إلا ليمتلئ مرة أخرى، ولو كان صاحب الدار غائباً. هذه المنطقة التي كانت يوماً ممراً تجارياً عامراً بين الشرق والغرب، عرفت لدى كل الناس باسم هشابة ود المراد.

ينتسب هذا البيت إلى قبيلة المجانين، وهي قبيلة عربية، حلت في هذه المنطقة منذ وقت مبكر، فقد ذكرهم ماكمايكل في كتابه عن قبائل شمال كردفان ووسطها، باعتبارهم عنصر عربي خالص، سكن شمال كردفان، حول أم دم وفي منطقة المزروب، مع بقية قبائل عربية أخرى. ولكن حسب ما يقول آل المراد فإن نسبهم ينتهي للإمام موسى الكاظم ومن ثم إلى الحسين بن علي بن أبي طالب، رضي الله عنه، والناس مأمونون على أنسابهم، سيما وأن أفعال آل المراد تدل بما لا يدع مجالاً للشك أنهم من أرومة شريفة. ويقال إن أول من أنشأ الهشابة هو حسن ود المراد، ومن بعد ذلك أسس بها الشيخ المراد ضو البيت، الملقب بأبي أحيا، الذي أنجب العمدة حسن وحسين، وموسى وإسماعيل، وأمهم من بني جرار، ثم رزق بعبد الله المبروك من زوجته الكباشية. وحسب بعض الروايات الشفوية فإن الشيخ المراد قد أسس خلوته في تلك المنقطة إبان العهد التركي، بعد أن حفظ القرآن في خلوة الفكي المونس في القفلة. وقد كان الشيخ المراد الكبير قادرياً، على طريقة الشيخ عبد القادر الجيلاني، حتى وفاته.

عرف الشيخ المراد بالزهد والكرم، ويحكى عنه أنه كان لا يملك إلا بقرة وحدة وذات يوم جاءه بعض الأضياف فما كان منه إلا حلب تلك البقرة وذبحها؛ ليكرم ضيفه! توفي الشيخ المراد ودفن في الهشابة، رحمه الله وأكرم نزله.

بعد وفاة الشيخ المراد تولى الخلافة ابنه الشيخ عبد الله المبروك (أبو أم عزين) الذي درس القرآن في مسيد الشيخ عمر بالكريدة، ثم عمل بالتدريس وتحفيظ القرآن في ذات المسيد (ماسك سوط وسبحة)

بلغة أهل المسيد. وعند خلافة الشيخ عبد الله المبروك، حدث تحول كبير؛ إذ أن الشيخ عبد الله ود المراد عندما كان في مسيد الكريدة رأى النبي صلى الله عليه وسلم في رؤيا منامية، غيرت مساره تماماً، وجعلته يكافف الشيخ محمد ود الزاكي الأكبر على الطريقة التجانية، ومن حينها صارت التجانية هي طريقة جميع آل المراد.

وكما ذكر آنفاً فإن منطقة هشابة ود المراد كانت تعاني من مشكلة مياه الشرب، فحفر الشيخ عبد الله ود المراد بئراً بمنطقة العارشة وأوقد فيها تقابة القرآن، ولكن لم تكن كمية المياه ولا نوعيتها تكفي أو تصلح لشرب التلاميذ؛ فقرر الشيخ عبد الله الرجوع إلى الهشابة، وأعاد فتح وتأسيس خلوة أبيه واستقر به الحال هناك، حيث يظل يحفظ القرآن حتى أنتقل إلى الرفيق الأعلى ودفن بتلك القرية.

أنجب الشيخ عبد الله ود المراد مجموعة من الأبناء نذكر منهم الشيخ محمد الأمين، والشيخ محمد النور، والشيخ محمد الخير، والشيخ حسين وحسن، والمراد، وإسماعيل.

خلف الشيخ عبد الله المبروك ابنه الشيخ محمد الأمين الذي ظل يقوم بأعباء الخلوة والتدريس فيها حتى وفاته في عام 1986، وهو مدفون في الهشابة، وآلت الخلافة من بعده لابنه الشيخ قرة العينين محمد الأمين.

أما الشيخ محمد النور ود المراد فقد توفي عام 1988، وهو مدفون بأم دم حاج أحمد، وهو والد الشيخ التجاني المشهور بالتجاني ود المراد، ذلك الرجل الذاكر، الشهم الكريم حتى أنه كان يعرف بعبارته المأثورة «إبليس بعيد»، وهو أيضاً شاعر مجيد ومفوه، ومن شعره مفتخراً بقومه:

نحن الفي الكرم ما بنعرف القانون
وجدّنا في البشاشة مكنّا بالمجنون
نحن الفي الحديث أحدْ من المسنون
ونحن الفي الكتال المية بالمليون

وقد رزق الشيخ التجاني ود المراد بما يقارب الخمسين من الأحفاد، منهم خليفته الشيخ محمد التجاني الذي يقيم الآن بالقرب من الهلبة، في منطقة الضهير، حيث يوجد ضريح والده، الذي توفي عام 2007م.

وقد فتح الله على هذه الذرية الطيبة المباركة، بحفظ كتاب الله، ونشره، فأخرجت للناس مجموعة من المشايخ والحفظة نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ أبو ذر التجاني، إمام وخطيب مسجد النخيل بالخرطوم. ثم هنالك الشيخ السيد محمد النور، والشيخ المصباح والمعصوم، والخاتم والمبروك والترمذي وكل هؤلاء من أبناء الشيخ محمد النور، ومنهم الشاعر محمد ود الزاكي بالمزروب وهو من حفظة كتاب الله.

وأنجب الشيخ محمد الخير ود المراد ولداً واحداً هو الشيخ الوسيلة، وهو مدفون في الخرطوم. في

الوقت الحاضر فإن خليفة الشيخ المراد الكبير هو الشيخ قرة العينين محمد الأمين. بينما خليفة الشيخ محمد النور فهو الشيخ سيد الذي يقيم بأم دم. ومن حفظة كتاب الله من هذه الأسرة الشيخ أويس القرني ود ضو البيت ود سالم وهو إمام وخطيب مسجد بمنطقة سودري.

حفظ معظم آل المراد القرآن الكريم في خلوة جدهم إما بالهشابة أو في أم دم، وتوجه بعضهم إلى منطقة المزروب وحفظ القرآن في خلوة الشيخ ود كدام. ومن هؤلاء الشيخ أبو ذر بن الشيخ التجاني ود المراد الي حفظ القرآن في مسيد الشيخ موسى محمد كدام ومن ثم التحق بمعهد ود دوليب في خرسي، ثم بعد ذلك معهد شروني بالخرطوم، وتخرج في كلية الآداب بجامعة أم درمان الإسلامية، قسم التاريخ والحضارة الإسلامية. ودرس أيضاً بجامعة الرباط الوطني، قسم الدراسات الإسلامية، ونال درجة الماجستير في علم الحديث من نفس الجامعة، وأعد رسالة الدكتورة بعنوان الشورى والديمقراطية من منظور الكتاب والسنة، وهو إمام وخطيب بمساجد العاصمة وغيرها.

ومن أشهر شعراء آل المراد الشاعر الشيخ محمد النور ود المراد، والشاعر الشيخ التجاني ود المراد والشاعر فاروق ود الشيخ محمد الأمين المراد والشاعر محمد النور التجاني والشاعر الوسيلة ود محمد النور ود محمد الأمين المراد. وكل هؤلاء شعراء مجيدون ولهم مساهمات متميز في المحافل الأدبية وفي وسائل الإعلام ولهم وجود مقدر في المناسبات الاجتماعية.

ما هذا إلا قليل من كثير في حق هذه الاسرة الكريمة التي خصها الله سبحانه وتعالى بكثير من الخصال والمكارم ويكفي أن معظمهم ممن تعلم القرآن ويعلمه وهذا ما جعلهم يبلغون درجة الخيرية وفقا لحديث رسول الله صلى الله عليه ة سلم سيما انهم اهل جود وكرم وعطاء لا تحده حدود.

أتقدم بالشكر في هذا الصدد للأخوين الكريمين الشيخ أبو ذر التجاني والشيخ محمد سالم ضو البيت، على ما أفاد به من معلومات، بارك الله فيهما.

(24) الشيخ محمد ود الريح

ينتسب السادة السناهير إلى جدهم الأكبر السنهوري بن حمودة بن علي من ذرية سرار بن حسن كردم بن أبو الديس؛ ولذلك فهم من المجموعة الجعلية المعروفة. وتعود أصولوهم إلى منطقة المتمة بنهر النيل. ومنهم مجموعة كبيرة تسكن في أم درمان بيد أن هذه الأسرة العريقة لها وجود في كثير من أنحاء السودان، في مدني وبارا، وبالطبع شندي، وغير هذه المدن، وقد اشتهر منهم مشايخ وعلماء كبار. ومن هؤلاء الرجال آل المراد الحاج أحمد السنهوري الذي ولد في عام 1893 في حي ود نوباوي في أم درمان، وتلقى تعليمه وحفظ القرآن في خلاوي الكواهلة بمنطقة السروراب.

وفي عام 1954 قرر ود الريح التوجه إلى منطقة النهد الواقعة إلى الغرب من مدينة حمرة الوز، في ولاية شمال كردفان، وهذه المنطقة تتبع لدار الكبابيش وقد كانت ذات طبيعة قاسية جداً حيث تقع وسط مجموعة من الجبال، وتعاني من شح المياه والبعد عن المناطق المأهولة! ولكن بعد أن حل بها ذلكم الرجل الصالح، تغيرت أحوالها وتبدلت معالمها، وغدت قرية عامرة يأوي إليها الناس لأكثر من سبب، بعد أن أوقد بها ود الريح تقابة القرآن وأنشأ التكية لإطعام الناس من زواره ومحبيه، ويسر لها الله الحصول على المياه من بعض المناطق المجاورة.

الشيخ ود الريح، اسمه الكامل محمد أحمد الريح السنهوري، ولكنه عرفاً عند الناس «بود الريح» أو أحياناً ود مبروكة، وهي أمه تلك المرأة الصالحة التي كان يعتز بها. قدم ود الريح إلى هذه المنطقة النائية من أم درمان ليحط الرحال بالنهد ويحييها بنار القرآن والذكر الحكيم حتى أصبحت في حياة الشيخ مزاراً لمريديه من كل حدب وصوب. وأصبحت النهد يرفع فيها الآذان خمس مرات في اليوم ويأتيها رزقها رغداً بإذن ربها. عاش ود الريح في النهد طوال عمره حتى وافته المنية في عام 1983، ودفن بالنهد، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته. لقد كان ود الريح رجلاً صالحاً ذاكراً سمحاً وورعاً، حلو الكلام وصاحب أحوال وطرائف ما زلت على ألسن الناس. وقد عرف ود الريح بالصيام المتواصل، ولم يكن يفطر إلا في أيام الأعياد أو الأيام التي لا يجوز صومها كيوم الشك، ولذلك عرف أيضاً بالصائم ديمة.

في واقع الأمر، لم يقتصر تأثير الشيخ محمد ود الريح على منطقة النهد فحسب، بل تعداها لكل بادية شمال كردفان، فقد اشتهر الشيخ ود الريح برحابة الصدر وملاطفة الناس ونجاحه في علاج الذين بهم مس بآيات الذكر الحكيم، كما أنه أول من أسس خلوة في تلك المنطقة واستطاع اقناع كثير من أهلها بإدخال أبنائهم إلى المسيد، فحفظ القرآن أناس كثر وانتشروا في تلك البقاع يعلمون الناس أمور دينهم

وينشرون الوعي بينهم حتى حدث تحول كبير في حياة الكثيرين بتأثير مباشر وغير مباشر من الشيخ ود الريح. وكان يأمر تلاميذه بنشر القرآن وتحفيظه في المناطق التي جاءوا منها وبذلك توسعت دائرة تأثيره مع مر الأيام. كما أن بعض محبي الشيخ قد آثر البقاء في تلك المنطقة وتصاهر مع أهلها من الكبابيش وغيرهم وصارت تبعاً لذلك بوتقة انصهار اجتماعي، سيما وأن ود الريح كان حريصاً ومشجعاً لتزويج الأيامى من الجنسين، وأحيانا يزوج الناس على نفقته الخاصة، ونتيجة لذلك ونشأ جيل جديد شب على تلاوة القرآن ونور العلم، والتكافل والتعاون على البر والتقوى، ولا يزال أحفاد الشيخ ود الريح يقيمون في تلك المنطقة ويؤدون نفس رسالة الشيخ المؤسس. وكان الشيخ محمد ود الريح من سالكي الطريق السماني، وله علاقات بآل الشيخ الطيب ود البشير، في أم مرحي، وبالشيخ البرعي ود محمد ود وقيع الله، في الزريبة. أما علاقته بالشيخ مبارك ود مركز، في الشوق، فقد صارت علاقة أسرية؛ إذ تزوج الشيخ الفاتح ود الشيخ محمد ود الريح بإحدى كريمات الشيخ المبارك ورزق منها بذرية صالحة، وكل هذا إنما هو نتيجة طبيعية لتلك العلاقات التي تقوم على أساس من التقوى والدين فتتحول إلى علاقة رحم ومصاهرة، مما يعزز اندماج أهل السودان عبر هذا الإرث الإسلامي العظيم، ويقوى النسيج الاجتماعي.

وحسب تقديري إن لم تكن للشيخ ود الريح كرامة سوى إحياء منطقة النهود لكفاه ذلك؛ خاصة إذا علمنا أنه قد غادر حياة الدعة والعيش الرغد في أم درمان، في مطلع خمسينات القرن، وقرر الارتحال إلى تلك المنطقة الوعرة، والزم نفسه بالزهد والتقشف، وإرشاد الناس، والإصلاح بينهم، في وقت كانت فيه أم درمان هي قبلة العلماء ومركز المدنية والثقافة والتجارة لأهل السودان كافة، وهو سليل أسرة أخذت من كل ذلك بنصيب، لكن ترك كل ذلك وراءه هروباً إلى ربه ودعوة في سبيله. هذا إن دل على شيء إنما يدل على أن أهل التصوف لهم طريقتهم الخاصة في نشر الإسلام وتعليم القرآن فلا غرو أن اختار بعضهم العمل في مناطق الشدة فيما يشبه المغامرة المحفوفة بالمخاطر، ولكنهم في كل الأحوال كانوا يحققون النتائج الباهرة في نشر الدعوة؛ نظراً لإخلاصهم وصدق نواياهم وقوة عزيمتهم، وتوكلهم على الله ودعوتهم المستجابة.

بعدما حط ود الريح الرحال بمنطقة النهد، أقام علاقات طيبة مع الأهالي، خاصة فروع الكبابيش القاطنة في تلك الديار مثل أولاد عقبة ودار عمر وغيرهم فاصهر إليهم وأقام بينهم كواحد منهم، لا يفرق بينهم في التعامل، مثلما كان يفعل مع كل الناس، وتواصل مع رجالات الإدارة الأهلية من آل الشيخ على التوم الذين بادلوه تقديراً بتقدير، الأمر الذي ساعد كثيراً في استقراره في كنفهم وبين ظهرانيهم وكانوا يسترشدون برأيه في كثير من المسائل الشائكة ويجدون عنده المشورة والرأي الصائب. وكان الشيخ يكرم ضيفه ويطعم البائس والفقير بلا من وأذى وظل ذلك ديدنه حتى وفاته.

توفي الشيخ ود الريح في عام 1983، وترك ذرية كبيرة في النهد، منهم الشيخ عبد المجيد، وهو صاحب خلوة ونفقة، والشيخ السماني، ومنهم الريح بن الشيخ قريب الله ود الشيخ محمد، وهو مقيم أيضاً في النهد وهنالك عدد من أحفاده. وهنالك فرع من هذه الأسرة الكريمة يقيم في منطقة الجمامة ولهم خلوة عامرة، يتولى أمرها ويشرف عليها حفيد ود الريح الشيخ العباس ود الشيخ قريب الله. ولهم كذلك أسرة كبيرة في أم درمان، ومعظمهم من حفظة كتاب الله منهم على سبيل الشيخ عبد المحمود ود الشيخ ود الريح، والشيخ أبو صالح أخه، وديارهم مفتوحة للزوار والمحبين وطلبة العلم وحفظة كتاب الله، وطبعاً هنالك أبنه المرحوم الشيخ الريح الكبير وإخوته وكلهم يسير على ديدن الشيخ ود مبروكة، فلله درهم. كان الشيخ محمد ود الريح رحمة لمن حوله، ولم تكن الدنيا وزخرفها من الأمور التي تشغل باله، فقد كان ينفق كل ما يأتيه من مال قل أو كثر. رحم الله الشيخ التقي والنقي الشيخ ود مبروكة، فقد حول النهد إلى منارة علم ونقطة تجارة وملتقى طرق بين غرب السودان ووسطه وشماله.

هذا ما أفادني به الأستاذ حسن موسى على التوم، حفظه الله وبارك فيه.

(25) الشيخ أبو عزة

يبدو أن منطقة أم دم حاج أحمد وما جاورها من مناطق قد كان لها النصيب الأكبر من الخلاوي حيث أسست هناك مراكز إسلامية عريقة ظلت تنشر العلم والاستنارة، وتحفظ النشء كتاب الله، ليس في محيطها فحسب، بل امتدت شهرتها وارتداها التلاميذ من مختلف أنحاء البلاد ومن خارجها، فكان لها الأثر العظيم في تشكيل هوية المجتمع المحلي والإقليمي، ولله الفضل والمنة. من هذه الخلاوي التي ظلت فيها تقابة القرآن مشتعلة منذ وقت ليس بالقصير خلوة الشيخ أبو عزة، وهو جامعي من الشويحات، وخلوته الآن ضمن أكبر الخلاوي في المنطقة.

توجد خلوة آل المراد ومجمعه القرآني الحافل بقرية أم عشرة. هذا الرجل الذي يعرف بالشيخ أبو عزة ينتسب الى الأرومة العباسية ويوجد كثير من أهله وربعه بمحلية أم دم حاج أحمد. ولد الشيخ أبو عزة في قرية أم عشرة ما بين عامي 1926 و1929. ودرس القرآن الكريم على يد الشيخ عبد الله ود العباس المتوفي عام 1958 في مسيد زيدان. ودرس الفقه على يد الشيخ الطاهر منقا ثم على يد الشيخ علي أدهم، تلميذ شيخ الإسلام محمد البدوي، أحد تلاميذ الشيخ العليش الأزهري عن الشيخ محمد الأمير الصغير عن أبيه الأمير الكبير المتوفي عام 1817.

سلك الشيخ أبو عزة الطريق السماني عن الشيخ عبد الله ود العباس عن طريق الشيخ هجو اليعقوبابي بسنده إلى الشيخ أحمد الطيب (راجل أم مرحي) بسنده إلى السيد محمد بن عبد الكريم السمان في المدينة المنورة.

افتتح الشيخ محمد أحمد أبو عزة خلوته القرآنية في عام 1947، بعد كد وجهد حيث أظهر قدر كبيرا من الجلد والمثابرة والصبر والاجتهاد والإخلاص وحسن الإدارة. وخلال كل هذه السنوات ظل الشيخ أبو عزة يباشر التدريس في الخلوة ويشرف عليها بنفسه بكل دقة وحرص ويمولها من إمكانياته الخاصة حتى أصبح من أشهر معلمي القرآن الكريم في تاريخ التعليم الديني في بلاد السودان الشرقي والأوسط والغربي منذ دخول الإسلام في إفريقيا عموما والسودان خصوصا حتى هذا الوقت الراهن.

لقد انتشر تلاميذ الشيخ أبو عزة ليس في ولاية السودان فحسب، بل وصلوا الى بقاع بعيدة حتى بلغوا الدول المجاورة. ومما يميز تلاميذ الشيخ أبو عزة أنهم يتحلون بقيم الادب والحفاظ على الترابط والتواضع الجم وقد ورثوا كل ذلك من شيخهم أبو عزة أطال الله عمره وحفظه بما يحفظ به عباده الصالحين.

هذا الشيخ أبو عزة عرف بالكرم وحب التعرف على الناس وإنزالهم منازلهم ولين الجانب معهم والسعي إلى إصلاح ذات البين بين من هم حوله من التلاميذ وأفراد المجتمع المحلي وكل تلك الخصال إنما هي من صفات أهل القرآن الذين يعرفون به.

الشيخ أبو عزة اشتهر بالزهد والتجرد من متاع الدنيا وانشغل بدلاً عن ذلك بتحفيظ القرآن ونشر العلم. بدأت الخلوة صغيرة متواضعة، تدرس أبناء وبنات القرية، ولكن بفضل من الله وبعزيمة مؤسسها وإخلاص نيته توسعت الخلوة حتى بلغ عدد طلابها ما يفوق خمسة آلاف من متخلف أنحاء السودان ومن خارجه. الخلوة تقدم التعليم والمسكن والمأكل والمشرب، مع الحرص التام على تعليمهم مبادئ العقيدة والخط العربي، ونطق الحروف حسب مخارجها الصحيحة، وكتابتها بخط عربي واضح، في وقت وجيز، وهذه طريقة مبتكرة وعبقرية لتحفيظ القرآن؛ لأنها تركز على النطق الصحيح والتجويد وهذا من متطلبات العناية بالقرآن الكريم. وعلاوة على تحفيظ القرآن وتدريس العلوم الإسلامية كالفقه، وتعليم صحيح العبادات، فإن خلوة الشيخ أبو عزة لها دور اجتماعي كبير في محيطها المحلي، فهي تعمل على إرشاد الناس، والسعي في إصلاح ذات البين، وحثهم على العمل ومعالجتهم بالقرآن الكريم. وقد خرجت الخلوة حتى الآن ما يزيد عن سبعين دفعة من حملة كتاب الله، من داخل السودان وخارجه. كما تقوم خلوة الشيخ أبو عزة بتدريب التلاميذ على سبل كسب العيش، وتمنحهم أدوات الإنتاج الزراعي البسيطة، حتى لا يعتمدوا على غيرهم ويكونوا قدوة حسنة. ومما يميز خلوة الشيخ أبو عزة أنها تعد نموذجاً مصغراً للمجتمع المسلم الذي يوقر فيه الصغير الكبير، ويرحم الكبير الصغير، ويقوم كل شخص بما يوكل إليه من مهمة، تناسب سنه وقدرته، حتى يشعر بأنه جزء من هذه المؤسسة الرائدة، التي يسودها التراحم والتكافل الاجتماعي بأروع صوره، فهو قائم على الفضيلة والمثل والسنة المحمدية.

في الوقت الحاضر، يشرف على الخلوة إدارياً الشيخ عبد الله بن الشيخ محمد أحمد أبو عزة ويبذل جهداً مقدراً للتأكد من جودة التعليم في الخلوة وتقديم كل الخدمات المساندة للطلاب والعملية التعليمية دون كلل أو ملل. وخلوة الشيخ أبو عزة تعتبر الآن واحدة من كبريات الخلاوي في السودان، إن لم تكن الأكبر على الإطلاق، مع ابتعادها الكامل عن المظاهر والبهرج. ومع أن الشيخ أبو عزة قد بلغ من الكبر عتياً إلا أنه لا يزال يستقبل ضيوف الخلوة، بحسب ما تسمح بذلك صحته وسنه، كما يشارك أحياناً في الاستماع لتلاوة القرآن حتى يطمئن على أن الأمور تسير على الوجه الأكمل، فهو لم يغادر الخلوة أو يفارقها، إلا للضرورة، منذ إنشائها قبل سبعين سنة، فأي صبر هذا؟ هذا الرجل العصامي الزاهد، الورع، المتواضع، المرشد، المربي، الكريم، قال عنه الشيخ البرعي «إن الشيخ أبو عزة يحش بيده» بمعنى أنه يدرس التلاميذ بنفسه، أطال الله عمره وجزاه عن تلاميذه خيراً.

هذه الخلوة الآن لها امتداد في جنوب كردفان والنيل الأبيض وغير هذه من المناطق، حتى قيل إن عدد فروعها قد تجاوز المائتين، وكل ذلك إنما يدل على حرص الشيخ أبو عزة وتلاميذه على تحفيظ القرآن، ونشر السنة والفضائل والقيم. فبعد حفظ القرآن يدرس العلم الشرعي، ويدرب على كيفية التدريس وتحفيظ القرآن.

أتقدم بالشكر الجزيل والمستحق للشيخ مجاهد حاج أحمد أبو المعالي الذي أمدني بكل هذه المعلومات عن الشيخ أبو عزة جزاه الله عنا خيرا.

(26) رجال من دار الريح

عيـــال طـــه

يقول صاحب الطبقات في معرض حديثه عن الفكي علي بقادي الكاهلي ما يلي: «اسمه علي بن حمودة الكاهلي، جلس للتدريس وانتفعت به الناس في علم الكلام. وشدت إليه الرحال من سائر الأقطار. وكانت له مشاركة في الفقه وعلم التربية وأولاده هم محمد أحمد وإبراهيم وكلهم صالحون، وإبراهيم ابنه شرح «الكبرى» شرحاً جيداً، وعكفت عليه الطلبة وسار سير الشمس في الأفق». الشيخ علي بقادي وهو من علماء السلطنة الزرقاء المعروفين ويقال إنه هو العالم الذي اختاره سلطان الفونج لمناظرة السيد محمد عثمان الميرغني حين قدم إلى سنار. وقد سلك الشيخ علي بقادي الطريق القادري على يد الشيخ عبد الباقي النيل في أم قرقور. الشيخ علي بقادي هو من فرع البراقنة، من الكواهلة، وقيل إنه عاش في الجزيرة بالقرب من الشكينيبة، في القرية التي تحمل اسمه، بقادي، ثم أرتحل بعض عقبه مع من عبر النيل الأبيض من الكواهلة، ميممين شطر كردفان، وتحديداً شمالها حيث استقروا أولاً بمنطقة الخيران، شمال بارا، حيث رحبت بهم دار حامد، وضربوا أطنابهم ضيوفاً على الشيخ عمر قش، وبعد ذلك حطوا الرحال بمنطقة أم بادر ومواقع أخرى من بادية وأرياف شمال كردفان، ومنها منطقة كجمر والتمرة وشرشار.

استقرت فروع من هذه القبيلة العريقة حول أم بادر ونواحي كجمر، وبالقرب من البشيري، واختلطت بدرجات متفاوتة مع غيرهم من قبائل المنطقة مثل دار حامد والكبابيش، والجوابرة، وحديثنا هنا سيكون عن ذلكم الفخذ من البراقنة الذي استقر به المقام في ضواحي كجمر حيث أوقدوا نار القرآن من قبل ما يزيد عن قرن من الزمان، ولا يزال عطاؤهم مستمراً، وهم يتبعون لإمارة الكواهلة التي مقرها في أم بادر، بزعامة شيخ العرب ود الإعيسر. عرفت هذه المجموعة من الكواهلة البراقنة بعيال طه، وحديثنا هنا سيكون عن أسرة من البراقنة هم من يعفرون بعيال طه، فمن هم هؤلاء القوم الذي طبقت شهرتهم الآفاق؟ وبما اشتهروا؟ وما علاقتهم بالشيخ علي بقادي؟ وما هو مدى تأثيرهم على المجتمع المحلي؟

البراقنة كما أشرنا هم إحدى بطون قبيلة الكواهلة المنتشرة في كل أنحاء السودان، وعرف البراقنة بهذا الاسم نسبة لجدهم برقان بن كاهل. يقيم السواد الأعظم من البراقنة في قرية البراقنة والشكابة وغيرها من قرى الجزيرة بوسط السودان. ولهم وجود فاعل في شمال كردفان في أم بادر وحول كجمر.

ينتسب عيال طه إلى جدهم الفكي طه ود حمد ود علي، وهو أحد أربعة بايعوا المهدي في قدير، ومن بينهم الفكي حسن ود أحمد ود الشيخ علي بقادي، وإبراهيم ود عبود النصيح، المشهور بفحل الجزيرة، وهو قادري الطريقة بسنده عن طريق الشيخ محمد المسلمي، أب شلة، إلى الشيخ دفع الله المصوبن. والشيخ طه ود حمد هو من قاد القبيلة من الجزيرة إلى كردفان، ولكنه عاد لزيارة ربعه في الجزيرة، فتوفي هنالك ودفن في قرية ود أب آمنة بالقرب من بقادي. تزوج الفكي طه بإحدى كريمات الفكي علي بقادي المذكور أعلاه، وانجبت له ابنه أحمد ود طه الكبير، الذي عاش في أواخر العهد التركي وأدرك المهدية. وقد درس القرآن والفقه والعلوم الإسلامية الأخرى في مسيد جده الشيخ على بقادي، ثم ارتحل إلى كردفان، وفي عهد المهدية عاد إلى أم درمان حيث توفي هناك ودفن في مقابر أحمد شرفي. وبعد انتقاله إلى كردفان، عمل أحمد ود طه بتدريس القرآن في مسيد الشيخ محمد ود دوليب في خرسي. الفكي أحمد ود طه له من الأبناء أثنين هما حسن وحسين، وكلاهما من العلماء الأفذاذ ومن حفظة كتاب الله، وكلاهما مدفون في قرية شرشار وقبراهما معروفان حتى الآن. اشتغل الشيخ حسن بتدريس القرآن والفقه لأبناء إخوانه وغيرهم من الطلاب من الأسرة وخارجها. أما الشيخ حسين فقد تزوج من الجزيرة ومكث هناك ولم يعد إلى شمال كردفان إلا في آخر عمره قبيل وفاته بقليل.

أسس عيال طه خلوة في قرية التمرة، شرق شرشار، وتولى التدريس بتلك الخلوة الفكي أحمد ود طه الصغير، حفيد أحمد ود طه الكبير. ثم انتقلت الخلوة إلى قرية السليكات، في منطقة المرامرة، بشرق دار حامد، والتحق بتلك الخلوة نفر كثير ممن كان لهم شأن عظيم بعد حفظ كتاب الله ودراسة الفقه؛ منهم الفكي أحمد أبو نخيلة، من قرية أم نالا، والفكي حمد الفزاري، من قرية العجاجيك، في دار الجوامعة، والفكي هلال ود النيل، من قرية معافا. وكان يتولى التدريس والإشراف على تلك الخلوة العالم أحمد ود طه الصغير، مع القيام بالإنفاق على الخلوة وتحمل كل مستلزماتها.

بعد ذلك انتقلت الخلوة إلى قرية البراقنة بالقرب من مدينة كجمر، حيث أوقد العالم أحمد ود طه تقابة القرآن وظل يباشر التدريس وتحفيظ القرآن حتى بلغ من الكبر عتياً، وتوفي عام 1930، ودفن في شرشار أيضاً، رحمه الله وغفر له.

وهنالك عدد كبير من الحفظة والعلماء الذين خرجوا من رحم هذه الأسرة العريقة منهم على سبيل المثال لا الحصر، الفكي عبد الرحمن ود محمد ود أحمد ود طه، وعبد الله ود حمد ود بياع، والسنوسي ود أحمد ود طه، أمه بنت الشيخ محمد ود دوليب، وهؤلاء جميعهم من تلاميذ الشيخ العلامة إبراهيم الكتيابي، الذي ظل يتولى تدريسهم منذ أن كانوا في أم درمان، في عهد المهدية، ثم جاء معهم إلى شمال كردفان، ومكث بها حتى وفاته. ومن مشاهير عيال طه الذين يشار إليهم بالبنان، الشيخ طه ود

أحمد ود طه المعروف بالصغير، فقد كان رجلاً كريماً، شهماً معطاءً، وكانت له صلات قوية بالحكام في كافة العهود، وكان بيته منزلة لهم في كجمر.

بعد وفاة الفكي حسن، تولى التدريس في الخلوة الفكي عبد الرحمن ود محمد ود أحمد ود طه، وقد توفي عام 1963، ودفن في كجمر، ومن تلاميذه الفكي حسين ود أرباب في أم بادر، والفكي النور الكاهلي، المعروف بود الظيطة، والعمدة أحمد زين العابدين، والأستاذ عبد الرحمن محمد عبد الرحمن الذي عمل في السلك الإداري والمالي حتى التقاعد.

في الوقت الحاضر، يشرف على خلوة عيال طه، بالقرب من كجمر، الفكي إبراهيم ود عبد الرحمن ود محمد ود أحمد ود طه، وقد نهاز عمره المائة عام، وهل لا يزال بكامل وعيه وأدراكه. وقد تلقى القرآن على يد الفكي حسن ود طه الصغير، شقيق العالم أحمد ود طه. وكان الفكي إبراهيم، إيام شبابه، من الذين يخطون المصحف الشريف بأيديهم، وقد حفظ القرآن على يده عدد كبير من الرجال، الذين كان يحفظهم القرآن ويعلمهم الكتابة ومبادئ الفقه بنفسه. ومن تلاميذه الفكي ضياء الدين عبد الرحمن محمد إبراهيم، والفكي عبد الله أحمد تيراب، من شاوة أولاد حامد الواقعة شرق شرشار، والفكي إبراهيم ود المكي في كجمر. ويقوم بالتدريس في الخلوة الآن ويصلي بالناس في المسجد الشيخ ضياء الدين بن عبد الرحمن. وخلوة البراقنة لا تزال تقوم بمهمتها في تحفيظ القرآن في منطقة كجمر حيث يرتادها التلاميذ خاصة في أثناء عطلة المدارس.

جدير بالذكر أن عيال طه عرفوا بحرصهم على العلم وحفظ القرآن وهذا ما جعلهم يوقدون نار القرآن حيثما حلوا، ولعل هذا ما جعل خلوتهم تتنقل في عدة مواقع، فهم من الذين جمعوا بين حياة البداوة والترحال والعلم وتحفيظ القرآن، فقد رعوا الإبل والبقر والأغنام وعملوا بالزراعة، ولكن في ذات الوقت حاز العلم وحفظ القرآن كثير منهم، ونشروا المعرفة وانشغلوا بتحفيظ القرآن، وإرشاد الناس، ونشر الطريق القادري، فقد ظلوا يحافظون على أوراده، كابراً عن كابر، من لدن الشيخ علي بقادي، حتى الوقت الراهن؛ ولذلك لهم فضل على كثير من الذين عاشروهم من أهل المناطق التي استقروا بها ولو لفترة قصيرة.

عندما وصلت طلائع العلماء من عيال طه إلى دار الريح كان الجهل والأمية تنتشر في تلك المنطقة، فعملوا على تعليم الناس مبادئ دينهم من حيث الطهارة، وصحيح العقيدة والعبادة، ولهم الفضل في انتشال الكثيرين من براثن الجهل وهدايتهم إلى طريق الرشد والفلاح، حتى كان الشيخ علي التوم، ناظر عموم الكبابيش، ومن بعده أبناؤه، يستكتبونهم، ويستشيرونهم في الأمور الشرعية التي تخص الرعية، وبذلك ساهم هؤلاء الرجال العظماء في نشر الفقه والحكم الشرعي في كثير من القضايا مثل الزواج والطلاق والنفقة والميراث والديات، وهذه بكل تأكيد مساهمة كبيرة في ترسيخ العلم الشرعي،

والحكم بما يرضي الله. وهذه تعد مساهمة متميزة في تعزيز الفضائل والقيم والمحافظة على النسيج الاجتماعي، واستقراره وتماسكه؛ سيما وأن عيال طه كانوا أيضاً يقومون بدور رائد في الصلح والإصلاح بين الناس أفراداً وجماعات.

أفادني بهذه المعلومات الثرة عن عيال طه، الأستاذ العمدة أحمد زين العابدين ود يوسف ود طه، وهو من الذين درسوا العلم على يد الفكي عبد الرحمن ود طه، ثم التحق بمدرسة كجمر الأولية، ثم مدرسة الأبيض الثانوية الصناعية، وتخرج في المعهد الفني بالخرطوم وعمل بالتدريس في كثير من مناطق السودان، وبعد التقاعد صار عمدة لفرع البراقنة من قبيلة الكواهلة وهو مقيم بقرية البراقنة، الواقعة جنوب غرب كجمر، وهي قرية عامرة بها، إلى جانب الخلوة، مدرسة متكاملة، وتتوفر بها مياه الشرب.

هؤلاء الرجال كانوا مصابيح هدى أبصر النور والرشد على نور خلاويهم المنتشرة في رقعة واسعة كثير من الناس، ولا تزال بقية صالحه منهم يعلمون الناس أمور دينهم في كثير من المواقع، من كجمر وحتى أم بادر حيث فرعهم الآخر بشياخة أسرة بياع، وقد أسس هذه الخلوة الفكي عبد الله ود بياع، ومن بعده ابنه الشيخ أحمد وهي لا تزال تقوم برسالتها على أكمل وجه تحت رعاية الخليفة الحالي.

(27) السادة العركيون

علاقة السادة العركيين بدار الريح ليست وليدة اليوم، بل هي ضاربة في القدم، ويكفي أن أحد أجداد العركيين الأوائل قد حط الرحال واستقر حول جبل المليسة بالقرب من قرية المقنص، وأقام هناك حتى وفاته. يقول الشيخ محمد النور ود ضيف الله، في كتاب الطبقات، ما نصه: «الشيخ دفع بن مقبل، قدم من دار الغرب، ومحله بير سرار. ونزل جرف الجميعاب، وتزوج هدية بنت عاطف وولد منها أولاده الخمس العدول». وهؤلاء الخمس العدول هم: حمد النيل، وعبد الله، وأبو إدريس، وأبو بكر، وعمر المجذوب.

وحسب الروايات الشفوية في دار الريح، فإن بئر سرار قد حفرها الشيخ مقبل والد دفع الله المشار إليه أعلاه. وقيل إنها قد حفرها الأمير سرار بن حسن كردم، أثناء رحلته من منطقة الخيران، إلى جبل العرشكول بالنيل الأبيض، ولكن الشيخ مقبل قد أقام حولها وبنى مسكنه هناك، والرواية الثانية أكثر وجاهة من الأولى، حسب التسمية المتداولة بين الناس حتى هذا اليوم. وهي تقع على بعد ثلاثيين ميلاً شمال شرق مدينة بارا. وقد وصل الشيخ مقبل إلى تلك المنطقة في وقت مبكر، ولكن لا نعلم تحديداً متى كان وصوله. والمهم في الأمر أن هذا الرجل قد اجتمع حوله نفر من الناس خاصة من دار حامد والكبابيش والمجانين والجوامعة وبتي جرار وغيرهم من القبائل الرعوية التي كانت تجوب تلك الفيافي، بحثاً عن الماء والكلأ، ولما عرفوا عنه علمه وحسن خلقه، وإلمامه بالفقه والقرآن الكريم، صاروا يلجؤون إليه طلباً للبركة وربما لمعرفة أصول دينهم، وفي بعض الأحيان لطلب الفتوى والرأي الشرعي فيما يتعلق بقضاياهم الأسرية والاجتماعية الأخرى، ولا نعلم إن كان قد أسس خلوة لتحفيظ القرآن أم لا، لكننا على يقين بأنه قد ترك أثراً دينياً يتمثل في امتثال الناس لنصحه وإرشاده، وقبره لا يزال معروف في تلك الناحية، وينظر إليه كقبر لرجل صالح.

وتشير بعض المصادر إلى هجرة السادة العكريين إلى السودان وتورد ما نصه: " بدأت هجرة أسلاف العركيين، من الحجاز إلى العراق ثم مصر، كما تقول الروايات، عقب الفتوحات الإسلامية في شمال إفريقيا ومصر؛ فهاجروا إلى بوادي العراق ثم الشام ومصر عبر سيناء، ولكنهم انحرفوا برحلتهم بمحاذاة البحر الأحمر واستوطنوا في بلدة (القصير) لبعض الوقت. ومن القصير شدوا رحالهم غرباً إلي داخل إفريقيا، واخترقوا الصحراء الكبرى من أضيق مدخل منها حتى وصلوا إلى مكان يسمي (آبار سرار) في منطقة بارا بشمال كردفان، خلال القرن الثالث عشر الميلادي، وأقاموا بها ردحاً من الزمن وتوفي من أجدادهم هناك السيد محمد نافع وأبناؤه بالتتابع ثم حفيده السيد أحمد مقبل المشهور باسم السيد مقبل جد الشيخ دفع الله والد الخمسة العدول».

وقد أشتهر من هذه المجموعة المتميزة رجال عظماء، كانت لهم بصمات واضحة على مسيرة الدعوة الإسلامية والعلم الشرعي والفقه والتصوف، نذكر منهم على سبيل المثال الشيخ عبد الله العركي، الذي تنسب إليه الطريقة القادرية العركية بسندها إلى الشيخ عبد القادر الجيلاني، ومنهم الشيخ محمود العركي، الذي وضع أسس فقه الأسرة في السودان، والشيخ دفع الله المصوبن، والشيخ أبو إدريس، والشيخ حمد النيل، والشيخ عبد الباقي المعروف بأزرق طيبة، وغيرهم كثر ظلوا يحملون راية الإسلام ويوقدون تقابة القرآن وينشرون الطريق القادري، مثلما هو الحال في أبو حراز وطيبة الشيخ عبد الباقي، وكردفان والنيل الأبيض، وغيرها من الأماكن.

من جانب آخر، ظلت العلاقة العلمية والروحية بين العركيين وبعض رجال دار الريح قائمة حتى وقتنا الحاضر، فقد ظل أهل دار الريح يرتحلون إلى أبو حراز وطيبة الشيخ عبد الباقي لتلقي العلم وحفظ القرآن الكريم وأخذ أوراد الطريقة القادرية العركية على أيدي مشايخ العركيين في تلك الديار العامرة بالذكر والتهليل، وتضيئها نار القرآن ليلاً.

هذا فضلاً عن وجود راسخ للسادة العركيين في منطقة أم سيالا منذ وقت قديم، حيث حل بهذه المنطقة رجل مبارك من العركيين، هو الرجل العابد الزاهد، الشيخ بابكر ود أحمد ود النور العركي. فقد وصل تلك الديار وأسس بها خلوته في عام 1865، ولما كانت المنطقة تعاني من شح في مياه الشرب، ساعد الفكي بابكر وتعاون مع الأهالي، الذين رحبوا به واحتضنوه، في حفر البئر التي تعرف بالزرقاء، وبذلك توفر ماء الشرب وأسهم في استقرار الناس وإقبال التلاميذ على حفظ القرآن في تلك الخلوة. وعرف الفكي بابكر بكتابة المصحف بخط اليد، ولا يزال أحفاده يحتفظون بمصحفه الذي يسمى «أبو قِدّة»؛ لأنه مجلد بقطعة من الجلد.

ينتمي الفكي بابكر إلى الدوحة العركية، وقد نشأ في قرية النوفلاب، في ريفي أم درمان الشمالي، وحفظ القرآن في طيبة الشيخ عبد الباقي، وسلك الطريق القادري على يد الشيخ عبد الباقي المعروف بأزرق طيبة، وهو من أعلام التصوف في السودان. وبعد إكمال حفظ القرآن وتجويده، أنتقل الفكي بابكر إلى قرية النوفلاب لممارسة الدعوة إلى الله، وبعد الإقامة هناك لبعض الوقت، خرج مهاجراً في سبيل الله إلى منطقة الترعة الخضراء، الواقعة غرب النيل الأبيض، ثم شد الرحال إلى منطقة أم سيالا وأسس خلوته أولاً في قرية حبوس الواقعة إلى الجنوب الغربي من أم سيالا، وأوقد بها تقابة القرآن وشرع في تعليم الناس أمور دينهم وتحفيظ القرآن للتلاميذ الذين توافدوا على الخلوة من كافة المناطق المجاورة. وفي حبوس تزوج الفكي من إحدى كريمات العمدة تكروري، وهو عمدة النواهية، أحد أكبر فروع دار حامد، ولكنه لم ينجب منها، ولم يرزق بذرية، وفي إحدى زياراته للترعة الخضراء توفي بها ودفن هناك ولا يزال قبره معروف بها، يزوره أحبابه ومريديه، من وقت لآخر.

بعد وفاة الشيخ بابكر، رحمه الله، تولى الخلافة ابن أخيه الشيخ شرف الدين ود النور في عام 1895.
درس الشيخ شرف الدين أيضاً وحفظ القرآن الكريم في طيبة الشيخ عبد الباقي، وسلك الطريق القادري على أزرق طيبة. نقل الشيخ شرف الدين الخلوة من حبوس إلى أم سيالا، في عام 1895، وظل يشرف على نشاطها ومستلزماتها، بينما يتولى التدريس فيها وتحفيظ القرآن عدد من المشايخ الحفظة المجيدين، مثل الشيخ إسماعيل ود ناصر من نواهية حبوس، وحسن ود المراد وهو أيضاً من النواهية، وتخرج فيها رجال كثر من حملة كتاب الله، وظل الشيخ شرف الدين يشرف على الخلوة وينفق عليها حتى وفاته في عام 1935. وقد كانت له، رحمه الله، علاقة صداقة وصلة طيبة مع ناظر محكمة أبو تنيتن، الأمر الذي يوضح التعاون والتعاضد المستمر والقائم بين رجال الخلاوي وزعماء الإدارة الأهلية.
ثم تولى الخلافة الشيخ المجذوب عبد الرحمن ود الشيخ شرف الدين ود النور، وهو أيضاً من الذين درسوا العلم وحفظوا القرآن في طيبة الشيخ عبد الباقي، واستمر في الخلافة والإشراف على الخلوة لمدة سبع سنوات فقط حيث توفي في عام 1942. وفي عهده كان يتولى التدريس وتحفيظ القرآن في الخلوة مشايخ منهم الشيخ يوسف ود علي ود النور، والشيخ إسماعيل النواهي، وتخرج في تلك الفترة الفكي المليح من أهالي حبوس، والشيخ الحسين من الجعليين المقيمين في أم سيالا. ومن الذين تخرجوا في هذه الخلوة وأسسوا خلاوي خاصة بهم الفكي منهل ود موسى، الذي أوقد نار القرآن في حبوس، وهنالك الشيخ محمد ود البشير وهو زميل الشيخ المجذوب، في خلوة طيبة، وأسس خلوة في حبوس أيضاً.
كانت خلافة الشيخ المجذوب هي العهد الزاهر في الخلوة حيث بلغت قمة العطاء وأزداد عدد الطلاب بشكل ملحوظ، على الرغم من قصر مدة خلافته. وقد كان الشيخ المجذوب رجلاً سمحاً كريماً ذاكراً ومستجاب الدعوة بفضل الله، كما كان زاهداً في الدنيا وزخرفها. وكانت له علاقات وطيدة مع أهالي المنطقة من أمثال ود البولاد الذي سميت أم سيالا باسمه، بالرغم من أنها تتبع إدارياً وجغرافياً لإمارة دار حامد.
بعد وفاة الشيخ المجذوب تولى الخلافة والإشراف على الخلوة ابنه الشيخ الجيلي الشيخ المجذوب، وهو قد حفظ القرآن في طيبة الشيخ عبد الباقي. تزوج الشيخ الجيلي من كريمة أحمد ود الفكي عبد الله ود نصر الدين المدني، من قرية سيرو، وانجبت له الخليفة الحالي، الشيخ المجذوب ود الشيخ الجيلي العركي، الذي درس في خلوة أجداده بأم سيالا، ثم تلقى العلم في مسجد أم درمان العتيق على يد الشيخ محمد حامد الضرير النوفلابي، والشيخ ود عيسى أحد كبار العلماء بأم درمان، والشيخ يوسف العسيلاتي، خلال الفترة من 1972 إلى 1973. وقد درس الشيخ المجذوب الفقه المالكي؛

خاصة الرسالة والعزية ودرس التوحيد والسيرة النبوية. وجدير بالذكر أن الشيخ المجذوب قد تولى الخلافة عام 2003. وهو يقوم بأمر الخلوة، يعاونه إخوته الكرام الشيخ النور والشيخ شرف الدين، في الإشراف على نشاط الخلوة والإنفاق عليها.

حفظ القرآن الكريم بهذه الخلوة المباركة عدد من الدارسين من أمثال الشيخ مزمل الشيخ الجيلي، وهو إمام مسجد الآن، ومنهم الشيخ عبد الرؤوف الشيخ النور، والشيخ علي الشيخ الجيلي، وهو صاحب خلوة في منطقة أم رزوقة، الواقعة بين قريتي حبوس وأم شيب، في إدارية أم سيالا، والشيخ يوسف ود الشيخ أبو شيبة، وهو يعمل بالتجارة، والريح الشيخ الجيلي، والشيخ الطريفي ود الشيخ شرف الدين، وهو يعمل بالتجارة أيضاً. ومن الذين درسوا في هذه الخلوة الشيخ عبد الجبار محمد من الجوامعة، من المقنص، والشيخ دفع الله العبيد من الجوامعة أيضاً، وقد أكمل الدراسة في خلوة الشيخ البرعي بالزريبة، ثم المعهد العلمي بأم درمان، وهو يعمل بتحفيظ القرآن. الخلوة الآن بها عدد من الطلاب وقد شيد بها مسجد كبير وافتتح بتاريخ الجمعة 3/4/2020 وبني على نفقة أبناء الشيخ وبعض المريدين. وهنالك سكن للتلاميذ، مع نية التوسع لاحقاً بإذن الله. الشيخ المجذوب الجيلي هو الآن الخليفة العام للعركيين في منطقة أم سيالا، بينما إمام المسجد فهو الشيخ محمد شرف الدين المجذوب، وهو من الشخصيات البارزة في المنطقة، وشيخ السجادة العركية هو ذلكم الرجل المبارك الشيخ مزمل الجيلي المجذوب.

في واقع الأمر ظلت هذه الخلوة تقوم بدور رائد في محيطها الاجتماعي، ولها اسهامات كبيرة في ربط وتماسك النسيج الاجتماعي في مدينة أم سيالا وما حولها من القرى؛ سيما وأنها تقوم بجهد كبير في تسوية الخلافات بين الأفراد والجماعات من أهالي المنطقة بطبيعة الحال كما هو ديدن المراكز الدينية والخلاوي في مختلف مناطق السودان. ويعتبر المسيد مركزاً لمؤتمرات الصلح باعتباره منطقة محايدة تماماً. وعلى سبيل المثال، شهد المسيد صلحاً بين أطراف من قبيلة المجانين من مناطق القفلة والكويمات وهشابة ود المراد والمزروب قبيل فترة.

وإلى جانب نار العركيين التي ظلت متقدة منذ فترة ليست بالقصيرة، هنالك عدد كبير من الخلاوي في إدارية أم سيالا، سواء في قرى البغادة والنواهية وغيرها من القرى، وسوف نذكر بعضها حسبما توفر لدينا من معلومات على سبيل التوثيق. فهنالك خلوة الفكي بلال ود بخيت في قرية قامير، وخلوة الشيخ الشريف ود الماحي في الكرمتة، وخلوة الشيخ أبو عاقلة الفكي بابكر، وخلوة الشيخ إبراهيم محمد عبد الله، وخلوة الشيخ علي عبد الحميد ود الفكي النعيم، وخلوة الفكي موسى عبد المحمود، وكلها في أم سيالا. وهنالك أيضاً خلوة الشيخ يوسف ود الشيخ أحمد ود الكباشي، شرق أم سيالا. وخلوة الرواحلة، وهم فرع من الكبابيش، ويتولى التدريس بها الشيخ عبد الباقي عبد العزيز بابكر. هذا بالإضافة إلى عدد كبير من الخلاوي الأخرى المنتشرة في هذه المنطقة.

وفي الحقينة توجد خلوة الشيخ آدم محمد عيسى، وخلوة الشيخ حاج إسماعيل فضل الله، وخليفته الآن هو ابنه الشيخ فضل الله إسماعيل، وهي خلوة عامرة بها تقابة قرآن وعدد من التلاميذ، وخلوة الفكي آدم المبارك في المنورة، وفي بانت، بالقرب من الحقينة، هنالك خلوة الشيخ أبو زيد سراج، وهي أيضاً قائمة ويدرس بها عدد من التلاميذ.

وفي قرية أم شيب وما جاورها، توجد خلوة الشيخ أحمد الطيب الشيخ منصور، وهي خلوة عريقة وبها مسجد كبير، تقام فيه الجمعة والجماعات. وهنالك خلوة الشيخ إبراهيم يوسف وخلوة الشيخ عبد الباقي أحمد علي. أما خلوة كندوة، فيشرف عليها ويتولى شأنها ويقوم بالتدريس فيها الشيخ محمد آدم، وفي خلوة البنية يتولى التدريس وتحفيظ القرآن الآن الشيخ محمد مصطفي وأحفاده. وهنالك خلوة الشيخ عبد الله ود ماهل في وادي سليم، وهي أيضاً خلوة عريقة وبها عدد من الدارسين. وفي منطقة النجّاضة، هنالك خلوة الشيخ عبد الله ود الفكي. وفي إيد النبيق، توجد خلوة الشيخ خطّاب أحمد الطالب. وهنالك عدد مقدر غير هذه الخلاوي في كل من قرى عبد الرازق وحبوس وحمامة وأولاد إمام.

هذا الوجود الكثيف للخلاوي في إدارية أم سيالا، ربما يعود بالدرجة الأولى لوجود خلاوي العركيين في هذه المنطقة منذ وقت مبكر جداً، الأمر الذي ترتب عليه نشر الوعي بأمور الدين؛ خاصة مع ازدياد أعداد الحفظة من أهالي تلك لديار، وانخراط بعضهم في العمل بتحفيظ القرآن، سواء في الخلاوي التي كانت قائمة أصلاً، أو بتأسيس خلاوي في القرى، وهذا ما يفسر تمسك أهالي المنطقة بدينهم وحرصهم على تعليم أبنائهم وتحفيظهم كتاب الله منذ سن مبكرة، حتى أن أئمة المساجد في الخرطوم ومدن السودان الكبرى جلهم تعود أصولهم لشمال كردفان، وهذا لعمري أمر يبشر بالخير ويثلج الصدور، نسأل الله التوفيق والسداد للقائمين على هذا العمل العظيم، فخيركم من تعلم القرآن وتعلمه.

أتقدم بجزيل الشكر والعرفان للأخوين الكريمين الخليفة المجذوب ود الشيخ الجيلي العركي، والأستاذ النور إبراهيم خليفة على تزويدي بهذه المعلومات الوافية عن الخلاوي في منطقة أم سيالا، بشرق دار حامد، جزاهما الله عني خير الجزاء.

(28) مجمع مصابيح الهدى

خرجت فزارة ضمن الحلف الهلالي الكبير، الذي كان يضم جهينة وفزارة ومجموعات أخرى، من الجزيرة العربية، متجهين صوب الشمال الأفريقي. استقرت تلك المجموعات، لبعض الوقت، في صعيد مصر، وكونت ثروة طائلة من الإبل والخيل، ولكن ضاقت بهم السلطات الفاطمية، التي كانت تحكم مصر آنذاك، فما كان منها إلا أن أغرتهم بتأديب البربر في شمال إفريقيا، فقاموا بالمهمة على أكمل وجه. ومرة أخرى تكونت لديهم ثروات هائلة وتزايدت أعدادهم؛ خاصة في تونس الخضراء، مما أزعج السلطات، فأجبرتهم على الرحيل صوب الجنوب، عبر الصحراء الكبرى، فتوغلوا في غرب إفريقيا حتى حوض نهر النيجر، ولكن لأن طبيعة المنطقة لا تلائم الإنسان العربي؛ تحركت فزارة وحلفاؤها نحو الشرق مروراً بشمال تشاد حتى دخلوا حدود السودان الغربي. بعد ذلك بدأت فزارة تنقسم إلى عدة أقسام تحت مسميات جديدة، واتخذت حرف جديدة، وتكاثرت أعدادهم واختلطوا مع السكانين المحليين بدرجات متفاوتة. عموماً، من ضمن مجموعة فزارة تكونت دار حامد باسمها الجديد، نسبة لجدهم حامد بن نعيم، وصارت لها فروع شتى من ضمنهم المرامرة.

في بادئ الأمر، استقرت دار حامد في دارفور، إلى الغرب من جبل مرة. ويذكر أن حامد، زعيم القبيلة وجدها الأكبر، قد ضرب أطنابه في منطقة أُم دُخن، وشارك في تكوين مملكة الكارة عبر التزاوج، وبعدما بلغت مملكة الفور أوج مجدها، ساد اعتقاد لدى سلاطين الفور بإن وجود دار حامد يشكل خطراً على مملكتهم. وحدثت بعض المواجهات بين الطرفين، وعلى إثرها حبس زعيم دار حامد محمد مريمر، أو مرمار الملقب بكريالو «جد المرامرة، أحد فروع دار حامد» أو أنه قد وضع في الإقامة الجبرية؛ لكي تسهل مراقبة تحركاته. وحتى لا تتعرض القبيلة لبطش السلطان، أشار كريالو على أهله بالرحيل، وأسند الإمارة للشيخ عبد الحميد، من أحفاد حمد، شقيق حامد، وهو جد أولاد أقوي. ومن ثم بدأت رحلة دار حامد نحو الشرق، حتى وصلت إلى ديارها الحالية في منطقة الخيران، أو ما يعرف الآن بمحلية أو محافظة بارا الكبرى، في ولاية شمال كردفان.

بعد وصولهم إلى مستقرهم الجديد، توجه الشيخ عبد الحميد، على رأس وفد كبير من أعيان القبيلة، محملاً بالهدايا القيمة، إلى عاصمة سلطنة الفونج في سنار وأعرب عن تحالفه مع السلطنة، وممثليها في كردفان آنذاك؛ وهم قبيلة الغديات، في المنطقة الواقعة إلى الجنوب الشرقي من مدينة الأبيض، من أجل الحصول على الحماية لقبيلته من الهجمات المحتملة لسلطنة الفور.

وجدت دار حامد في منطقة الخيران أرضاً صالحة للسكنى من عدة نواحي؛ فهواؤها عليل، وماؤها نمير، ومساحتها شاسعة، وأرضها تصلح للزراعة والرعي؛ فازدهرت القرى وتوافد على المنطقة علماء ومشايخ من داخل السودان وخارجه، وبدأت تنتشر بعض المراكز الدينية؛ خاصة في المنطقة

الوسطى والشرقية من دار حامد، وبدأ بعض رواد التعليم الديني وبعض المستنيرين، إن جاز التعبير، يرسلون أولادهم إلى خلاوي الجزيرة وسنار لحفظ القرآن وتلقي العلم الشرعي، فتوجه بعضهم إلى أم قرقور، حيث كانت توجد خلوة الشيخ عبد الباقي النيل، وتوجه البعض الآخر إلى خلاوي العكريين في أبي حراز. ومن الذين حفظوا القرآن لدى مشايخ العركيين الشيخ عبد الحميد ود دود من المرامرة، وهو تحديداً من قرية سراج حيث أسس خلوته. وعلى ضوء تقابة الشيخ عبد الحميد، حفظ القرآن الكريم رجال كانت لهم الريادة في نشر القرآن والتعليم الديني في منطقة المرامرة؛ خاصة القرى القريبة من سراج.

ولد الشيخ عبد الحميد ود دود، بقرية سراج عام 1750، وتوفي ودفن بها عام 1830. وفي عام 1803 قام برحلة الحج إلى بيت الله الحرام في مكة المكرمة، ثم زار المدينة المنورة ومن بعدها توجه إلى بيت المقدس في فلسطين، وأقام في مدينة نابلس لمدة ست سنوات، تعلم خلالها الفقه والعلوم الإسلامية الأخرى، وقد رافقه في تلك الرحلة، الشيخ مضوي لبن، والد الحاج اللين، وعاد بعدها وأسس خلوته في قرية سراج عام 1821.

وكان الشيخ عبد الحميد، رحمه الله وأحسن إليه، قد حفظ القرآن الكريم في خلاوي العركيين بأبي حراز، وسلك الطريق القادري على يد الشيخ كباشي تور بقل، في قرية حفيرة، التي تسمى الآن بالربوة، وهي تقع في ديار الشويحات، إلى الشمال الغربي من مدينة الأبيض.

تولى الخلافة، بعد وفاة الشيخ عبد الحميد، ابنه الشيخ علي ود عبد الحميد، الذي حفظ القرآن في مسيد ود نعمان، بالجزيرة. وقد عاش الخليفة علي ما بين عامي 1790 و1850. ظل الخليفة علي يباشر تحفيظ القرآن في الخلوة بنفسه حتى وافته المنية، عليه الرحمة. وقد خلفه ابنه عبد الحميد ود علي من عام 1850 حتى 1880 وسار بالخلوة على نجه سلفه. وعندما ظهر الإمام محمد أحمد المهدي في عام 1881، انضمت إليه كل أسرة الشيخ عبد الحميد، ورحلوا إليه في الجزيرة أبا، ورافقوه طوال رحلته، حتى فتح الخرطوم، واستقرت الأسرة في أم درمان حتى نهاية المهدية.

وقد توقف نشاط الخلوة في سراج ولم يعاد افتتاحها إلا في عام 2001 تحت مسمى مجمع مصابيح الهدى لتعليم القرآن والعلوم الإسلامية. وهو مجمع ضخم يتكون من خلاوي للبنين، وأخرى منفصلة للبنات، تخرجت منها عشرات الحافظات، اللائي تلقين قسطاً وافراً من الفقه وعلوم الحديث. ويشمل المجمع معهداً علمياً، على أحدث طراز من حيث المباني والأثاث، حتى يؤهل طلابه لدخول الجامعة والالتحاق بمؤسسات التعليم الحديث. وحتى لا يفقد الطلاب الذين التحقوا بالخلاوي فرصتهم في الالتحاق بالتعليم المدرسي النظامي، تمّ تأسيس «مدارس تاج القرءان» التي تقوم بتدريس منهج مرحلة الأساس للحفظة في سنتين فقط، وهذه تجربة غير مسبوقة في هذا المجال، حيث يدرس الطلاب كل مقررات العلوم الطبيعية والرياضيات واللغة الإنجليزية والأدب والتاريخ والجغرافيا

ومن ثم يمكنهم الالتحاق بالمرحلة الثانوية، وتصبح الفرص متاحة أمامهم لدخول الجامعات والكليات بمتخلف أنواعها.

ويوجد بالمجمع مستشفى مجهز تماماً وثلاث استراحات لاستقبال الضيوف، ومكتبة ذاخرة بنفائس الكتب وأمهاتها، وقاعة اجتماعات رحبة ومؤثثة، ومسجد مزود بأحدث الأجهزة الصوتية، وأفران وبرادات مياه. هذه الصروح والمنشآت تمّ إمدادها بكل الخدمات، مثل شبكة المياه وشبكة كهرباء محلية على مدار الساعة، وبها حمّامات صحية أفضل من الموجودة بكثير من الأماكن والمرافق العامة، وما زالت هناك خطط طموحة للمستقبل. وعلاوة على السكن والإعاشة، يقدم المجمع التأمين الطبي للدارسين.

وأصبحت سراج الآن تستقبل طلاب من جميع أنحاء السودان، بل هناك تلاميذ من تشاد وغرب أفريقيا. كل هذه المؤسسات مشيدة ومسورة بالمواد الثابتة وتم تطويقها بأشجار من كل جوانبها. ويقوم بالإشراف على هذه الأعمال الشيخ عبد الحميد بنفسه، يعاونه فريق من الخيرين على رأسهم الأستاذ علي القِريش، رحمه الله وغفر له، والشيخ عبد الله قسم الله، وهو لا يزال يتابع عمل المجمع الشامخ.

أعيد افتتاح الخلوة في عام 2001، على يد الشيخ المربي، والرجل المثقف، الداعية إلى الله على بصيرة وعلم، الأنصاري المخلص والقادري طريقة، الشيخ الأستاذ عبد الحميد بشير عبد الحميد عبد المجيد، حفيد الشيخ المؤسس عبد الحميد ود ودود. وقد حفظ الشيخ عبد الحميد القرآن الكريم في خلاوي الشيخ ود أبو صالح في منطقة شرق النيل، ثم التحق بالتعليم النظامي وتخرج في ذلكم الطود الشامخ مدرسة خور طقت الفيحاء، ودرس بالجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة في المملكة العربية السعودية، ونال درجة الليسانس في عام 1984م. وبعد تخرجه من الجامعة عمل الشيخ عبد الحميد في إدارة الأوقاف ومن بعدها في وزارة التربية والتعليم بدولة الإمارات العربية المتحدة. وبعد ذلك عاد إلى قريته وموطن عشيرته سراج؛ ليقود هذا الجهد القاصد إلى الله في مشروع هو الأضخم من نوعه في هذه المنطقة، إن لك يكن على نطاق السودان، ذلكم هو مجمع مصابيح الهدى الذي يدرس به الآن ما يزيد عن 1500 طالباً وطالبة، من مختلف أنحاء السودان ومن دول الجوار الإفريقي. هذا المجمع الرائد هو الوحيد الذي يتيح مجال التعليم الديني المنهجي للفتيات، حيث يدرس جميع الطلاب القرآن الكريم والفقه والسيرة النبوية، واللغة العربية وكافة العلوم الشرعية الأخرى.

يعمل بهذه الخلوة عشرون من المشايخ والشيخات، وجميعهم على درجة عالية من التأهيل وأصحاب خبرة طويلة في مجالهم، وهذا ما يساعد الطلاب على التفوق وسرعة حفظ القرآن، حتى أن نفراً من طلاب المجمع قد فاز بعدد من الجوائز والمسابقات المحلية والعالمية. كما أن الخلوة قد حققت المركز الأول على مستوى السودان، في عام 2018، من حيث جودة الحفظ والنظام والترتيب.

هنالك الآن عدد من الخلاوي في المنطقة يتولى التدريس فيها والإشراف عليها مشايخ من الذين حفظوا

القرآن وتخرجوا في مجمع مصابيح الهدى، منها على سبيل المثال خلوة الصباحية التي تعمل بها الشيخة سمية محمد جبرنا، من الجوامعة. وهنالك أيضاً خلوة في معافا، في دار المرامرة، يعمل بها الشيخ بهاء الدين يس، وتساعده الشيخة مودة حمدان مصطفى في تدريس البنات، وكلاهما من خريجي المجمع. وفي دارفور تنتشر خلاوي نسائية كثيرة، وتعمل بها خريجات من مجمع مصابيح الهدى.

من جانب آخر، هنالك فرع لخلوة الشيخ عبد الحميد ود ودود في قرية العبيداب، الواقعة إلى الشمال من قرية ود عشانا، حيث ولد الشيخ عبد الحميد بشير. تقوم بالتدريس في تلك الخلوة الشيخة زينب بشير عبد الحميد، وهي من خريجات مجمع مصابيح الهدى بسراج. هذه الخلوة ظلت قائمة منذ العام 1965، وقد أسسها الشيخ الشريف الدرديري ومن بعده الشيخ التوم ود البر، حتى تولى أمرها الشيخ بشير عبد الحميد ود عبد المجيد، والخليفة الآن في تلك المنطقة هو الشيخ عبيد بشير عبد الحميد.

بالإضافة إلى أنشطة المجمع المذكورة، فهو يقوم بإرسال قوافل دعوية وتوعوية إلى القرى المجاورة، كما يقوم شيوخ المجمع بالإصلاح بين الناس في حالات النزاع والمشاكل الأسرية، والخلافات القبلية ومثال على ذلك دورهم في تسوية المشكلة التي كانت قائمة بين أهالي قريتي روراوة وميدفينة، وغيرها من مجالس الصلح في داخل المنطقة وخارجها. وقد دأب المجمع أيضاً على تمويل وترتيب وعقد زيجات للشباب والشابات بلغ عددها ما يزيد عن ألف زيجة، وهذا فضلاً عن حفر الآبار لتوفير مياه الشرب في كثير من القرى. وعلى الرغم من أن المجمع يتلقى إعانات من رجال البر والإحسان والخيرين والمريدين، إلا أن العبء الأكبر يقع على كاهل القائمين عليه، نسأل الله أن يخلف عليهم بالبركة في المال والذرية. عموماً يخطط المجمع للتوسع مستقبلاً وفتح فروع أخرى حسبما تقتضي الضرورة؛ حتى يستوعب مزيداً من الطلاب والطالبات، واضعين في الاعتبار الإقبال الكبير من الناس على إرسال فلذات أكبادهم من الجنسين، ذكراناً وإناثاً، لحفظ القرآن وتلقي العلم بكل فروعه في هذا المجمع الرائد والمتفرد.

في الحقيقة لا أجد من الكلمات ما يكفي للتعبير عن شكري للشيخ عبد الحميد بشير، القائم بأمر المجمع، على ما أفادني به من معلومات.

إن منطقة المرامرة، في واقع الأمر تنتشر بها خلاوي كثيرة، يعمل بها مشايخ بعضهم ممن تخرجوا على ضوء تقابة القرآن في خلوة سراج، ومنهم من حفظ القرآن الكريم في مناطق أخرى، فعاد وأسس خلاوي عامرة أفاد منها أناس كثر، في المنطقة وما جاروها. وفي بحثي عن المعلومات بهدف إكمال الصورة اتصلت على الزميل الأستاذ عبد الله محمد سعد، وهو من أعيان قرية السليكات، وما هي عن سراج ببعيدة، وأفادني بمعلومات موثوقة عن الخلاوي في تلك المنطقة.

أولاً، هنالك خلوة الفكي محمد علي ناجي، في قرية السليكات أم بحر، وقد أسس تلك الخلوة في عام 1920. وقد كان له أشقاء يساعدونه في شأن الخلوة؛ هم الفكي حامد وبابكر وعمر وعبد الرحمن

وجميعهم من حفظة كتاب الله. وله من الأولاد يعقوب وأحمد وإسماعيل وإبراهيم وهم أيضاً من الحفظة المجودين، وقد تلقوا القرآن في خلوة والدهم، وهم من الأنصار الملتزمين.
هذه الأسرة المباركة تنتمي في الأصل إلى الفكي الكنين ود بريمة، الذي كان يكتب المصاحف بخط يده، وعلى يده حفظ القرآن الشيخ محمد عليْ ناجي. عارض الشيخ محمد علي الإنجليز عندما حاولوا فتح مدرسة في المنطقة عام 1945، خوفاً على مسيرة التعليم الديني، الذي شمل حتى البنات في ذلك الوقت المبكر، فحفظت بناته بعضاً من سور القرآن تعلمن مبادئ الطهارة وأتقن فروض الصلاة وشروط صحتها، فضلاً عن راتب الإمام المهدي، فكن قدوة لنساء المنطقة، وذلك الفضل من الله.
هذه الخوة لا توال تواصل دورها الطليعي في تلك المنطقة ويشرف عليها الآن الشيخ مهدي إسماعيل، بينما تقوم بنته مقبولة بتحفيظ القرآن للفتيات في القرية. ولا تزال هذه الخلوة قائمة في نفس الموقع الذي أسست فيه على يد الفكي محمد علي. ومن الذين حفظوا القرآن وتخرجوا في هذه الخلوة الفكي مختار متعني وعبد الرحمن متعني، من المرامرة، والفكي أبو البشر مختار متعني، وله خلوة في قرية معافا أم شجرة، وهو من يؤم الناس في الصلاة. أما بابكر محمد علي ناجر فقد غادر قرية السليكات في عام 1935 واستقر في دار حمر وتزوج هناك من أسرة الشرتاي فضيلي خمسين، وأسس خلوة في تلك المنطقة ولا يزال عقبه في دار حمر وهم يسيرون على ذات الدرب.
وفي قرية معافا السليكات، توجد خلوة الفكي عبد الله عبد القادر عبد الله، وهو أيضاً من تلاميذ الشيخ الكنين بريمة، وقد أسس خلوته منذ ثلاثينات القرن الماضي، وهي لا تزال مستمرة وقائمة ويقوم بشأنها الفكي بهاء الدين يس وهو من خريجي مجمع مصابيح الهدى بقرية سراج. أما خلوة الشقلة الخضراء فقد أسسها الفكي عمر محمد عليْ ناجي، وكان يتولى تحفيظ القرآن بنفسه، وهو أيضاً من تلاميذ الشيخ الكنين بريمة. يتولى شأن الخلوة الآن أبناء الفكي علي جاد المولى أحمد أبو حليمة وهو من الذين حفظوا القرآن على يد الشيخ أحمد محمد صالح في الجزيرة. وشيخ الخلوة في الوقت الراهن هو أسامة علي جاد المولى، أحد خريجي مجمع مصابيح الهدى.
هنالك خلوة الفكي علي ود شمبول، التي تأسست في السليكات، في خمسينات القرن الماضي، ولكنها اضمحلت. ولقد عمل بالتحفيظ في تلك الخلوة الفكي فضل المولى ود البرّز، من البراقنة، عيال طه. ومن خريجي تلك الخلوة المرحوم الفكي المرحوم أحمد بريمة نور الدين، والحبيب محمد أحمد، ومحمد أحمد محمد علي، وصلاح الدين محمد عبد الرسول. وكل هؤلاء الرجال هم من المشهود لهم بأعمال الخير والسعي بالإصلاح بين الناس وإكرام الضيف وتقديم النصح والإرشاد لعامة الناس وخاصتهم في تلك الديار.
في المنطقة الواقعة إلى الشرق من قرية أم قرفة، توجد واحدة من أعرق الخلاوي، التي ظلت تنشر الوعي وتبصّر الناس بأمور دينهم، وتحفّظ التلاميذ كتاب الله وتعلمهم الفقه، ألا وهي خلوة الغبشان.

هذه الخلوة أسسها الفكي محمود ود سليمان عبد الله محمد الأغبش الذي حفظ القران عند الشيخ حمد النيل بطيبة الشيخ عبد الباقي (الجزيرة) وأخذ الطريقة القادرية على صديقه وزميله في الدراسة الشيخ محمد زين ود الشيخ الريح. كان الشيخ محمود إمام المسجد بالمنطقة وإمام صلاة العيد، حيث يجتمع عدد من أهالي قرى (أم سربة الشرقية والغربية، ود قرنفل، بهيل، الحمرة، السليكات) ويؤدون صلاة العيد، ومن ثم يجتمع الناس هناك في صورة يعلوها البهاء والمحبة وطيبة النفوس ويتناولون «كرامة العيد» وتدق النوبة والطار ويؤدي التلاميذ المديح النبوي والإنشاد. لقد تأسست تلك الخلوة في وقت كان فيه المجتمع بعيداً عن معرفة أو أداء الشعائر الدينية، فشرع الشيخ في تعليمهم الصلاة والواجبات الدينية، حتى أنصلح حالهم، كما كان للشيخ محمود دور وإسهام مقدر في الاصلاح الاجتماعي والاصلاح بين المتخاصمين، ويذكر أنه قام بدفع دية رجل من «اتجاه المجرور» قد حكم عليه بالإعدام ثم خفف عنه بالدية فتولى الفكي محمود دفع الدية من ماله الخاص.
عند وفاة الفكي محمود، كان ابنه سليمان يبلغ من العمر 11 عاماً، ولكن بحفظ من الله وتوفيق منه، حفظ القرآن علي يد الشيخ أحمد أبو نائب بالكريمت العركيين، في الجزيرة، في سن مبكرة، ثم درس علوم الفقه على الفكي حمد بالكريمت ودرس كتب الفقه (العزية، الدرر البهية، ابن عاشر والعشماوي). وسلك الطريقة على يد الشيخ عبد الباقي الشيخ حمد النيل. نسخ الفكي سليمان القرآن بيده، مستخدماً الدواية والزعفران بلونه الأحمر للتشكيل وعلامات الوقف ومازال موجوداً مصحفه طرف خليفته. كان الفكي سليمان ود محمود مفتي المنطقة وشيخ الحلة ولمأذون كما كان خبيراً بالأنساب وقد توفي على رحمة الله في عام 1974. خلف الفكي يوسف والده الفكي سليمان ود محمود، وقد كان قبلها يؤم الناس بقرية ود قرنفل. وحفظ الفكي يوسف القرآن بالكريمت العركيين على يد الفكي ود أحمد دفع الله بمسيد الشيخ دفع الله، ودرس الفقه على الشيخ عبد النور بأبي عشر والشيخ محمد أحمد ود دفع الله بالكريمت وكذلك درس كتاب الصفتي. وسلك الطريقة القادرية سنة1968 على يد الشيخ أبو عاقلة الشيخ احمد الريح الشيخ عبد الباقي، المعروف بأزرق طيبة. عمل بتدريس القرآن وعلوم الفقه في شكل حلقات عقب الصلوات بقريتي ود قرنفل والغبشان. وهو أول من أقام صلاة الجمعة بالمنطقة، وبنى المسجد بالطوب الاخضر(اللبن) بدلاً من القش والمرخ. كما أسس مدرسة الغبشان الابتدائية المختلطة عام 1974 لتستفيد منها كل القرى المجاورة، وله دور في الاصلاحات الاجتماعية وكان مأذون المنطقة، وكان يعالج الناس بالقرآن والرقية الشرعية. وبعد أن تقدم به العمر وتعددت عليه الأمراض نقل الخلافة لابنه الشيخ ضو البيت الذي حفظ القران بالكريمت العركيين على يد الشيخ محمد أحمد الفكي وارتحل الى أم مرحي لكي يجود الحفظ على يد الشيخ يوسف. وتلقى العلوم بقرية السديرة على الشيخ جار النبي الحضري وأخذ عليه الإجازة. كما تلقى دورات في اللغة العربية. أعاد الشيخ ضو البيت تأسيس خلوة الغبشان وحفظ القرآن على يده عدد من الطلاب وهو يقدم

دروس للطلاب والمصليين في الفقه والعقيدة والسيرة والسلوك وهو أيضاً رئيس الجمعية التنويرية التي أسسها مع مجموعة من المشايخ الشباب؛ لتقوم بتنوير المجتمعات وتعريفهم بدينهم وربطهم به، بحيث تقام دورة دعوية كل شهر في قرية ليوم جمعة كامل، تقدم فيها محاضرات في الفقه والعقيدة والدعوة والسيرة. ويشترك فيها مشايخ من عدة قرى. ويهتم الشيخ ضو البيت بالاحتفال بالمولد النبوي سنوياً حيث يتداعى له عدد كبير من المحبين وتقدم دروس ومحاضرات ويقرأ المولد النبوي وتؤدى المدائح. والشيخ ضو البيت لديه مكتبة عامرة بأمهات الكتب في الفقه واللغة العربية والفكر الإسلامي عموماً، وكان له دور كبير في تأسيس مدرسة الغبشان الابتدائية.

بالإضافة إلى خلوة الغبشان توجد في هذه المنطقة خلاوي عريقة منها خلوة ومسيد الشيخ دفع ود أبو ريدة، وخلوة الشيخ الوسيلة وقد ظلتا تقومان بجهد كبير في مجال تحفيظ القرآن

أتقدم للأخوين الدكتور دريا محمد علي والشيخ الطريفي يوسف بالشكر على هذه المعلومات القيمة.

أما في نزيهة، بالقرب من أم قرفة، فتوجد خلوة أولاد الشيخ عجب الدور، التي أسسها الشيخ إبراهيم بن عجب الدور بن سالم بن محمد. فقد حفظ الشيخ إبراهيم القرآن في مسيد الشيخ عبد الباقي ود الشيخ حمد النيل العركي، فأمره أن يذهب إلى منطقته، في شرق دار حامد، وذلك عقب سقوط المهدية، التي كان الشيخ إبراهيم بن عجب الدور أحد قادتها وعلمائها البارزين، ومن الرجال المرقبين للإمام المهدي، وأحد المسؤولين عن بيت المال؛ خاصة فيما يتعلق بالأنعام من إبل وأغنام وماشية، مما يجبى لبيت المال.

بعدما توفي الإمام المهدي وآلت أمور الدولة إلى الخليفة عبد الله التعايشي، وأختلف مع العلماء الذين كانوا حول المهدي، فقتل من قتل وسجن من سجن، ومن بين هؤلاء الشيخ إبراهيم بن عجب الدور. وبعد خروجه من السجن اتجه الشيخ إبراهيم إلى طيبة الشيخ عبد الباقي، فأمره بالعدوة إلى قريته حيث أسس مسيده الذي لا يزال قائماً. ومن أفراد هذه الأسرة المباركة، أحد أشقاء الشيخ إبراهيم، وهو الشيخ عثمان بن عجب الدور الذي كان يضرب به المثل في حفظ القرآن وتجويديه وتلاوته. ويتولى شأن الخلوة الآن الأستاذ أبو القاسم إبراهيم عثمان عجب الدور، زاده الله من فضله ووفقه في هذا العمل المخلص.

إن من المؤسف حقاً ألا تذكر كتب التاريخ في السودان اسم شخص مثل الشيخ إبراهيم بن عجب الدور على الرغم من دوره المتميز ومساهمته الكبيرة في إدارة الدولة في أيام الثورة المهدية، ولكن ربما كان ذلك خيراً له؛ إذ ارتبط اسمه، رحمه الله وغفر له، بالقرآن الكريم وتعليم الناس أمور دينهم وعقيدتهم.

أتقدم بالشكر للمهندس صالح موسى عبد الله على هذا المعلومات عن هذه الرجل القامة وهذه الخلوة.

(29) خلوة الشبواب

كانت دار الريح وما زالت محط الرحال لكثير من المجموعات السكانية التي قدمت إليها، عبر فترات متباعدة، فطاب لها المقام ولم تعد تعرف لها موطناً تنتسب إليه غير هذه الديار من شمال كردفان؛ فصارت جزءاً من النسيج الاجتماعي، وساهمت بدرجات متفاوتة في تعزيزه وتماسكه، فضلاً عن مشاركتها في تكوين ثقافة محلية قائمة على التعايش السلمي والتمازج وتبادل المصالح والتواصل الثقافي في شتى المجالات. فقد قدمت من الشمال مجموعات متميزة، تحمل معها مكوناً اقتصادياً جديداً لم يكن معروفاً لدى من سبقهم لسكنى دار الريح؛ وأعني بذلك تحديداً الزراعة المروية في الخيران أو السواقي، حيث جلبوا معهم الشادوف والساقية، وأدخلوا في المنطقة زراعة الخضروات والفواكه، فساعد ذلك على الاستقرار بقدر كبير؛ إذ ترك بعض أهل الدار حياة البداوة وأنشأوا القرى حول الواحات التي تمتد من قرية أسحف جنوباً، مروراً ببارا والطويل والبشيري، وأبو قايدة والحمرة والرغاي، وأبو دلم ثم الخيران الشمالية، في إدارية دميرة الآن، ويمتد هذا الشريط حتى الفيلية بالقرب من مدينة كجمر.

هؤلاء الناس كان لهم أيضاً الفضل في إنعاش التجارة وما ارتبط بها من تعظيم الاستفادة من كثير من منتجات المنطقة وخياراتها مثل الثروة الحيوانية والسمسم والذرة والثروة الحيوانية والمنتجات التي ترتبط بها مثل السمن، علاوة على الصمغ العربي الذي صار انتاجه حرفة لكثير من الناس في دار الريح. بيد أن الأثر الأكبر لهذه المجموعات يتمثل في البعد الثقافي، فكثير من القادمين الأوائل من أمثال والد الشيخ إسماعيل الولي البديري، وهو أحد الأوائل الذين هاجروا من منطقة دنقلا إلى الأبيض، ومنهم أيضاً الشيخ عربي مكاوي، والشيخ بدوي ود أبو صفية، والخليفة محمد سوار الدهب. ومنهم أيضاً أسرة السادة الدواليب الذين استقر بهم المقام في خرسي، بالقرب من بارا، فحولوها إلى واحد من أكبر وأهم المراكز الدينية في السودان قاطبة، كما كان لهم دور بارز في إدارة شمال كردفان. وكل هؤلاء الرجال العظماء هم من أوائل الذين أوقدوا نار القرآن في دار الريح ونشروا الوعي والعلم الشرعي ودرسوا الناس الفقه والسيرة وكل العلوم الإسلامية الأخرى، كما أدخلوا التصوف لاحقاً.

عموماً هؤلاء الناس، بما لهم من سابق إلمام بالمدنية والتحضر، بحكم قربهم من مراكز التنوير الثقافي، والأماكن الحضرية الأخرى، في مصر والحجاز، وربما بغداد، هم من وضع اللبنات الأولى للعلم الشرعي، والاستقرار في دار الريح بلا أدنى شك. فقد أسهموا في نشأة المدن مثل الأبيض وأسحف وبارا وكجمر، والقرى الكبيرة مثل أم قرفة والبشيري والطويل، وغيرها من مناطق صارت هي نفسها أسواق ومراكز ثقافية كبيرة يرتادها الناس من أجل الحصول على ما يحتاجون من بضائع،

ولبيع ما لديهم من سلع، وللحصول على الفتوى وفي بعض الأحيان من أجل التبرك، مثلما هو الحال في خرسي منذ أيام الشيخ إدريس الأحمر وود دوليب. وحول هذه القرى والخيران ظهرت موارد المياه مثل البشيري، والعاديك فكان ذلك عاملاً إضافياً لتواصل مكونات المجتمع وتقوية الأواصر بينها وفقاً لنظم ملزمة تحكم تصرفات الناس وتضبط أصول التعامل بينهم دون تعدي على الحقوق.
هذه المنطقة كانت في السابق تخضع لسلطان الفور في أغلب الأوقات، وفيما بعد صار سلطان المسبعات هو المسيطر عليها لفترة محدودة، وينازعه الفونج في أحيان كثيرة؛ ولذلك كان من الضروري الترتيب الإداري مع أصحاب السلطان، وفقاً للأنظمة المتبعة لدى تلك الجهات، تفادياً للنزاعات حول ملكية الأرض. وقد كانت الخيران الواقعة غرب بارا، خاصة حول أسحف والطويل، مناطق دمر لبعض قبائل المسيرية الحمر في فترة الصيف؛ نظراً لوفرة المياه والكلأ؛ وهذا ما جعل عيال شبو، بعد وصولهم إلى تلك المناطق، يلجؤون إلى السلطان في الفاشر فكتب لهم صك تملك حتى لا يعترض عليهم أحد، فعمروا الأرض وحولوها إلى مزارع، أو كما يقال محلياً سواقي، مخضرة ومنتجة طوال العام.
وتجدر الإشارة إلى أن الشبواب ينتسبون أصلاً إلى الركابية؛ فهم من أحفاد الشيخ ركاب بن غلام الله الذي أنجب خمسة أبناء هم عبد الله وعبد النبي ثم حبيب وعجيب، وزيد الفريد جد السادة الشبواب. ويطلق عليهم اسم الشبواب الركابية نسبة إلى جدهم سليمان بن محمد شبو، أحد أحفاد الشريف غلام الله بن عائد، دفين أرقي الواقعة شرق الدبة، في دار البديرية بالمديرية الشمالية.
وحسب ما تقول الروايات الشفوية الموثوقة بأن الشبواب قرروا الهجرة من أرقي في المديرية الشمالية إلى كردفان؛ لأن والدهم أوقف ساقيته للمسيد حتى تكون مصدر داخل دائم للوفاء بمنصرفات المسي؛ وحتى يحمي ذلك الوقف من الورثة، طلب من أبنائه الثلاثة وهم عيسى ومصطفى ومحمد الهجرة إلى كردفان، فما كان منهم إلا النزول عند رغبة والدهم، وبالفعل شدوا رحالهم متوجهين صوب تلك الديار الجديدة، ولكن تخلف منهم محمد في بربر. واصل الأشقاء رحلتهم في معية والدتهم وعوائلهم حتى وصلوا حلفاية الملوك، حيث أقاموا بها لفترة وجيزة من أجل الراحة والاستجمام، ومواصلة بعض الأرحام مع أهلهم الركابية الذين كانوا يقيمون هناك، ثم استأنفوا رحلتهم باتجاه الغرب حتى وصولوا إلى قرية أم قرفة، شرق دار حامد، حيث يوجد أبناء عمومتهم التامراب (يعرفون بالدناقلة) في تلك المنطقة. وبعد الإقامة في أم قرفة لبعض الوقت، حيث ساهموا في تعميرها، عبر التجارة والزراعة في السواقي، في منطقة الفيلية وكجمر، وهي تتبع لسلسلة الخيران حسبما ورد في مؤلف السير ماكمايكل، عن الخيران، "ترجمه إلى العربية الأستاذ محمد التجاني عمر قش" واصل الشبواب السير حتى استقروا في موطنهم الحالي بالطويل التي كانت قبلاً مورداً ودمراً لبعض قبائل المسيرية الحمر، وهم من البقارة الرحل. وكما ورد أعلاه لجأ الشبواب إلى سلطان الفور الذي وهبهم تلك

الأرض بموجب صك ملكية، لمعرفته السابقة عنهم بأنهم من أهل العلم الشرعي والصلاح، ولوجود بعض معاونيه الإداريين من الذين قدموا إلى الفاشر من الشمال.
وثمة رواية أخرى تقول: في مطلع القرن الثامن عشر الميلادي (1722م) هاجر اثنان من أبناء سليمان ود شبو هما عيسى ومصطفي من المديرية الشمالية إلى شمال كردفان لغرض المساهمة في نشر الإسلام واستقرا في قرية الطويل التي تقع غرب بارا على بُعد 15 كلم وشمال الأبيض على مسافة 70 كلم. استقر الشبواب في منطقة الطويل وعمروها بالزراعة ومن ثم شرعوا في تأسيس الخلوة ليستأنفوا تحفيظ القرآن ونشر العلم الشرعي. وحسب الروايات المتداولة فقد تأسست خلوة الشبواب في مطلع القرن التاسع عشر أو قبل نهاية القرن الثامن عشر بقليل، إبان عهد المقدوم مسلم الذي كان يحكم منطقة بارا نيابة عن سلطان دارفور. تولى تأسيس الخلوة الفكي مصطفى بن سليمان بن محمد ود شبو، وسار بها سيراً حسناً حتى وفاته، رحمه الله. وخلفه الفكي سليمان بن الأمين بن عيسى بن سليمان بن محمد شبو. وقد حفظ القرآن في هذه الخلوة ما يزيد عن ألف شخص، صار بعضهم من المشاهير والمشايخ الكبار، منهم على سبيل المثال لا الحصر مركز الدين، والد الشيخ المبارك في الشوق، وهو من دار حامد النواهية، ومنهم الرجل العالم البارز الفكي عيسى ود الناير ود منعم، من دار حامد، فرع الفراحنة، وغيرهم من أبناء المنطقة؛ خاصة أبناء الشبواب الذين مثلوا فيما بعد الطلائع الرائدة لإدخال التعليم النظامي من خلال عملهم في التدريس والسلك الكتابي والوظيفي عموماً. كان الشبواب في أول أمرهم على الطريقة القادرية، ثم سادت الطريقة الختمية، فكان الناس يقرأون المولد العثماني، وفي الوقت الراهن يوجد قلة الأنصار، وبعض التجانية.
بنيت الخلوة في بدايتها من الطين أو اللبن الأخضر والجير، في محل الجامع، إلى الجنوب من حلة الطويل الحالية، بالقرب من تلك الواحة الغنية بالتربة الخصبة، ألا وهي خور الطويل، في أقصى جنوب الخيران، حيث تتوفر فيها المياه العذبة فزرع الأهالي النخيل وأشجار الفواكه المختلفة مثل الليمون والبرتقال والجوافة، وكافة أنواع الخضروات، بحكم أنهم من أصحاب الخبرة في مجال الزراعة منذ أن كانوا في موطنهم الأول في منطقة دنقلا.
توقفت خلوة الشبواب في فترة المهدية؛ خاصة بعدما تعرضت المنطقة "لكتلة" أسحف في بداية المهدية؛ الأمر الذي أدى إلى اضطراب المنطقة وزعزعة السكان بشكل عام. ولم تستأنف الخلوة نشاطها إلا بعد نهاية المهدية، في أثناء الحكم الثنائي الإنجليزي المصري، حيث قدم إلى الخلوة الشيخ العاقب العبادي، من بربر، فتولى التدريس وتحفيظ القرآن في خلوة الطويل وطاب له المقام هناك وتزوج من الشبواب وصار جزءاً منهم ولا يزال له عقب هناك. وعمل بالخلوة من بعد ذلك الفكي الأمين أحد أقرباء الفكي العاقب وصهره. ومن بعد تولى العمل بالخلوة الفكي أحمد التجاني أبو عريف. ثم توقفت الخلوة وتحولت إلى ما يشبه الكتاب، وتدرب الفكي أحمد التجاني على التدريس بها

وفق نظم التعليم الحديث. وعمل بها أيضاً الشيخ أحمد الطالب من قرية الشطيب الواقعة ناحية أم دم حاج أحمد، إلى الشرق من بارا.

وفضلاً عن إسهامهم الكبير في نشر التعليم الديني، وتحفيظ القرآن على وجه الخصوص، جلب هؤلاء النفر الكريم أساليب جديدة للزراعة فأدخلوا الشادوف والسواقي فيما بعد، مما ساهم في تحول كثير من أهل المنطقة للزراعة المروية. كما أدخلوا أنواع جديدة من الملابس والأواني المنزلية وأنواع من المفارش والأسِرّة والأطعمة؛ لأنهم أهل تمدن وثقافة، ونشروا ذلك كله بين أهل المنطقة الذين تزاوجوا معهم واختلطوا بدرجة كبيرة.

وفي مقابر قرية الطويل التي تُسمى (البنية) مدفون أكثر من 140 من حملة القرآن كلهم من أولاد شبو وتلاميذهم. ومن سلالتهم الفكي الأمين ود يوسف بن الخليفة بن الأمين بن عيسى بن سليمان ود شبو، درس وحفظ القرآن في مسيد قرية الطويل على يد الشيخ الفكي سليمان بن الأمين بن عيسى بن سليمان ود شبو. وقد كان هنالك تواصل وعلاقة ود بين (أولاد شبو) وأسرة آل قش في دميرة فطلبوا منهم أن يرسلوا لهم أحد أبنائهم ليصبح كاتباً للمحكمة في دميرة، فوقع الاختيار على الفكي الأمين. فبعد أن حفظ الفكي الأمين القرآن في مسيد أعمامه في قرية الطويل، تعلم الخط العربي حتى برع فيه وبعدها التحق بالعمل الكتابي في المحاكم فعمل مع عمنا الشيخ عبده عمر قش ناظر محكمة دميرة ومن بعدها مع الوالد حتى توفاهم الله جميعاً عليهم الرحمة. كان الفكي الأمين سريع البديهة وقوي الذاكرة وحافظاً لأنساب أهل المنطقة كبارهم وصغارهم ويحفظ السوابق القضائية بطريقة ملفتة للنظر. عاش الفكي الأمين عابداً ذاكراً حافظاً لحدود الله، عفيفاً نزيهاً مستور الحال حتى أنتقل إلى الرفيق الأعلى، رحمه الله رحمة واسعة وجعل البركة في ذريته، وسيظل أهلنا في دميرة يذكرونه بالخير؛ فقد عاش بين ظهرانيهم إماماً وخطيباً لما يقارب خمسين عاماً.

عرف الشبواب بالصلاح وحسن الخلق والتدين وقد احتفظوا بصلات وعلاقات طيبة مع جيرانهم من دار حامد الذين تصاهروا معهم ووجدوا منهم كل تقدير واحترام وكانوا بمثابة المرجعية الدينية لهم، وأصبح خور الطويل منارة للقرآن الكريم ومكان لتبادل المصالح ونشر ثقافة الزراعة وغيرها من الخبرات والمعارف التي جلبها الشبواب وأدخلوها في منطقة دار الريح؛ وخاصة في الخيران.

أشكر الأخ والزميل العزيز الأستاذ محمد القاسم محمد على المعلومات الواردة أعلاه.

(30) الجوابرة

مدينة أسحف هي واحدة من أقدم المناطق الحضرية في دار الريح؛ فقد كانت مركزاً تجارياً نشطاً، كما كانت هي المقر الإداري للحكم التركي في أول عهده. هذه المدينة التاريخية، تتوسط قيزان دار الريح، الواقعة إلى الجنوب الغربي من بارا. وبشكل عام نستطيع القول إن تاريخ أسحف قد ارتبط بمجموعة من الناس؛ هما الجوابرة وبني جرار. ومع أن غالبية السكان في هذه المنطقة هم دار حامد، إلا أنها شهدت كثير من الهجرات من الشمال من أجل الزراعة؛ لأنها منطقة وإنتاج زراعي وحيواني وتجارة؛ فجاءت هجرات الركابية والجوابرة من شمال ووسط السودان. وظلت أسحف عامرة ومستقرة، يأتيها رزقها رغداً حتى بداية عهد المهدية، حيث تعرضت أسحف لنكبة كبيرة، لم تعد تلك المدينة بعدها مثلما كانت من قبل.

لقد استقطبت شمال كردفان، كما أشرت سابقاً، مجموعات كثيرة من الذين قدموا إليها من شمال السودان، واستقروا بها وصاروا ضمن مكونها الاجتماعي ديموغرافياً وثقافياً. ومن تلك المجموعات قبيلة الجوابرة التي قدمت من شمال السودان الي كردفان واستقرت في منطقة بارا والخيران في أسحف والبشيري وأم جربان وغيرها من قرى تلك المنطقة. وبحسب بعض المصادر الموثوقة فإن الجوابرة ينتمون في الأصل إلى جابر بن عبد الله الأنصاري. يقول بروفسور يوسف فضل " وهم مجموعة من سكان منطقة دنقلة، يرجع نسبها البعيد الى جابر بن عبد الله الأنصاري وهم فرع من الانصار، وقد اختلطوا بالدناقلة اختلاطا شديدا. ويقول البروفسور عون الشريف قاسم، رحمه الله، "الجوابرة مجموعة وسط الدناقلة، وأحدهم جابري، ويرجعون بأصلهم الى الصحابي جابر بن عبد الله الانصاري وهم فرع من الأنصار".

وصل القادمون الأوائل من الجوابرة إلى شمال كردفان أو بالأحرى إلى دار رياح في حوالي عام 1775، في عهد السلطان محمد الفضل، حيث كانت المنطقة كما نعلم تابعة آنذاك لسلطنة الفور. يقول بروكهارت: "توافدت عائلات الجوابرة مهاجرة إلى مناطق وسط السودان وغربه منذ أزمان بعيدة. وذكرت مصادرهم أنهم هاجروا إلى كردفان منذ بداية القرن الثامن عشر. ثم إن جماعة منهم توجهت إلى الفاشر، عام 1785م؛ لمقابلة السلطان محمد الفضل ليقطعهم أرضاً بمنطقة الخيران غرب بارا. وقد حملوا معهم "جربان" مصنوعة من جلد الغزال مملوءة بالذهب الخالص. وقد استضافهم في داره بالفاشر، الشيخ عيسى ود محمد النور الأنصاري، وهو من الجوابرة، وكان عالماً وقاضياً وربما وزيراً أو أحد المقربين من السلطان وزوجاً لشقيقته، وما زالت سلالته موجودة بالفاشر، وتعرف باسم الخزرجية. وهم ينتسبون إلى جدهم إدريس بن محمد بن عبد الحفيظ المعروف بتوريق الحديد"

ويضيف الأستاذ الأنصاري عبد الله معروف:" لقد كان وصول بعض أفراد وأسر الجوابرة، إلى

كردفان في بداية القرن الثامن عشر الميلادي، وقد كان ذلك في عهد سلطنة الفور التي كانت تحكم شمال كردفان." ولعلك هذا ما يفسر لنا استخدام كلمة "أبا"، بمعنى الكبير، مع أسماء هؤلاء الرجال مثل أبّا عيسى وأبّا مكي، تأثراً بثقافة الفور فيما يتعلق بالألقاب والتسمية. وقد تولى السيد جابر محمد عبد الرازق نظارة الجوابرة في اسحف. وقد كان في أسحف أربعة بطون من الجوابرة هم الشرفاب، والصلاحاب، وأولاد جابر وأولاد عيسى. وكل هؤلاء ينتمون إلى أرومة واحدة من حيث الأصل. أما الشرفاب فقد رحل أحفادهم إلى البشيري، من بعد الكتلة، ومنهم من توجه إلى بارا، مثل آل معروف، ويقيم بعض أولاد صلاح حالياً في الأبيض.

ولعل من الأسباب التي دفعت الجوابرة إلى الهجرة إلى كردفان هي صلاتهم القديمة مع سلطان الفور الذي كانت تتبع له هذه المنطقة؛ فقد كان أحد أجداد الجوابرة، وهو تحديداً الشيخ الطيب ود جابر، مفتي الديار في الفاشر، في عهد السلطان محمد الفضل. ولقد قام وفد من كبار الجوابرة في كردفان بزيارة إلى بلاط السلطان في الفاشر وطلبوا مه أن يمنحهم أرضاً للسكنى والزراعة فأقطعهم هذه المنطقة؛ لتكون مقراً لإقامتهم، وعلى إثر ذلك تكونت نظارة الجوابرة في أسحف، وأول من تولى الناظرة هو الشيخ جابر ود محمد عبد الرازق، وبعد ذلك توافدت على المنطقة أعداد أخرى من الجوابرة لينضموا إلى أبناء عمومتهم في مستقرهم الجديد.

ازدهرت أسحف وصارت لها مكانة مرموقة بين مدن وقرى كردفان، ونشطت بها التجارة، وأخضرت البساتين والسواقي بكل فاكهة من نخيل وزروع مختلف ألوانها وثمارها. صارت أسحف بوتقة انصهار لكثير من الناس الذين تزاوجوا فيما بينهم من الجوابرة وبني جرار والدناقلة والركابية وغيرهم، وتلاقحت الأفكار وانسجم الجميع في مجتمع يتبادل أفراده المصالح والخبرات. وفي اسحف أسس السادة الجوابرة واحدة من أقدم خلاوي القرآن الكريم في دار الريح، وطفقت تلك الخلوة، التي أسسها الشيخ عيسى ود محمد عبد الرازق في عام 1775، تعلم الناس أصول دينهم وتحفظ الصغار القرآن الكريم لردح من الزمان حتى بداية المهدية التي دمرت بعض فلول الأنصار اسحف على حين غرة من أهلها فأحالتها إلى خراب بين عشية وضحاها، ولله الأمر من قبل ومن بعد.

ففي بداية عهده قام محمد أحمد المهدي بجولة في شمال كردفان ومر على كثير من المناطق التي كانت بها مراكز دينية مثل بارا، وحلة الفكي الناير، ووصل إلى اسحف التي كان يقيم بها بعض أبناء عمومته من الخناقية الدناقلة؛ فمن الناس من قبل دعوته ومنهم من أنكر عليه ونصحه بالرجوع عن تلك الأفكار، أما الشيخ محمد ود دوليب فقد سأل الله ألا يجمع بينه وبين المهدي، فتوفاه الله قبل أن يراه! وصل المهدي إلى أسحف وطرح فكرته على الناس، ولم يجد مهم أدنى استجابة. وفي تلك الأثناء كان النور عنقرة هو قائد حامية بارا التي تتبع للإدارة التركية، بينما كانت حامية اسحف تتكون من حوالي مائتي جدني، وصدرت الأوامر من المهدي بمهاجمة تلك الحاميات فتدفق الأعراب

الأنصار بأعداد كبيرة، لم يكن للحامية قبل بها، فانسحبت إلى بارا، بينما ثبت الجوابرة وسكان أسحف عموماً دافعاً عن مينتهم، وأبلوا بلاء حسناً، فاستشهد منهم ما يقارب خمسين رجلاً، معظمهم من حملة كتاب الله، ولكنهم اضطروا إلى إخراج النساء والأطفال من ساحة القتال وتصدى لتلك المهدي الفارس المغوار نقد الله ود عمر الركابي. خرج ذلكم الفارس، خال فاطمة، بالنساء إلى بارا، حتى لا يقعن في الأسر وقام بالمهم على أكمل وجه فألفت الشاعرة كلتوم بت جابر محمد عبد الرازق أغنية خال فاطنه التى قالت فيها:

ســــــــام الــــــــــــــروح ســــبــــلا

وأنــــــا أخـــــــوي اســـــد الـــضـــرى

ســـيـــــد أم رطـــيـــــم مـــــا ضــل

فـــــــارس الألـــــــــف نـــــقـــــد الله

يــــســــلــــمــــلـــي خـــــــال فـــاطـــمـــة

الـــــبـــــــــدرج الـــــعــــــاطــــلـــــة

يـــــا خــــــريــــــــف الـــــرتـــــــوع

يـــــا أب شـــــقـــــة قـــــمـــــر الـــــســـبـــوع

فـــــوق بـــيـــتـــو بـــســـنـــد الـــجـــوع

يـــــا قــــــشــــــاش الـــــدمــــــوع

عـــــاشــــمـــيــــق حــــبـــــل الـــــوجـــــج

أخـــــــوي مــــــقـــــلام الـــــحـــجـــج

كانت تلك الواقعة في يوم 25 مايو1882. بعد ذلك عقد المهدي صلحاً مع الأهالي وانتهت نظارة الجوابرة. ومن ثم تفرق الناس عن أسحف بعد تلك الفاجعة المؤلمة فمنهم من ذهب إلى بارا، ومنهم توجه نحو البشيري، وهاجر بعض الجوابرة مع السيد المكي بن إسماعيل الولي، الذي أيد المهدي، إلى أم درمان وظلوا هناك حتى عام 1903، وتكونت لهم عمودية، تتبع لناظر عموم دار حامد.

ومن الذين قدموا إلى شمال كردفان من الشمالية أهلنا البديرية وعلى رأسهم أجداد الشيخ إسماعيل الولي، مؤسس الطريقة الإسماعيلية، أحد الذين تركوا أثراً كبيراً على الحياة الثقافية والدينية، ليس في شمال كردفان فحسب، بل في كل الإقليم بما في ذلك جبال النوبة، حيث نشر السيد إسماعيل الولي الإسلام حتى دخل في الدين الله آلاف من البشر. أقام الشيخ إسماعيل بالأبيض وأسس مسيده الذي صار منارة للعلم الشرعي وتحفيظ القرآن؛ فأقبل الناس فرادى وجماعات على الشيخ إسماعيل الولي وصار له خلفاء كبار وتلاميذ مخلصون وصلوا على يديه لأرفع المقامات منهم: الخليفة مساعد عيسى محمد عبد الرازق، وهو من الجوابرة.

تزوج الخليفة مساعد من كريمة شيخه إسماعيل الولي، وهي تسمى رابحة، وأنجبت له ثلاثة أبناء هم: أبّا عيسى، وإسماعيل، ومحمد المكي المعروف بأبا مكي. وهاجر هؤلاء مع السيد المكي بن إسماعيل الولي إلى أم درمان في أيام المهدية، أما إسماعيل بن الخليفة مساعد فقد آثر البقاء في أم درمان بعد نهاية المهدية، حيث كان يدرس القرآن في مسجد السيد المكي حتى وفاته، وهو مدفون بمقابر البكري بأم درمان. بينما عاد أخواه أبا عيسى والمكي إلى موطنهم في البشيري والرغاي.
أسس أبّا مكي مسيده في البشيري واشتغل بتحفيظ القرآن حتى حفظ على يده كثير من الناس في تلك المنطقة ومن القرى المجاورة لها مثل الحُمَرَة والشويويفة، وظلت تلك الخلوة قائمة حتى أوائل خمسينات القرن الماضي، وبعد ذلك افتتحت مدرسة البشيري الصغرى ومدرسة خور جادين الأولية وتحول معظم الطلاب إلى التعليم النظامي.
ومن هذه الأسرة الشيخ أبا عيسى ود محمد عبد الرازق وهو من الذين نذروا حياتهم لنشر الدين فقد كان يتنقل بين البشيري وبارا وأم درمان والفاشر وأم بادر وغيرها من المناطق لنشر الإسلام وتعليم الناس أصول دينهم وصحيح العقيدة. عرف الشيخ أبا عيسى بالتقوى والصلاح، وقد تزوج رقية بنت السيد المكي وأنجب منها السيد بكري والد الفريق شرطة إسماعيل السيد بكري، ومن أبنائه أيضاً الشيخ مجّمر أبا عيسى، الذي كان عمدة للجوابرة، وهو شخصية بارزة ولها باع طويل في العمل العام حيث كان عضواً في مجلس الشعب القومي. كما كان خليفة الإسماعيلية بالبشيري، وكانت له جهود مقدرة في مكافحة الجفاف والتصحر، وقد ولد الخليفة مجمر في بارا في عام 1917 وتوفي في عام 1999، رحمه الله رحمة واسعة. ومن هذه الأسرة الكريمة أيضاً السيد الباهي مكي، والسيدة الزهراء والدة المرحوم السيد بكري تاج الأصفاء، خليفة السجادة الإسماعيلية، ومنهم السيد المحبوب بن الخليفة مساعد، وهو جد الشاعر المبدع محمد المكي إبراهيم علي. ومنهم السيدة دهابة بنت محمد عبد الرازق، جدة أبناء مكي ود الأسد، وإسماعيل عمر وأبو جيب. ويقيم معظم أحفاد هؤلاء الآن في البشيري وما حولها من القرى. وهنالك عدد من أسر الجوابرة تقيم في مدينة بارا، منهم آل معروف وقد كتب الأستاذ الأنصاري عبد الله معروف كتابه الموسوم: «الجوابرة والأنصار الخزرج بالسودان» وهو مرجع لا غنى عنه لباحث يريد أن يعرف تاريخ هذه المجموعة المتميزة من الناس. وهذا الكتاب هو محاولة جادة لكتابة تاريخ الجوابرة خاصة في دار الريح والسودان عموماً. ويقيم بعض الجوابرة في الأبيض، ومنهم مجموعة في أم جربان، شرق بارا، وفي مناطق أخرى مثل أم عش التي تقع شمال أم رواية، حيث تعيش أسرة العالم والعابد الشيخ محمد صالح، وهو والد الحرم التي أنجبت الفكي عمر كريدم ود الفكي عيسى ود الناير، وقد كان أحد علماء دار الريح ومشاهيرها وله دور عظيم في نشر العلم الشرعي، فقد درس على جده الشيخ محمد صالح.
أهلنا الجوابرة كغيرهم من الذين قدموا إلى دار الريح من الشمال، كانوا طلائع تنوير وتغيير ثقافي

واقتصادي في تلك الديار؛ إذ جلبوا معهم معارف وممارسات تجارية وأنشطة بشرية لم تكن معروفة لدى الناس في شمال كردفان، ولا ينكر دورهم في هذا الصدد إلا مكابر أو جاحد. من جانب آخر، تصاهر هؤلاء الكرام مع دار حامد وخاصة الفراحنة وعلى سبيل المثال جدة الشاعر محمد المكي إبراهيم من الفراحنة، وتزاوجوا مع العريفية والهبابين والمجانين. وتزاوج الجوابرة أيضاً مع الركابية بدرجة كبيرة بلغت حد الانصهار تقريباً. ولدينا في دميرة أسر فرحانية، جداتهم من الجوابرة مثل أخونا مكي مساعد حميدة، وهو متزوج شقيقتنا عائشة التجاني، وله منها عقب. وأخونا أحمد بابكر ساعد متزوج شقيقة العمدة عبد الحليم أمين إدريس، من الجوابرة في البشيري، وله ذرية هناك. ولذلك من نافلة القول إن دار الريح تمثل سودان مصغر التقت فيه مجموعات بشرية من مختلف بقاع السوان فأخرجت نموذجاً بشرياً متفرداً من حيث الثقافة والاجتماع وحتى الثقافة الغذائية والنشاط البشري، فهم الآن يعيشون استقراراً يندر وجوده في غير هذه المنطقة من السودان ولله الفضل والمنة.

أتقدم بالشكر هنا للأخوين الكريمين الدكتور إسماعيل مكي الأسد والأستاذ محمد نور الباهي لما أفاداني به معلومات لولاها لما كان هذا المقال ممكناً، وأتقدم بالشكر لكل من ساعد وشجع في هذا الصدد.

(31) زريبة الشيخ محمد وقيع الله

كثيراً ما ترتبط أسماء الأماكن بأسماء الرجال الذين أسسوها أو عاشوا فيها أو كان لهم بها مرابط خيل ذات يوم. وفي دار الريح لدينا أمثلة كثيرة من هذه الشاكلة حيث نجد أم سعدون الشريف وأم دم حاج أحمد، ورهد ود أقروب، وزريبة البرعي، وحديثنا هنا سيكون عن هذه الأخيرة. فهي قرية نشأت على ضوء تقابة القرآن، تحفها الملائكة التي تحضر حلق الذكر حيث تتلى آيات الذكر الحكيم، زلفاً من الليل وأطراف النهار، فهي بالتالي بقعة مباركة فلا غرو إذن أن يذيع صيتها وتتحدث عنها الركبان والحقب. والحق يقال إنني لم أجد كثير عناء في البحث عن معلومات عن هذا المركز الديني الرائد الذي طبقت سمعته وسيرة مؤسسه الآفاق، فهي منطقة أسست على التقوى من أول مرة.

تتوسط الزريبة تلك الكثبان الرملية في دار الجوامعة، إلى الجنوب قريباً من مدينة أم دم حاج أحمد. وقد صارت بفضل الله، وبجهود مقدرة من مشايخنا الكرام، وجهة معروفة لكل من يريد حفظ كتاب الله، والنصح والإرشاد، والتداوي بالقرآن، من كل بقاع السودان وخارجه، فهي مأوى لطلاب العلم الشرعي من كل حدب وصوب، حيث يجدون فيها المأوى والمأكل والمشرب وفوق هذا وذاك الرعاية الأبوية الخاصة التي تعينهم على حفظ كتاب الله، في جو من الطمأنينة والسكون الروحي، الذي يندر أن يوجد في غير هذه المنطقة.

ويعيش في هذه المنطقة مئات الآلاف من السكان الذين ينتسبون إلى قبائل شتى غير أن السواد الأعظم من قبيلة الجوامعة، متعددة الفروع، إضافة لقبائل الجعليين والبديرية والقبائل البدوية الأخر كالشنابلة. وتعتبر مهنة الزراعة هي النشاط الأكثر مزاولة بين السكان في موسم الخريف حيث تنتج المزارع أنواعاً متعددة من المحصولات، من بينها السمسم والدخن، الذي يمثل غالب قوت أهل المنطقة، والبطيخ والكركدي والفول السوداني والصمغ العربي، ويمارس كثير من المواطنين مهنة التجارة التي تتوسع في موسم الحصاد فيتم تبادل المنافع بين المزارعين والتجار، ويمارس البعض مهنة عصر زيت السمسم على المعاصر التقليدية (زيت الولد) وفئة أخرى تزاول صناعة الأحذية (المراكيب). ولذلك تعد الزريبة مركزاً تجارياً هاماً، فضلاً عن كونها واحدة من أكبر مناطق النشاط الديني والاجتماعي.

والزريبة معروفة منذ زمن بعيد، فتأريخ نشأتها قد ارتبطت بقدوم الشيخ محمد وقيع الله، في مطلع القرن العشرين، ومنذ ذلك الحين، ظل نشاط الدعوة الإسلامية هو السمة الغالبة للزريبة، بل هو ديدنها الذي ظل يتعهده الرواد من آل محمد وقيع الله. «كان الشيخ محمد وقيع الله (1944-1865م) واحداً من الدعاة المخلصين الذين نذروا أنفسهم لخدمة الإسلام والمسلمين، فقد قضى حياته كلها معلماً ومرشداً، ومنفقاً على الضعفاء والمساكين ويمثل الأب الروحي لأهل المنطقة الذين عرفوا عنه

صلاحه وتواضعه وتقواه وتفانيه في عبادة ربه والإخلاص في العمل وبذل المعروف والدعوة إلى الله تعالى بالحكمة والموعظة الحسن؛ لذلك أحبه الناس واقتدوا به في محبة الله ورسوله، حتى توفاه الله في عام 1944م". بدأ الشيخ محمد وقيع حفظ القرآن في مسيد الشيخ المنا إسماعيل أبو البتول الذي عاش في قرية "يس" ومن بعدها في التيارة حتى قتل على يد قوات المهدية. ثم أكمل الشيخ محمد وقيع الله حفظ كتاب الله في مسيد الشيخ عمر "توفي عام 1932" في الكريدة. ثم عاد ود وقيع الله إلى ديار الجوامعة، وأسس خلوته التي صارت الآن إحدى أهم مراكز التعليم الديني، ليس في كردفان ودار الريح فحسب، بل ربما على نطاق السودان وإفريقيا. " كان الشيخ محمد وقيع الله داعياً إلى الله وفق المنهج الصوفي الذي تربى عليه في كنف الطريقة السمانية التي أخذها وتلقى آدابها على يد الشيخ عمر الصافي "شيخ الكريدة". وبعد إجازته شيخاً في هذه الطريقة، عاد إلى كردفان، وقام بتأسيس مسيد الزريبة. "وهو أحد أبرز شيوخ الصوفية المعاصرين في السودان والعالم الإسلامي.

في مقال له يقول الأستاذ عبد الرحيم حاج أحمد ما نصه: «هو محمد بن وقيع الله بن محمد بن أبي بكر وجدته لأبيه هي ست الجاه بنت البر بن عبد الكريم بن محمد بن الشيخ عبود النصيح والشيخ عبود من كبار الأولياء في عصره .أما جدته لأمه فهي حلوة بنت سليمان بن دماكي بن الشيخ سلامة الأحمر الشويحي، والشيخ سلامة أيضا من كبار الأولياء وجد قبيلة الشويحات المعروفة في شمال كردفان.ولد الشيخ محمد بقرية الزريبة في العام 1865م.وتعلم القرآن بمسيد الحاج النور البديري بقرية "أم نقارة" جنوب الزريبة، وأتم حفظ القرآن عند الشيخ المنا أبو البتول بقرية التيارة، شمال مدينة أم روابة، ومنه أخذ بعض مبادئ التصوف والإرشاد.تنقل الشيخ محمد إلى أماكن كثيرة طلباً للعلم وبحثاً عن شيخ يأخذ عليه الطريق الصوفي والتقى في بحثه هذا بعدد من المشايخ منهم على سبيل المثال الشريف الجزولي وهو صهر شيخه الشيخ عمر، شيخ الكريدة، وقد ظل باحثاً عن شيخ يأخذ عنه إلى أن التقى شيخه الشريف الشيخ عمر بن محمد بن عبد الله بن الصافي (شيخ الكريدة) فأخذ عنه الطريقة السمانية ومكث معه عدة سنوات تلقى فيها كل ما يحتاجه من المعارف والتربية الروحية، حتى أذن له شيخه بالعودة إلى أهله لتعليمهم وإرشادهم ودعوتهم إلى الله تعالى. وعاد الشيخ محمد إلى الزريبة وأحيا من جديد ميراث آبائه في تعليم القرآن والعلوم الدينية، فكان يقيم درسا يوميا في صنوف شتى من العلوم الإسلامية وأهمها الفقه والحديث والتفسير، وقد خصه الله تعالى بعلاج كل الأمراض لا سيما الجنون والمس وكانت له معرفة بالطب النبوي؛ ولذلك انتشرت سيرته في آفاق الأرض وأصبح مسيده مهوى وموئلاً للقاصدين والمرضى وأصحاب الحاجات من شتى الأماكن، كما كان يزوره بعض الأجانب من خارج السودان، ومن الشخصيات الهامة التي زارت الزريبة في عهده: المؤرخ والسياسي البريطاني ماكمايكل الذي قد كان حاكماً لمديرية كردفان في ذلك الوقت. وأكثر ما عرف عن الشيخ محمد تواضعه الجم فقد كان يخدم تلاميذه وضيوفه بيديه ويباشر إطعامهم

وإكرامهم والحديث إليهم والاستماع لهم، كما كان شديد الإنفاق على أهله وعشيرته ويعطي كل سائل مسألته ويهدي إلى زائريه الهدايا الفاخرة. وكان كثير الدعوة إلى ذكر الله لا سيما الاستغفار والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم، وكان يذكر الناس بالتقوى والخشية من الله وله مقالات بسيطة، ولكنها تجمع في ثناياها كل مكارم الأخلاق حيث كان يردد مقولته المشهورة: ''البترضي الله سووها والتغضب الله خلوها''. كان الشيخ محمد كثير العبادات والمجاهدات والطاعات لا يفتر عن ذكر الله في ليله ونهاره وكان لا ينام بالليل أبدا، وقد بذل حياته كلها في مرضات الله تعالى ونفع خلقه، حتى وافاه الأجل فمات وهو يذكر الله تعالى في ليلة من ليالي العام 1944م، وقد خلفه ابنه الشيخ عبد الرحيم البرعي والذي استطاع أن يكمل مسيرة أبيه ويواصل الدعوة على المنهج الذي اختطه والده الشيخ محمد وقيع الله.

في هذه القرية العامرة ولد الشيخ عبد الرحيم البرعي في العام 1923م. وهو الشيخ عبد الرحيم بن الشيخ محمد وقيع الله، وجدته يرجع نسبها إلى الشيخ عبود النصيح، ووالدته هي الرسالة بنت عبد الرحمن يتصل نسبها بالشيخ سلمان العوضي «الجعلي». وعندما بلغ سن التعليم التحق بخلوة والده طالبا للقرآن الكريم على يد الفقيه ميرغني عبد الله، فكان تلميذاً نجيباً، تبدت عليه ملامح الذكاء وقوة الفهم وسرعة الحفظ، واستطاع في وقت مبكر دراسة القرآن الكريم دراسة واعية ومتعمقة من حيث فهم معانيه ومتابعة أسراره العظيمة، التي تتجلى له في أحاديث والده وتفسيره للقرآن الكريم في مجالسه اليومية. وبعد دراسة القرآن الكريم انتقل الشيخ البرعي رضي الله عنه إلى دراسة العلوم الشرعية الأخرى، على يد والده الشيخ محمد، رحمه الله جميعاً، حيث كان يقرأ نصوص الكتب العلمية ويتلقى الشروح من أبيه. وقد تعددت المعارف التي تعلمها على يد ذلكم الرجل الصالح، حتى استوعب منه العظات والدروس التي كان يلقيها على عامة رواد سوحه الكثر في مجالسه العامة. علاوة على ذلك، درس الشيخ البرعي، جملة من العلوم، نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر تفسير القرآن الكريم وبعض صحاح كتب السنة النبوية، وكذلك كتب الفقه المالكي والسيرة النبوية وغير ذلك من العلوم الشرعية. كما درس الشيخ البرعي القرآن الكريم وعلومه، على يد الفقيه الشيخ ميرغني عبد الله، تحت إشراف والده الشيخ محمد وقيع الله.

تقلد الشيخ البرعي خلافة والده الذي توفي في عام 1944م، وكان عمره وقتذاك 21 سنة. وحال تقلده الخلافة أخذ، رحمه الله، ينظر إلى الأمام، وقد ساعده صغر سنه وقوة شبابه ونظرته الثاقبة وهمته العالية وثقته في الله وإخلاصه في العمل، على إعداد خطة بعيدة المدى تنفذ تدريجياً؛ ليخرج من إطار الزريبة القرية الصغيرة النائية، إلى فضاء العالم الرحب، فبدأ بتطوير مسيد الزريبة وبناء مرافقه بالمواد الثابتة بدلاً من مباني ''القش'' البدائية التي كانت تتيحها بيئة المنطقة الرملية القاحلة، نظراً لبعدها عن الأماكن الحضرية، التي تتوفر فيها مواد البناء الحديثة واليد العاملة في هذا المجال

.وكانت هناك كثير من المعوقات التي تجعل من فكرة التطوير أمراً مستحيلاً نسبة لانعدام الماء الذي يستجلب من الآبار البدائية بالدلو، وكذلك انعدام المواصلات في تلك الأماكن، فوسيلة المواصلات الوحيدة المتوفرة في ذلك الحين هي الدواب، والتي استخدمها الشيخ البرعي في جلب الحجارة من جبل يبعد عن الزريبة بحوالي ثلاثين كلم لبناء المسجد، وكانت الإبل التي اختارها الشيخ ليرمز بها لسور القرآن الكريم في قصيدته الشهيرة (إبلي المشرفات)، كانت هي الوسيلة الوحيدة التي يستجلب بها الشيخ مواد البناء التي كان يشتريها الشيخ من الخرطوم وينقلها بالقطار إلى أم روابة ومنها بالدواب إلى الزريبة.

ذاع صيت الشيخ عبد الرحيم محمد وقيع الله البرعي كأحد أبرز مشايخ التصوف على الطريق السماني بسنده إلى الشيخ عمر راجل الكريدة، الذي كان يزوره سنوياً، عبر الشيخ أحمد الطيب ود البشير، ومن ثم الشيخ محمد بن عبد الكريم السمان، في المدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والتسليم. فقد سلك الشيخ البرعي الطريقة السمانية على والده، وتأدب بآدابها وعمل بأورادها ووظائفها المختلفة، من قيام الليل وصوم النهار، والجد والاجتهاد في طاعة الله تعالى، ونحا في ذلك نحواً متميزاً حتى لقي ربه راضياً مرضياً، فعسى شآبيب الرحمة تغشى تربة ضمته ما نجم يغيب ويطلع.

اشتهر الشيخ عبد الرحيم البرعي بكتابة المدائح النبوية؛ كتب آلاف المدائح التي لم يسبقه إليها شاعر مديح نبوي من قبل على الأقل من حيث الكم مع التميز النوعي لأشعاره. وقد بلغ في هذا المجال شأواً بعيدا علماً بأنه قد بدأ كتابة المدائح منذ عمر مبكر جداً، فلقد كان والده رضي الله عنه أيضاً شاعراً. وقد تفتقت عبقرية الشيخ البرعي الشعرية فكتب آلاف القصائد في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولم تقتصر كتابته في هذا الجانب فقط، بل تعدى ذلك للنظم المموسق في شتى ضروب الدعوة إلى الله تعالى، ومن ذلك منظومة في علم التوحيد، ومنظومة في علم الفقه وقصيدة في علم النحو والإعراب، وقصائد لا تحصى في الآداب الإسلامية مثل قصيدته ''بوريك طبك''، وقصائد أخرى في آداب التصوف وأخرى أيضا في مدح أعلام الصحابة رضوان الله عليهم وكذلك في أعلام الإسلام عموما والتصوف على وجه الخصوص؛ مثل الشيخ عبد القادر الجيلاني والشيخ محمد السمان والشيخ أحمد التجاني والشيخ أحمد الطيب بن البشير والسيد علي الميرغني والشيخ إسماعيل الولي والشيخ عمر، ومحمد التوم ود بانقا، وغيرهم من أعلام الإسلام. فمن أروع ما كتب الشيخ الراحل قصيدة مصر المؤمنة التي يقول فيها:

يا صاحِ هـمَّـنـا
لـزيـارة أُمـنـا مـصـر الـمـؤمّـنـة بـأهـل الله
قُـم نـحـدا ونظعنـا لـهـا نـبـذل وُسعَنا
لا تـخـشـى الـفـاقـة والـشِّـده والـعـنـا

زُور فيها حُبُورك إبليسك ألعنا
وهوى الأمارة في نحره أطعنا
الدنيا الساحرة للشر لا تدعنا
ونُفُوسنا الخائنة للأمرِ تذعنا
في حدودنا وشرعنا عينُ الله ترعنا

فهذا نص يفيض شوقاً وحنيناً ويربط الناس شعورياً برسول الله أصحابه وآل بيته الغر الميامين، كما أنه يثبت الريادة لأرض الكنانة لكونها قد ضمت رفات كثير من آل بيت النوبة والصحابة والتابعين والأئمة ألا تراه يذكرهم هنا بقوله:

لا تجهل أمرهم في مصرَ مقرهم
هم أهل البيت الواضح سِرَّهم
زُورهُم بمحبة تَشرب من دَرَّهُم
وأبذل أموالك لجناهم بِرَهُم
دايماً واليهم لتنال من بِرَهُم

وفي قصيدته ذائعة الصيت الأخرى الموسومة " الله، الله" يحث الشيخ البرعي الناس على التمسك بمكارم الأخلاق فيقول:

وقفْ على قدم الآداب منكسراً
مع التواضع لا تنسى مَسَاويكَ
رُدّالحقوق لأهليها على عجلٍ حتى ولو أنّها كانت مُسَاويكَ
اعرفْ حقوقَ الذي يَعلوكَ منزلةً
أو كان دونكَ أو أضحى مُساويكَ
واصبرْ على طاعة الرحمن تلقَ بها
كلَّ المواهب واصبرْ عن معاصيكَ

وفي قصيدته الأخرى نجد قدراً عالياً من الموعظة حيث يقول الشيخ رحمه الله:

بوريك طبك أحسن فيمن عاداك ومن يحبك أذكر إلهك يوت
لا تنس ربك أكر لذكر الموت تلقابو طِبكَ
بل أنِس إحسانك فيمن يحبك

وتــنـــاســـى يــــوت لإســــاءة مـــن يـحـبـك
فيمـــا يَهِمَـك أجـــعل جمـيع فكرك شُغلك وهَمَك
ثـــم أحـــتـــرم شـيـخـك والـــــدك وأمـــــك
والـــحـــاكـم الـــعـــادل خـــالـــك وعـمـك
لا تـفـشى سـرك لكافة المخلوق لو يبقى سِرك

ورب الكعبة لو التزم الناس بهذه المواعظ لما كانت هنالك مشكلة اجتماعية ولا أخلاقية ولا حتى نفسية؛ لأن كل ورد في هذه القصائد يتسق تماماً مع منظومة القيم الإسلامية والأخلاق الفاضلة التي دعا إليها الإسلام. أجاد الشيخ عبد الرحيم البرعي اللغة العربية وملك نواصي علومها، فبرع في شتى أنواع الشعر العربي الرصين وأبوابه وفنونه، ووظف شِعره في مدح رسول الله صلى الله عليه وسلم، والوعظ والإرشاد وشتى نواحي الحياة. وكانت له علاقات متميزة مع كبار رجال الدولة ومفكريها وعظائمها دون أن يرهن إرادته لأي جهة كانت، بل كان يسعى لإسداء النصح والإصلاح والحث على ملازمة الصواب بكل ما أوتي من قدرة واستطاعة، حتى لقي ربه، عليه الرحمة.

أحدث الشيخ البرعي تحولاً كبيراً في المنطقة برمتها عبر توظيفه الواعي للمدائح، سواء باللهجة الدارجة أو العامية أو اللغة العربية الفصحى، وبألحانه المتفردة التي جذبت الشباب قبل الكهول؛ فتحول الناس إلى المديح بيسر وسهولة مما زاد من محبة الناس للشيخ البرعي حتى انتشرت مدائحه التي يشدو بها أولاد البرعي وغيرهم من المنشدين في كافة المناسبات الخاصة والعامة وبذلك تنتشر الفضائل ومحبة رسول الله صلى الله عليه وسلم.

باختصار عاش الشيخ البرعي حياته كلها في سبيل الله، يرشد الناس ويحثهم على فعل الخيرات والطاعات والالتزام بمقاصد الشرع، كما كان الشيخ البرعي، رحمه الله، يسعى في الإصلاح بين الأفراد والجماعات المتناحرين، وقد شهد بنفسه مئات مجالس الصلح في شتى أنحاء السودان. وفي مسيرته القاصدة إلى الله قام بإنشاء عدد كبير من المعاهد والمساجد والمراكز الإسلامية في شتى بقاع السودان؛ لتدريس القرآن وعلومه وساعد في الأعمال الخيرية وقام بتزويج آلاف الشباب من الجنسين. وبعد حياة مليئة بالطاعات واعمال الخير، رحل الشيخ عبد الرحيم البرعي، الذي جعل من الدنيا دار ممر الى دار مقر، الناس فيها رجلان، رجل باع نفسه فأوبقها، ورجل ابتاع نفسه فاعتقها، ولزم جادة الحق طريقاً وسبيلاً، حتى توفي إلى رحمة مولاه في يوم عاشوراء ١٤٢٦ هجرية، الموافق ٢٠٠٥/٢/١٩ ميلادية عن عمر يناهز 82 عاماً، مخلفاً تراثاً ثراً من العلم والمشاريع الخيرية التي تنبض بالحياة، خدمة للفقراء وطلاب العلم في شتي بقاع السودان. لم يتوقف جهد الشيخ البرعي عند بلدته الزريبة وحدها، بل امتد جهده الدعوي إلى مناطق أخرى في السودان انتظمت الشرق

والغرب الشمال والوسط فقد شيد عددا من المجمعات الدينية في كل من الخرطوم وأم درمان ومدني وبورتسودان والأبيض والدويم وسنار ونيالا وغيرها من المدن والقرى السودانية. وبالطبع لا يتسع المجال هنا للحديث عن الحفظة والأئمة والوعاظ الذين تخرجوا في هذا المسيد المبارك، فهم أكثر مما يحصيهم العدد، والفضل في ذلك كله يعود لله وحده ثم لهذه الأسرة المباركة من آل الشيخ محمد وقيع الله ولمريديهم الذين ينتشرون في السودان كافة. وهؤلاء جميعهم أعلام يشار إليهم بالبنان ويتقدمون الصفوف حيثما حلوا ويكن لهم الناس وافر الاحترام والتقدير لما عرفوا به من فضل، وخلق حسن وعلم وأدب.

تولى الخلافة بعد وفاة البرعي ابنه الشيخ الفاتح الذي ولد بالزريبة عام 1946. وقد حفظ الشيخ الفاتح القرآن الكريم في سن مبكرة بمسيد الزريبة، وقد كان تلميذاً متعدد المواهب معروفاً بالذكاء، والفطنة، وحب العلم ،والمعرفة. وقد كان تلميذا متعدد المواهب مدموغ بالذكاء، والفطنة، وحب العلم، والمعرفة. ومن العلماء الذين درس عليهم الشيخ الفاتح، الشريف السالك الشنقيطي " دفين المزروب" وهو من أشراف الشناقيط الذين وفدوا للسودان لنشر العلوم الإسلامية، وكان فقيها وعالما بعلوم الشريعة والعربية وكان لا يتحدث إلا بالفصحى. وامتدت صلات الشيخ الفاتح بعدد من علماء الإسلام من خارج السودان، نذكر منهم العلامة السيد محمد بن علوي المالكي والعلامة الشيخ إسماعيل الزين عليهما الرحمة وهما كما هو معلوم من علماء الحرم المكي الشريف. ومن أهم شيوخ الخليفة الفاتح الشيخ عبد النور محمدين من مدينة أبو عشر بولاية الجزيرة، وقد توفي إلى رحمة مولاه في عام 2005. وقد تميز الشيخ البرعي والخليفة الفاتح بإجادة وحسن الخط العربي حيث تعلماه من العمدة الغالي بن العمدة خليل محمد الفكي، والعمدة الغالي تعلم الخط العربي على يد أخواله آل الشيخ عبد الله ود أبو شليخ في قرية المريحبيبة، التابعة لمحلية أم دم حاج أحمد، بشمال كردفان. والشيخ الفاتح عالم جليل وخطيب مفوه وشاعر فحل وناثر بليغ له من الأشعار ما هو منظوم على بحور الخليل كما له قصائد باللغة العامية على نمط ما يكتبه والده. وقد كان الشيخ الفاتح الإمام الراتب للجمعة في فترات أسفار والده طيلة حياته، وكان يتحدث نيابة عن والده في المناسبات المختلفة خاصة التي يؤمها رؤساء الدولة والوزراء والمسؤولون عامة، كما كان ينوب عن والده في المناسبات التي لا يستطيع الشيخ البرعي المشاركة فيها بنفسه، مثل مجالس الصلح والإصلاح بين الناس.

ومن أبرز إضافات الخليفة الفاتح، بل أبرزها على الإطلاق هو افتتاح المدينة القرآنية لسكن طلاب المسيد، وهي عبارة عن مساكن داخلية واسعة ورحيبة ومزودة بكل مقومات الحديثة بما في ذلك إمدادات المياه والكهرباء ونظام الصرف الصحي وغير ذلك من معطيات التقنية. وأكمل تأسيس وتأثيث المستشفى المرجعي الذي بدأ تشييده الشيخ البرعي قبل وفاته، جزاهم الله خيراً. والزريبة الآن بها كل مدارس لكافة مراحل التعليم من الأساس حتى الثانوي لكل من البنين والبنات. وهنالك أيضاً

قسم للشرطة وسوق كبير ومحطات خدمة للوقود وغير ذلك من متطلبات الحياة المدنية الحديثة.

خلاصة القول إن الزريبة هي واحدة من أكبر مراكز الدعوة الإسلامية، ليس في السودان فحسب، بل ربما في سائر أنحاء القارة السمراء. والمثل العربي يقول من شابه أباه فما ظلم فها هو الشيخ الفاتح الآن يحمل الراية ويمضي بها قدماً على درب آبائه من العظماء الميامين، ويكفي أنه القائل عن كتاب الله الكريم: «أنا القرآن أنا التبيان أنا الدر البزين أهلي»، وغيرها من القصائد الرائعة التي تدل على أنه هذا الرجل المبارك يسير على هدي شيخا الكبير محمد وقيع الله ومن بعده الولي العارف بالله الشيخ عبد الرحيم البرعي، فلله درهم من رجال شهد لهم الجميع بالفضل والاستقامة، رغم كيد الحاسدين وجهلهم.

لا يسعني إلا أن أتقدم بوافر الشكر والتقدير لكل الذين كتبوا عن الشيخ محمد ود وقيع والشيخ البرعي والخليفة الفاتح، حتى لم يزد جهدي في هذا المقال عن النقل والتنسيق، فجزاهم الله عني خيراً، واستميحهم عذراً في التعدي على حقوقهم الفكرية، بيد أننا عند تناول سير مشايخنا نعتقد أن ما يكتب عنهم ملكاً مشاعاً، فهم قد بذلوا حياتهم في سبيل فلا بأس أن نستفيد من إرثهم في هذا الصدد.

(32) الفكي المنّا إسماعيل

تقع قرية التيارة في شرق ولاية شمال كردفان، بالقرب من مدينة أم روابة. وقد كانت التيارة قرية عامرة يأتيها رزقها رغداً في كل حين، بإذن ربها، من جهات متعددة، داخل وخارج السودان؛ لأنها تقع على طريق القوافل الذي كان يربط كردفان ودارفور بالوسط، ثم عبر الشمال إلى مصر. وكانت تلك القوافل، بطبيعة الحال، تحمل بضائع ومنتجات متعددة، من أهمها الصمغ العربي وريش النعام وسن الفيل والمنتجات السودانية الأخرى، وتعود من الريف محملة ببضائع مصرية وأوربية متنوعة تشمل الأقمشة والعطور وأحياناً التوابل من الهند، والأهم من ذلك كله أن تلك القوافل كانت في بعض الأحيان يصحبها العلماء القادمون من مصر فيجلبون معهم المعرفة والكتب والعلوم المتنوعة، ومما لا شك فيه أن التيارة قد كان لها نصيب وافر من ذلك المد المعرفي والفكري الذي يرتبط بمراكز الثقافة والتعليم الديني في الأزهر الشريف وفي بعض خلاوي شمال السودان ووسطه.

وفي ذلك الحين؛ خاصة في أواخر عهد الدولة السنارية والعهد التركي، ازدهرت الأبيض وبارا والتيارة كمراكز تجارية مهمة جداً في السودان، وظهر تجار لهم علاقات واسعة مع رصفائهم في المشرق وفي مصر، من أمثال الياس باشا أم برير، أحد رموز الجعليين وسر تجار الأبيض، وحاكم كردفان إبّان العهد التركي. وقد كانت لهذا الرجل الفذ علاقة رحم بقبيلة الجوامعة؛ ذلك لأن والدته هي بنت العمدة قدوم أحد شيوخ الجوامعة، ولهذا السبب جعل إلياس باشا طريق قوافله يمر بديار أخواله؛ حتى يضمن لها الحماية، وجعل من التيارة إحدى أكبر المحطات التجارية، ولذلك نشطت بها التجارة وصار الناس يأتونها من حين لآخر إما ليتزودوا بالبضائع أو لبيع ما لديهم من منتجات للآخرين. علاوة على ذلك كانت التيارة مركزاً حضرياً يعج بالعلماء والمشايخ، وبها وجود رسمي معتبر من الشرطة والعسكر وربما القضاء وهي لذلك كانت تعتبر واحدة من أهم المناطق الواقعة في كردفان، ولولا ما تعرضت له من نكبة في فترة المهدية لكانت التيارة الآن مدينة عامرة.

وفي واقع الأمر لم ترتبط شهرة التيارة بالتجارة فحسب، بل لكونها مقراً لأحد أبزر رجالات دار الريح في عهد الحكم التركي وبداية المهدية، ذلكم هو الرجل العالم والفارس المغوار والشيخ العابد والصوفي المتبتل الشيخ المنّا إسماعيل أبو البتول. وبشكل عام نستطيع القول إن تاريخ المنا أبو البتول يرتبط بسنوات المهدية الباكرة على أرض كردفان. فمن هو الشيخ المنا أبو البتول يا ترى؟

الشيخ المنّا هو أحد عظماء قبيلة السعداب، الذين يعرفون في كردفان بالمسعداب. وهو المنا بن الفكي إسماعيل بن حسين بن إسماعيل بن ياسين، ووالده ضمن ممن سلكوا الطريقة على السيد محمد عثمان الميرغني الختم بالأبيض وارتبط فيما بعد بالشيخ إسماعيل الولي. ووالدة الشيخ المنا أبو البتول هي زينب بنت الفكي داؤود بن موسى المسلمابي. وقد حفظ الشيخ المنا أبو البتول بن الفكي إسماعيل

المسعدابي القرآن الكريم في الخلاوي المحلية في المنطقة التي تقع شمال مدينة أم روابة حالياً بولاية شمال كردفان، ثم واصل دراسته عند الشيخ موسى ود الأحمر المشايخي، في قرية الكرانك في المنطقة نفسها، وسلك عليه الطريقة السمانية. أما شيخه موسى ود الأحمر المشيخابي فهو تلميذ الشيخ محمد النور ود عربي المسلمي البكري رجل ريبا المعروف، المتوفى 1862. والشيخ النور ود عربي من تلاميذ الشيخ محمد التوم بن محمد بانقا الحمراني «اليعقوبابي» المتوفى «1852» وهو من تلاميذ الشيخ أحمد الطيب البشير. وتردد الشيخ المنا أبو البتول مع شيخه موسى الأحمر في زيارات متكررة إلى شيخهما النور ود عربي حيث أجازه الشيخ النور ود عربي إجازة تامة وشيّخه وأيّده بقوة فاسند نفسه إليه مباشرة فأصبح يعرف بأنه تلميذ مباشر للشيخ النور ود عربي.

أصبحت خلوة الشيخ المنا أبو البتول التي أسسها في حلة ياسين، شمال أم روابة، من أشهر محطات العلم والتزكية واشتهر الشيخ المنا جداً حتى أنه أصبح في سبعينيات القرن التاسع عشر أشهر شيوخ التصوف، غرب النيل الأبيض، مع الشيخ محمد ود دوليب الركابي، شيخ خرسي والتجانية، «توفي1883»، والشيخ محمد المكي بن إسماعيل الولي «توفي 1909». وقد أجمع من رووا عنه أن المنّا إسماعيل ينتمي للمسعداب (أحد فروع الجمع)، ويحتفظ الشيخ خالد بن الشيخ المنّا بشجرة عائلتهم والتي تفيد بأن جد العائلة الأكبر هو «سعد أبو دبوس» الذي ينتمي إليه جميع السعداب.

وبما أن الشيخ المنّا إسماعيل كان من رجال الطريقة السمانية، فقد كن يدين بالولاء للأستاذ محمد شريف نور الدائم، خليفة المقام الطيبي؛ ولذلك ربطته علاقة الطريق محمد أحمد المهدي الذي ذاعت شهرته في أرجاء كردفان. كان من المحتم أن يلتقي الفكي المنّا إسماعيل بمحمد أحمد المهدي، فقد جمعتهما الطريقة السمانية والشهرة العلمية وصحبة شيخهما المشترك محمد شريف نور الدائم. وقيل إن صداقة عميقة قد جمعت بينهما، وعند هجرة محمد أحمد المهدي من الجزيرة أبا للأبيض في عام 1880م مر في طريقه على «ياسين» قرية صديقه المنّا.

وعندما أعلن محمد أحمد المهدي عن معارضته وتحديه للحكومة، لم يلق عوناً من الفكي المنّا إسماعيل في بادئ الأمر، إذ أن العلاقة بين محمد أحمد وشيخه محمد شريف نور الدائم كانت قد بلغت قدراً من الجفوة للحد الذي دفع محمد أحمد ليتخذ له شيخا آخر هو القرشي ود الزين. ويبدو أن ارتباط الفكي المنّا إسماعيل بشيخه نور الدائم جعله لا يظهر مساندة لمحمد أحمد في دعوته. بيد أن محمد أحمد المهدي، بعد انتصاره على قوات الحكومة التركية بقيادة يوسف بيه الشلالي في معركة "قدير"، في يونيو من عام 1882م، أرسل كتاباً لصديقه القديم الفكي المنّا إسماعيل طالباً منه قبول منصب الممثل الشرعي له في منطقته، ودعوة الناس من حوله للجهاد باسمه. وقبل الفكي المنّا إسماعيل بذلك العرض، فتدافع رجال الجمع والبزعة والجوامعة نحو قرية "ياسين" للانضمام لمحمد أحمد المهدي.

انخرط الشيخ المنا في الثورة المهدوية بنشاط لا يوجد ما يماثله، ولعل جهوده هي الأبرز في معارك كردفان الشمالية كلها مثل فتح التيارة وهزيمة حملة علي بك لطفي الشهير بأب كوكة في منطقة الدومة، وحصار بارا حتى استسلمت في 5 يناير 1883، ومعركة الأبيض الأولي في سبتمبر 1882، ثم العودة للحصار حتى استسلمت الأبيض 16 يناير 1883.

بعد مشاركة الفكي المنّا إسماعيل لمحمد أحمد المهدي في الاستيلاء على مدينة الأبيض غدا من المقربين له، إما بسبب صداقتهما القديمة على أيام الطلب علي يد الشيخ محمد شريف نور الدائم شيخ الطريقة السمانية، أو ربما بسبب القوات الضخمة التي كانت تحت إمرة الفكي المنّا إسماعيل! وكتدليل على تقدير المهدي للفكي المنّا تقدم للزواج من كريمته ''حواء الجلالة''، وكان تبلغ من العمر عشرة أعوام، بيد أنها كانت تقرأ القرآن والذي درسته على يد والدها الشيخ، وواصل المهدي في تعليمها حتى وافته المنية كي تتولى تعليم نسائه ومن معهن من الحريم. وظلت الحلالة بت المنا في كنف المهدي حتى وافته المنية في أم درمان بعد فتح الخرطوم، وروت بعض المسكوت عنه من تاريخ الرجل!

كانت للشيخ المنّا إسماعيل دون ريب طموحات ''سياسية'' باعتبار ما لديه من سمعة وشهرة كشيخ ديني ومعلم، له أتباعه ومريدوه، وأيضا كقائد شعبي يحظى بتأييد رجال الجمع والجوامعة، والذين كان يحلو لهم مناداته ''بالمنّا أبو البتول خليفة الرسول''. ولا ريب في أن المنّا إسماعيل كان يساوره شعور بأن الخليفة عبد الله المسنود من أهله التعايشة قد ''خطف منه الأضواء'' وأستحوذ على قلب وعقل المهدي وسلطاته أيضا، ولم يكن الأمر يحتاج لأكثر من شرارة لتشعل نار العداوة والبغضاء بين القائدين الكبيرين، وخلف كل منهما قبيلته وسنده الشعبي. ويقال إن الله الخليفة عبد الله هو من أوغر صدر المهدي ضد صديقه وصهره المنا أبو البتول الذي قدم له كل تلك المساعدة بالرجال حتى أكما فتح الأبيض.

وبعد فتح الأبيض عين المهدي خلفاءه أو بمعنى أصح سمى كبار تلاميذه خلفاء للخلفاء الراشدين تقديراً لهم، ولكن اختياره تخطى المنا مما أثار حفيظة شيخ المنا واغضبه؛ نظراً لغمط جهوده في انتصارات الثورة في كردفان. بعد ذلك، تطورت الأحداث حتى غادر المنا الأبيض إلى حلته ياسين ثم أرسل له المهدي عبد الرحمن النجومي وحمدان أبو عنجة فأخذ إلى التيارة التي فتحها وقتل فيها مع أبيه وابنه وبعض ذوي قرابته. ويروي أهلنا في حلة الفكي عيسى ود الناير مقتل الشيخ المنا باعتباره واحدة من الفظائع التي ارتكبتها المهدية ضد بيوت الدين في شمال كردفان، حيث مثّل القتلة بالجثة؛ فقطع رأس الشيخ المنّا وأرسل للأبيض، حيث أمر المهدي بتعليقه بمسمار ضخم على بوابة المدينة الرئيسة، بينما دفنت الجثة في التيارة.

وبعد مقتل شيخ المنا، في 1883، وحتى مطلع القرن العشرين، عاشت خلوة الشيخ المنا وأسرته

في ظل المحنة لعقود ثلاثة وأشرف بعض رجال الأسرة على أنشطتها ورعاية الأيتام، ومنهم الخاتم البدوي عجبنا ياسين وأقام الحسن محمد تميم الدار البدوي عجبنا ياسين، العمدة فيما بعد، الصلوات والأذكار وأجرى الصلات مع مشايخه وجيرانهم. واستطاع أبنا شيخ المنا الشيخ خالد والشيخ المنصور، النهوض بالخلوة من جديد، وأحيا الشيخ خالد بن الشيخ المنا أمر الطريقة وجمع شتات الأسرة وبرز علما شامخاً في التصوف والدعوة والإرشاد. وقد سلك الشيخ خالد الشيخ المنا الطريقة السمانية في 1902 على يد الشيخ هجو ود الماصع المتوفى عام 1929.

استقر الشيخ خالد في أم تابا على بعد 8 كلم شمال تندلتي بينما استقر أخوه الشيخ المنصور في قرية التليياب شرق أم تابا. وتوفي الشيخ خالد 1960 وتوفي أخوه الشيخ المنصور 1962، وخلف الشيخ خالد ابنه الشيخ عبد الرحمن وتوفي في أم تابا 1986 فخلفه ابنه الشيخ الفضل الشيخ عبد الرحمن وتوفي 2012 فخلفه ابنه الشيخ البري واسمه حمدان وتوفي هذا الشهر شوال 1441 هج مايو 2020.

وقد جرى مؤخراً تكليف الشيخ عبد الكريم بن الشيخ عبد الرحمن بن خالد بن المنا خليفة للمشيخة وعميد للأسرة وفقه الله تعالى.

أتقدم بالشكر والعرفان للإخوة الأعزاء الشيخ مجاهد أبو المعالي والماحي عبد الرحيم الرشيد والدكتور خالد محمد فرح لتوفير كامل المعلومات التي وردت في هذا الباب، ونسأل الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء.

(33) السيد إسماعيل الولي

أهلنا البديرية هم قبيلة عربية معروفة في كثير من أنحاء السودان؛ خاصة في الشمال، حيث كان لهم دور مشهود في كثير من جوانب الحياة اجتماعياً، وثقافياً من خلال نشرهم للفكر الإسلامي في كل المناطق التي اقاموا بها، وسياسياً إذ شاركوا وحازوا قصب السبق في إنشاء عدد من الممالك والمشيخات الإسلامية في السودان الشمالي، منها على سبيل المثال لا الحصر، مملكة الدفار ومملكة الخندق، أما في دار الريح فقد أسسوا مشيخة في كاب بلول بالقرب من جبال كاجا وكتول، حيث كانت لهم مواقف مشهودة مع المسبعات، لا يتسع المجال لذكرها.

وحسبما روى ماكمايكل فإن البديرية قبيلة مستقرة ظلت تسكن في كردفان منذ وقت طويل، وأن البديرية لهم عباقة رحم بقبيلتي الجعليين والشايقية اللتين تسكنان حول نهر النيل. عموماً هنالك روايات كثيرة أصل البديرية وتسميتهم بهذا الاسم، وخلاصة هذه الروايات أن البديرية فعلاً تجري في عروقهم دماء العباسيين، ويقال إن جد هذه القبيلة هو بدير أو محمد بدير، وهو مدفون في دنقلا. وبعض الروايات تقول إن البديرية يشتركون في النسب مع الركابية، لأنهم ينحدرون من جد واحد هو الشيخ غلام الله. ومن جانب آخر، يعتقد البعض أن البديرية من القبائل الكردفانية أصلاً، ولم يأتوا إليها مهاجرين من الشمال، ومهما يكن الأمر فإن هذه المجموعة تعد الآن من مكونات دار الريح التي كان لها دور بالغ الأهمية في هذه المنطقة، سيما أن البديرية لهم علاقات واسعة مع مكونات دار الريح الأخرى ثقافياً واجتماعياً.

ومن اللافت للنظر أن القادمين الأوائل من البديرية إلى كردفان لم يأتوا من أجل التجارة أو الزراعة أو الرعي، إنما جاءوا كرجال علماء ومشايخ دين ومن أولئك الشيخ محمد الحلو حمدان، وعند وصوله إلى تلك الديار، أسس مسيداً، ظل قائماً لفترة من الزمن ولكنه اندثر، وهذا الرجل مدفون في منطقة أم صميمة، وقبره لا يزال معروف ويزار هناك، ومن ذريته آل الناظر زاكي الدين، الذين هم بيت الحكم والإمارة في دار البديرية، ولهم دور مشهود على نطاق كردفان، وبرز منهم رجال عظماء من أمثال السيد ميرغني حسين زاكي الدين السياسي المشهور ورجل القبيلة الذي يشار إليه بالبنان، ومنهم الأستاذ معتصم ميرغني، والي شمال كردفان الأسبق، والأمير الزين ميرغني زاكي الدين وهو أمير قبيلة البديرية في الوقت الراهن، وهو رجل قبيلة من الطراز الأول وقد أوتي الحكمة وفصل الخطاب. ومن ذرية الشيخ محمد الحلو حمدان، الخليفة أحمد البدوي، وقد أنشأ خلوة أو مسيداً في منطقة أم رماد، وهو لا يزال قائماً وخليفته الآن هو الشيخ حسن باب الرحمة بن أحمد البدوي حمدان. وهؤلاء الرجال هم على الطريقة الهندية، نسبة للشريف محمد الأمين الهندي الذي تتلمذوا على يديه. وإلى هذه المجموعة ينتسب الشيخ موسى ود أبو صفية، الذي يضرب به المثل، حيث

يقال:» في الأبيض وما بتعرف ود أب صفية». ومنهم أيضاً السادة آل سوار الدهب، أجداد المغفور له بإذن الله المشير محمد حسن سوار الدهب الذي يضرب به المثل في الإخلاص والوفاء بالعهد في وقتنا المعاصر. وهذا أسر ينتشر أفاردها في كثير من أرجاء الوطن ولهم مسجد عامر في الأبيض وآخر في حي ود نوباوي بأم درمان، وإليهم يرجع الفضل في نشر القرآن الكريم وعلومه في كل أنحاء السودان إذ أنهم حيثما حلوا بنوا المساجد والخلاوي وعمروها بالذكر وتدريس القرآن العظيم.

وإلى البديرية، ينتمي آل السيد اسماعيل الولي، وحديثنا في هذا الصدد ينصب بشكل أساسي على المراكز الدينية في دار البديرية عامة وبصفة خاصة عن السيد إسماعيل الولي. وهو الأستاذ الشيخ إسماعيل الولي البديري الدهمشي العباسي مؤسس الطريقة الإسماعيلية ابن عبد الله بن إسماعيل بن عبد الرحيم بابا بن الحاج حمد بن الفقيه بشارة الغرباوي وينتهي نسبه إلى السيد العباس عم النبي صلي الله عليه وسلم بن عبد المطلب بن هاشم. ولد الأستاذ الشيخ اسماعيل الولي في بندر الأبيض بأرض كردفان في العام 1207 هجرية الموافق 1792 ميلادي فكانت هي محله مولداً ومنشأ وتعليماً، وتعلماً وطريقة وإرشاداً. وقد جاء والده السيد عبد الله من منصوركتي في شمال السودان إلى الأبيض.

وأمه هي السيدة ملكة الدار بنت ابراهيم ولد عبد النبي وتلتقي مع والده في جدهم الحاج حمد بن الفقيه بشارة الغرباوي وهو تلميذ الفقيه المعروف إبراهيم البولاد بن جابر أول من درس كتاب مختصر خليل في الفقه المالكي وكان الفقيه بشارة الغرباوي يأتي إلى شيخه من الجهة الغربية من نهر النيل (منصوركتي) فسمي بالغرباوي.

نشأ الأستاذ الشيخ اسماعيل الولي في بيت علم ودين وفقه وقد توارث ذلك من جده المذكور وكذلك درس والده علي يد الشيخ عربي مكاوي. وتربي بين أحضان أمهات وأخوات فقيهات وآباء ورثوا العلم كابراً عن كابر فكانت خير نشأة لخير ابن مبارك. وقد نهل السيد إسماعيل الولي من ذلك المعين الذي ورثه من اجداده فحفظ القرآن دون الثامنة من عمره ودرس الفقه وعلوم العربية من مشايخ أجلاء وأكارم أتقياء كانت تذخر بهم.

اشتغل السيد إسماعيل الولي بالقرآن حتى حصله ونهل من العلوم وكان كثير التعبد بالقرآن لا ينفك عنه ولا يفارقه وكذلك الصلاة علي النبي العدنان حتى كان في بعض الأوقات المأثورة للذكر يسهر بالقرآن من أوله إلى آخره الي طلوع الفجر، فتارة يتهجد به وتارة يقرأه بالأسباع وتارة بالأثلاث وتارة بالأرباع فلم يتركه أبداً، وبعد الفراغ منه كان أكثر اشتغاله بالصلاة علي النبي صلي الله عليه وسلم حتى حصلت له مبشرات جلية ببعض رؤي صالحة ورؤى نبوية.

وفي العام 1231 هجرية في شهر شوال زار مدينة الأبيض الولي الكامل الشريف المكي الختم محمد عثمان الميرغني قادماً من أرض مسكنه، بلد الله الحرام، مكة المشرفة، فقدر للأستاذ الشيخ إسماعيل الاجتماع به فأخذ عنه بعض العلم، من نحو وصرف وشيء من التفسير والحديث ونحو ذلك. فلما

وجده شيخه على الحالة التي ذكرناها سابقا من عبادة واجتهاد رغب في سلوكه طريقته على يديه، مع حسن الظن في الله بأن يفوز منه بما لديه. أخذ الأستاذ الشيخ اسماعيل الولي الطريقة الختمية من شيخ تربيته السيد محمد عثمان المكي الختم فحقق منه كامل أصولها وفروعها وما احتوت عليه من أورادها وأذكارها الجلية، فأخذ في المجاهدات بالرياضة والخلوة والصيام والقيام والذكر سراً وجهراً؛ حتى جاءه الفتح الرباني وأفاض الله على قلبه من سره الرحماني، فما مكث في الحجاب إلا سبعة أشهر، وبعد ذلك سافر السيد محمد عثمان الختم الي ناحية الجزيرة بأواسط السودان، ولما عاد وجد الأستاذ الشيخ إسماعيل قد أوقف الطريق على أحسن قدم ونظمه فانتظم وأخذ منه أناس كثيرون. أصبح السيد إسماعيل الولي خليفة الختمية على شمال كردفان بأكملها.

مكث الشيخ إسماعيل الولي في الطريقة الختمية سبعة أشهر فقط، وبعدها منّ الله عليه بالفتح وأحله في ذروة السطح وصار من أكابر الرجال فجاءه الإذن النبوي بتأسيس الطريقة الإسماعيلية. فقام بتأسيسها في العشر الأواخر من رمضان عام 1241 هجرية الموافق 1826 ميلادية. والطريقة الاسماعيلية حاوية لأسرار الطرق الخمسة المشهورة (النقشبندية والقادرية والشاذلية والجنيدية والميرغنية) وتعتبر هي الطريقة الصوفية السودانية المنشأ الوحيدة، حيث إن كل الطرق الصوفية الموجودة في السودان قادمة من اقطار الاسلام المختلفة كالعراق ومصر والجزيرة العربية والمغرب. بعد أن أظهر طريقته سافر الأستاذ الي جبال النوبة داعياً إلى الله، فمكث في منطقة (كندو كيرا وكندو كورو) ما يقارب الثلاث سنوات فأدخل فيهم خلقا كثيراً إلى الإسلام وأنشأوا الخلاوي لتحفيظ القرآن وعلومه.

عمل السيد إسماعيل الولي على نشر الإسلام في جبال النوبة في جنوب كردفان. وهو أول من أسس خلوة للقرآن الكريم في تلك المنطقة. ولم ينقطع مسير الدعوة في جبال النوبة بعد وفاة الشيخ إسماعيل الولي؛ فقد خلفه في الدعوة حفيده السيد محمد المكي حيث توسع في الدعوة كثيراً في تلك الجهات، ثم من بعده السيد إبراهيم وهو نجل السيد محمد المكي وقد ظل داعياً للإسلام في تلك الجهات وجاء من بعدهما نجلهم السيد محمد المكي السيد بشير فعمل بالدلنج، وكان إماماً لمسجدها العتيق. ومن بعد ذلك جاء العارف بالله الشيخ محمد الأمين القرشي مبشراً ووجد أساس الإسلام الذي شيده الشيخ إسماعيل الولي وأحفاده.

من بعد ذلك عاد الأستاذ الي الأبيض ولم يفارقها إلا حاجاً إلى بيت الله الحرام في العام ١٢٥٧ هجرية، وهناك التقي شيخه السيد محمد عثمان المكي الختم وأجازه إجازة كبري في إعطاء طريقته الإسماعيلية وكذلك الطريقة الختمية. عاد الأستاذ الشيخ إسماعيل الولي إلى الأبيض، بعد أداء فريضة الحج، وواصل في دعوته ونشر طريقته التي انتشرت في كل أرجاء السودان ودخل فيها خلق كثير فتفرغ بعد ذلك للخلوة والعبادة والتأليف وأوكل أمر الطريق لابنه السيد محمد المكي وصلى خلفه نحو عشرين عاماً.

اسهمت الطريقة الإسماعيلية في الحياة السودانية نشراً للعلم والتعليم والتربية والتزكية، وكان لها دور عظيم في تعزيز الحياة الاجتماعية ورفدت المكتبة السودانية بمؤلفات نادرة ودواوين كتبها الأستاذ وابناؤه من بعده كما كان لها دور في مناهضة الاستعمار منذ التركية الأولي واسهمت عبر السيد المكي في حركة المهدي وأهدت للأمة السودانية السيد إسماعيل الأزهري الزعيم الذي رفع علم الاستقلال وحرر البلاد.

صنف الأستاذ الشيخ اسماعيل الولي كثيراً من المؤلفات بلغت 76 مؤلفاً، من تفاسير وحديث وفقه وسيرة ورسائل وله دواوين وقصائد شجية وفصيحة في مدح المصطفي صلي الله عليه وسلم وألف مولداً في شمايل النبي صل الله عليه وسلم ومن أشهر مؤلفاته كتابه العظيم (مشارق شموس الأنوار ومغارب حسها في معنى عيون العلوم والأسرار) وجمع كذلك كل أوراد الطريقة وأذكارها في كتابه (العهود الوافية الجلية في كيفية صفة الطريقة الإسماعيلية. اهتم الأستاذ بالعلم والقرآن وكانت مدرسته في التصوف هي نهج الاستقامة ومن أقواله (الاستقامة خير من ألف كرامة) وقد كان يحث مريديه على قراءة كتبه التي تناولت كل الجوانب وأجاب فيها عن كل ما يدور في ذهن المريد. وله عدة دواوين من الشعر نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: ديوان الجواهر الزكية وديوان حدائق المشتاق في مديح حبيب الخلاق.

أنجب الشيخ إسماعيل عدداً من البنين والبنات، منهم السيد محمد عثمان وقد توفي في سن مبكر، والسيد محمد المكي وهو أول من تولى رئاسة السجادة الإسماعيلية بعد وفاة والده وله عدة مؤلفات وقد بنيت القبة الحالية في خلافته. والسيد أحمد الأزهري الذي درس في الأزهر الشريف لذلك سمي بالأزهري وهو جدّ الرئيس الراحل إسماعيل الأزهري.والسيد مصطفى البكري المدفون بمقابر البكري بأم درمان وقد كان اول من دفن بها فسميت باسمه وله ديوان في مدح الرسول صلى الله عليه وسلم. ومنهم أيضاً السيد المحجوب والسيد إسحـاق والسيد الباقر والسيد عبد الله وغيرهم من الذرية والأحفاد الذين ينتشرون في كافة أنحاء السودان. أما بناته فمنهن والسيدة رابحة والسيدة عائشة، وهي والدة مؤرخ المهدية إسماعيل عبد القادر الكردفاني، والسيدة أم الحسن والسيدة سارة والسيدة حرم والسيدة بتول.

لقد تولى رئاسة السجادة الإسماعيلية عدد من الخلفاء وهم: السيد محمد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي، والسيد إسماعيل (الرقيق) بن السيد محمد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي، والسيد محمد عثمان الميرغني (تور وحدو) بن السيد إسماعيل بن السيد محمد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي. والسيد تاج الأصفياء بن السيد إسماعيل بن السيد محمد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي. والسيد مصطفي البكري بن السيد تاج الأصفياء بن السيد إسماعيل بن السيد محمد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي والسيد الشيخ إسماعيل بن السيد مصطفي البكري بن السيد تاج الأصفياء بن السيد إسماعيل بن السيد محمد المكي بن الشيخ إسماعيل الولي (رئيس السجادة الحالي،2020).

للأستاذ الشيخ اسماعيل الولي كثير من الخلفاء الذين ساروا على دربه وقاموا بنشر الطريقة الاسماعيلية فكان كل واحد منهم هاديا الي الله تعالي ودالا اليه، نذكر ومنهم على سبيل المثال لا الحصر الخليفة مساعد بن عيسى الأنصاري والشيخ علي البليل وهو مدفون في قرية "أمان الله" في ريفي أبو حراز من ضواحي الأبيض وقبره ظاهر يزار. والخليفة أحمد أبو زمام وقبره بالأبيض بالقرب من قبة الشيخ إسماعيل الولي. والخليفة مساعد عبد الرازق ومدفون بمقابر البكري بأم درمان. والخليفة أحمد القموس ومدفون بقرية أم عشيرة ريفي الأبيض. والخليفة عبد الرحمن الحجيري ومدفون بحلة حجير ريفي بارا. والخليفة الناير المنبوش ومدفون بقرية روفه ريفي أم روابة. والخليفة آدم إسماعيل وهو مدفون بمنطقة أبو زبد. والخليفة سلطان العريفي ومدفون بمنطقة أبو قايدة ريفي بارا. كما أن للشيخ إسماعيل الولي مريدون بمناطق كثيرة خارج وداخل كردفان ومناطق أخرى كثيرة في السودان فضلاً عن أتباعه في الخارج. والخليفة الشيخ بن اسماعيل الجوهرة الخندقاوي وغيرهم كثر من أكابر الرجال الذين كان لهم دور بارز في إرشاد الناس ونشر العلم والأذكار.

الشيخ إسماعيل الولي له بصمة متفردة في نشر التصوف في السودان، ذلك لأن جميع الطرق الصوفية التي انتشرت في السودان مثل الختمية والسمانية والتجانية والقادرية، قد جلبها رجال من خارج حدود الوطن، بينما الطريقة الوحيدة التي أسسها رجل ومرشد سوداني هي الطريقة الإسماعلية التي وضع أورادها وآدابها الشيخ إسماعيل بن عبد الله الولي الكردفاني، رحمه الله. وقد انتشرت هذه الطريقة في جميع أنحاء السودان، خاصة في كردفان والمدن السودانية الأخرى مثل أم درمان ودنقلا وغيرها كثير من المناطق. وهي طريقة متينة من حيث مؤلفات مؤسسها الذي جمع بين علمي الشريعة والحقيقة في عصر مبكر من تاريخ السودان الحديث؛ فقد بلغت مؤلفات الشيخ إسماعيل الولي أكثر من خمسين كتاباً في مختلف العلوم الإسلامية، ولكن للأسف لم يطبع منها إلا القليل. ومن جانب آخر توصف مؤلفات بأنها محكمة وبليغة الأسلوب، ومن أشهرها كتاب مشارق الأنوار. وجدير بالذكر، أن الطريقة الإسماعيلية لم تطالها يد المهدية وبطشها، بل بالعكس قد نال شيوخها الاحترام والحظوة عند المهدي ومن بعده الخليفة عبد الله التعايشي. وقد تبوأ السيد المكي مكان المشاورة والمناصحة للخليفة عبد الله بعد وفاة المهدي إذ أنه كان أول من بايع الخليفة بعد وفاة المهدي، فحقن الله بحكمته دماء المسلمين، فكان مسموع الكلمة مستعظم الرأي من الخليفة عبد الله، ذا مكانة عند، ناصحاً له في شأن إدارة البلاد والعباد، وشفيعا للضعفاء والمساكين.

لقد اشتهر من هذه علماء صالحون يشار إليهم بالبنان، من أمثال السيد أحمد الشيخ إسماعيل الولي، وهو شيخ أزهري عالم بالفقه، وأوائل السودانيين الذين درسوا بالأزهر الشريف، ثم قدم إلى السودان وكان له أثر ظاهر في نشر العلم. وإلى هذه الأسرة الكريمة ينتمي السيد الباقر بن الشيخ إسماعيل الولي والسيد أسماعيل بن السيد أحمد الأزهري جد الزعيم الأسري رحمهم الله جميعاً.

توفي الأستاذ الشيخ اسماعيل الولي عام 1280 هجرية الموافق1863 ميلادية، عن عمر ناهز 73، في ذات المكان الذي ولد فيه وتعلم وعلم وكابد واجتهد وأرشد وهدي وكان من العلماء العاملين الدالين الي الله بحالهم ومقالهم. وانتقلت روحه الي بارئها ولا زالت نار القرآن التي أوقدها مشتعلة لأكثر من 240 عام وقد سار خلفاؤه على ذات النهج.

ولا يسعني إلا أن أزجي الشكر له للخليفة إسماعيل البكري، رئيس السجادة الإسماعيلية الآن، وللأمير الزين ميرغني زاكي الدين على ما أفاداني به من معلومات شكلت لب هذا المقال.

خاتمـــة

كانت هذه محاولة أولية متواضعة لرصد حركة التعليم الديني وانتشاره في تلك البقعة من شمال كردفان، من أجل إماطة اللثام عن مراكز دينية رائدة كان لها القدح المعلى في تبصير الناس بأمور دينهم وتسوية خلافاتهم فيما يتعلق بالأمور الشرعية وفقاً للمنهج الرباني والشرع الحنيف حتى استقام سلوك الناس وحسنت عقيدتهم وشاعت بينهم المودة وحسن العلاقات، مع اختلاف أعراقهم وقبائلهم، في تلك البقعة الممتدة من الأبيض جنوباً وحتى تخوم الصحراء الكبرى شمالاً، فيما اصطلح على تسميته بدار الريح. ويطلق مسمى دار الريح على المنطقة التي تقع في الجزء الشمالي من ولاية شمال كردفان الآن؛ وهي تشمل محافظتي بارا وسودري (بجميع محلياتها) وتمتد من غرب أم درمان حتى تخوم دارفور غرباً ومن حدود الولاية الشمالية إلى الأبيض، ويسكنها خليط من القبائل العربية مثل دار حامد و الكبابيش و الكواهلة و المجانين و الهواوير و غيرهم؛ مع وجود بعض العناصر الأخرى في القطاع الجبلي الذي يفصل بين منطقتي دار حامد و الكبابيش؛ و هذه الجبال مأهولة بمجموعة من الدواليب في جبال أبو حديد و أم درق و الحرازة ، بينما نجد كاجا و كتول إلى الغرب في المنطقة شرقي سودري. وفي المدن والقرى هنالك مجموعات من القبائل التي جاءت أصلاً من الشمال منهم الشايقية، والجعليين والدناقلة والركابية والجوابرة. تتميز هذه المنطقة بتماسك النسيج الاجتماعي وتمازجه؛ نتيجة لانتشار التعليم الديني منذ وقت مبكر في هذه المنطقة. للأسف الشديد لم يتعرض الباحثون لتاريخ هذه المنطقة وثقافتها باستثناء كتاب ماكمايكل المسوم « قبائل شمال كردفان ووسطها» وبعض الكتابات المحدودة عن بعض المشايخ والمراكز الدينية التي تأسست في دار الريح، ولذلك لم يكن بد من الاعتماد على الروايات الشفوية كمصدر أساس لمادة هذا العمل المتواضع الذي نأمل أن يسد ثغرة معرفية في مجال البحث عن تاريخ كردفان خصوصاً والسودان عموماً. ففي حين وثق صاحب الطبقات، ود ضيف الله، لكثير من مشايخ الطرق الصوفية في السودان الأوسط والشمال، لم تسعفنا المكتبة السودانية بأي مؤلف عن دار الريح وإن كان الأستاذ الطيب محمد الطيب قد أورد شذرات مقتضبة عن مشايخ دار الريح وقد أخذ معظمها عن الشيخ مشاور جمعة سهل عليهم رحمة الله جميعاً.

ومما يلاحظ على حركة التعليم الديني في دار الريح أنها على ارتباط وثيق ببعض الخلاوي العريقة في الجزيرة مثل خلوة الشيخ عبد الباقي النيل في أم قرقور وخلاوي العركيين في أبو حراز وطيبة الشيخ عبد الباقي ومسيد الشيخ الطيب ود البشير في أمرحي، شمال أم درمان، وخلوة الشيخ برير في النيل الأبيض وبعض خلاوي شرق كردفان الأولى مثل خلوة الشيخ ضو البيت وغيرها. ويضاف إلى ذلك أن المشايخ كانوا يشجعون تلاميذهم على العودة إلى ديارهم لنشر العلم وتحفيظ القرآن مثلما هو

الحال مع الشيخ البانور الذي عاد إلى المنطقة بعد حفظ القرآن فأسس خلوته التي مثلت بداية لمراكز دينية رائدة ظهرت فيما بعد واسهمت بقدر كبير في تحفيظ القرآن ونشر العلم الديني.

ومن ناحية أخرى كان للعلماء والمشايخ القادمين من شمال السودان أثر بالغ الأهمية في نشر التعليم الديني والقرآن كما هو الحال في خرسي حيث استقر الشيخ محمد ود دوليب وتلقى العلم ونشره على نطاق واسع على يده وأيدي تلاميذه الأفذاذ مثل ود الطفح والسنوسي، وشارك في هذا الصدد رجال عظماء كالهادي ود طلحة والشيخ محمد ود الزاكي.

وجذبت دار الريح عدداً مقدراً من فطاحل علماء شنقيط والأشراف مثل الشيخ السالك في المزروب، وقبله الشريف عبد المنعم والشريف كرّام، ومن بعدهم كوكبة نيرة من السادة الشناقيط الذي ورد ذكرهم في ثنايا هذا الكتاب. كما شجع زعماء الإدارة الأهلية وعمار دار الريح المشايخ والعلماء على الاستقرار في تلك الديار بتزويجهم ومنحهم الأراضي السكنية والزراعية ومساعدتهم مالياً فكانوا مصابيح هدى أنارت الطريق لكثير من الخلق وفقتهم الناس في دينهم.

ارتبط التعليم الديني في دار الريح، مثلما هو الحال في كل أنحاء السودان، بالتصوف ولذلك ما من خلوة أو مسيد إلا ونجد وراءها ويقوم بأمرها أحد مشايخ الطرق الصوفية الذين ارتبطت تلك المراكز بأسمائهم قديماً وحديثاً، فهنالك أم سعدون الشريف، وزريبة البرعي وغيرها من الأماكن التي تنسب إلى المشايخ.

تعرضت المراكز الدينية لبعض الظروف الصعبة والفترات الحرجة مما أثر على استمرارها أو اندثارها في بعض الأحيان كما حدث إبان فترة المهدية التي قتلت بعض المشايخ في دار كالشيخ المنا أبو البتول وهجرت بعضهم قسراً إلى أم درمان خشية تأثيرهم على المجتمع كما حدث لجدنا الشيخ عيسى ود الناير. وفي منتصف القرن الماضي توقف بعض الخلاوي عن العمل بعدما انصرف الطلاب للالتحاق بالمدارس النظامية بغية الحصول على الوظائف الحكومية.

هنالك الآن خلاوى مزدهرة في دار الريح مثل خرسي والزريبة وسراج والفرجاب لا تزال تقدم خدمات عملية واجتماعية متميزة؛ خاصة وأن القائمين عليها هم من المستنيرين الذي جمعوا بين التعليم الديني والحديث ولذلك صارت هذه المناطق معاهد دينية ذات سمعة طيبة تقدم للطلاب التعليم والسكن والإعاشة والتدريب على المهن في بعض الأحيان.

أود أن أكرر القول بأن القصد من هذا العمل هو تحفيز الباحثين المهتمين بهذا المجال؛ خاصة الشباب منهم، حتى يولوا الدراسات الإنسانية التي تتعلق بشمال كردفان قدراً من الاهتمام ويا ليت أن جامعة كردفان تنشئ مركزاً بحثياً يتولى هذا الأمر. ويلحظ أن الكتاب لم يتبع التسلسل التاريخي لهذه المراكز الدينية، بل ارتكز علة توفر المعلومات لدى الكاتب وهذا لا ينقص من أهميته شيء. وأخيراً لا يسعني إلا أن أشكر كل من ساهم وشجع حتى يرى هذا العمل المتواضع النور ويصل إلى أيدي القراء، والحمد لله أولاً وآخراً.

الملاحـــق

ملحـــق (1)

نظام للتعليم في الخلوة

تعتمد الخلوة على نظم وطرق تقليدية في التعليم، حيث تبدأ الرحلة في الخلوة بتدريس الحروف نطقًا وخطًّا بالوسائل التقليدية، المتمثلة في اللوح المصنوع من الخشب، والمداد الأسود (الحبر أو الدواية)، والقلم المصنوع من نبات البوص. كما تتبع الخلوة نظام التعليم الفردي، الذي يمثِّل فيه كل طالب وحدة أو فصلاً قائماً بذاته غير مرتبط بالآخرين في مقدار ما يتحصل عليه من حفظ للقرآن الكريم، أي لا توجد فوارق زمنية (فصل أولى، ثانية، ثالثة)، بل كل طالب يسير قدر طاقته في الاستيعاب والحفظ. وتعتمد الخلوة على نظام المعلم الواحد، فالشيخ يمكن أنْ يشرف على عدد من الطلاب قد يصلون إلى المائة. وقد يستعين الشيخ بالمتقدمين من الطلبة في القراءة له في التدريس، حيث يتم توزيع الطلبة الجدد على الطلبة المتقدمين في الدّراسة ليقوموا بتدريس باقي الفريق، بإشراف من الشيخ.

يستمر اليوم الدراسي في الخلاوي الكبيرة منذ الثالثة والنصف صباحاً وحتى العاشرة مساء. ويبدأ بفترة تسمى بالدغشية، قبل صلاة الفجر، وفيها يحفظ الطلاب المقرر اليومي الذي يحدده الشيخ لكل منهم على حدة. والفترة التي تقع عقب صلاة الفجر يتم فيها ما يعرف بـ «الرَّمية»، أي إملاء أو إلقاء نصوص الآيات القرآنية عليهم، حيث يأخذ الشيخ مكانه وحوله حلقة من الطلاب جالسين على هيئة جلوس التشهد في الصلاة.

ولكي يرمي الشيخ على الطالب -أي يُملي عليه النص -لا بد أولا من أن يُسمعه الطالب آخر ما وقف عليه من نصوص، كأن يكون مثلا قوله تعالى: (ولهم فيها أزواج مطهرة، وهم فيها خالدون) (الآية 25، سورة البقرة) فيرمي عليه الشيخ الآية التي تليها (الآية 26) وهي قوله تعالى: (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها). وهكذا يكتب الطالب على لوحه ما يُلقى عليه من الشيخ الذي يرمي في الوقت نفسه لطلاب آخرين، ثم يعود إليه مرة أخرى حتى ينتهي الطالب من الكتابة، ومن ثمّ يطلب منه التنحي جانباً ليبدأ في حفظ ما كتب.

ويستخدم الشيخ المصحف أو ما يحفظه في ذاكرته من آيات ليملي بها أكثر من طالب، في أكثر من سورة قرآنية، وغالبا ما يكون هؤلاء الطلاب من خيرة وأكفأ من عنده، الذين يوكل إليهم الرمي على من هم دونهم في السن. والفترة من بعد شروق الشمس حتى العاشرة والنصف صباحاً تُسمى«الضَّحَوَة» وفيها يُراجع الطالب ما حفظه في اليوم السابق من نصوص منفرداً، ثم يعرض بعد ذلك ما كتبه صباح اليوم خلال ''الرَّمية'' على الشيخ ليصحح له أخطاءه، ويُعرف هذا التصحيح باسم «صحة القلم».

وتبدأ بعد ذلك فترة قيلولة الطالب من الحادية عشر حتى الثانية بعد الظهر التي يتناول فيها إفطاره ويأخذ قسطاً من الراحة حتى يحين موعد صلاة الظهر، وتبدأ بعدها فترة «الظهرية»، وفيها يقرأ الطالب على الشيخ ما كتب في اللوح في آخر رَّمية تصحيحاً للقراءة نطقاً وتجويداً، ويُعرف هذا التصحيح «بصحة الخَشِم أي صحة الفم»، وتنتهي الظهرية بصلاة العصر لتبدأ بعدها فترة «المطالعة» التي تنتهي بدورها قُبيل صلاة المغرب، وفيها يقرأ الشيخ ويتابع الطالب من لوحه، وبعد الصلاة يعرض الطالب على الشيخ ما حفظه بالأمس وتُسمى «بالعرضة».

وفي الفترة ما بعد العشاء وحتى الساعة العاشرة ليلاً وتُسمى" السُّبُع" يقرأ الطالب سبعة أجزاء مما حفظه من نصوص آيات وهو يدور في محيط مساحة منبسطة كان في القديم توقد فيها ناراً للإضاءة تُسمى "التُّقابة". والفترتين من المغرب إلى العشاء، ومن العشاء حتى الساعة العاشرة ليلاً تسميان على التوالي بالمغربية الأولى والمغربية الثانية.

هذا البرنامج المكثف لا يتوقف إلا في عطلة العيدين، وهي العطلة الوحيدة التي تعرفها الخلوة بشكل عام، حيث إن بعض الخلاوي الصغيرة في المدن تعطل أيضاً في أيام الخميس والجمعة من كل اسبوع أو الجمعة فقط.

لا تعرف الخلوة نظام للانتقال من صف دراسي إلى آخر أو من مرحلة إلى أخرى كما هو الحال في المدارس النظامية، ولكن يوجد فيها ما يعرف بالشرافة وهي احتفال بإكمال الطالب جزء من أجزاء القرآن الكريم. فالشرافة الأولى، مثلاً، هي "شرافة جزء عم" وتكون عند وصول الطالب أو الطالبة إلى سورة النبأ، والشرافة الثانية وهي "شرافة تبارك" عند الوصول إلى سورة الملك وهكذا إلى أن يصل الطالب أو الطالبة إلى الشرافة الكبرى والأخيرة، الختمة، وهي سورة البقرة.

من العادات المتبعة في الشرافة زخرفة لوح الطالب برسم قبة ومنارة لمسجد وتلوينهما بألوان زاهية ويكتب بينهما بخط جميل الآيات الأولى من السورة التي وصلها. وقد تقيم أسرة الطالب وليمة لطلاب الخلوة. وفي اليوم التالي للشرافة يحمل الطالب لوحه المزخرف ويذهب به إلى السوق ليظهره للناس وهو ينتقل من محل إلى آخر ويتقبل العطايا وغالباً ما تكون قطع نقود. إلا أن هذه العادة ليست شائعة. وقد تصاحب وليمة الشرافة هدية مقدمة من أسرة الطالب للشيخ تتوقف من حيث الكم والنوع على عدة عوامل من بينها الوضع الاقتصادي لأسرة الطالب والدرجة التي وصل إليها الطالب في حفظ القرآن، فتزيد قيمة الهدية كلما تقدم الطالب في حفظ القرآن وقد تكون أكبر إذا كان الطالب يحتفل بشرافة ختم القرآن.

ملحق(2)
عن غانِمَيْ الطبقات الكُردفانييْن

بقلم: السفير الدكتور د. خالد محمد فرح

لاحظ شيخ المؤرخين السودانيين قاطبةً، في الوقت الحالي، الأستاذ الدكتور يوسف فضل حسن، حيَّاهُ الله ومتَّعه بالصحة والعافية، في معرض تقديمه لتحقيقه الضافي والمُسدَّد لكتاب: ''الطبقات في خصوص الأولياء والصالحين والعلماء والشعراء في السودان''، الذي يُعرف اختصاراً ''بطبقات ود ضيف الله''، لمؤلفه الشيخ محمد النور بن ضيف الله 1727 – 1810م، أنَّ السواد الأعظم من الأعلام الذين ترجم لهم ود ضيف الله في مصنفه ذاك الأيقونة في بابه في مجال التوثيق والكتابة التاريخية في السودان، ينتمون إلى منطقة الوسط النيلي، أي تلك الرقعة الجغرافية التي تمتد ما بين دنقلا شمالاً ، وحتى سنار وأحوازها جنوباً، شاملة ما بين ذلك من سائر بلاد الجزيرة، وضفاف النيلين الأزرق والأبيض، وبعض أطراف البطانة. كما لاحظ مُحقاً أنَّ كتاب الطبقات، قلَّما اشتمل على تراجم لأعلام آخرين من خارج تلك الرقعة المذكورة، وأنه قد ضم بالفعل بضع إشارات نادرة لأعلام من مناطق أخرى طرفية في سلطنة الفونج، مثل بلاد التاكا بالشرق، وكردفان بالغرب.

وقد برَّر البروفيسور يوسف فضل ذلك إما بقلَّة محصول المؤلف ود ضيف الله من المعلومات الكافية عن أعلام بأعيانهم في تلك المناطق، أو بأنه لم يسمع بهم بالكلية، غالباً بسبب بعد أماكن نشأتهم وسكناهم عن منطقته هو ''أي الحلفاية''، وانعدام أو تعذُّر سبل التواصل فيما بين أصقاع السودان المختلفة والمترامية الأطراف في ذلك العهد البعيد نسبيا وقد لاحظنا نحن أيضاً، أنه حتى في الحالات النادرة التي كان يعمد فيها ود ضيف الله إلى تدوين تراجم لمشايخ من خارج تلك المنطقة المذكورة ، فإن تلك التراجم على قلتها، تكون عادة مقتضبةً للغاية، وليس فيها تفاصيل كثيرة، وإن لم يخل بعضها بالمرة عن بعض المعلومات المهمة، والبيانات المفتاحية، التي من شأنها أن تغري الباحث المهتم، بمزيد من التساؤل ، بل الاستقصاء والتعمُّق، وبما يؤدي بالتالي إلى رفد الجهد المعتبر الذي اضطلع به البروفسور يوسف فضل من أجل تحقيق هذا الكتاب، ببعض الإضاءات الباهرة والمفيدة لنصه الذي ما يزال قابلاً – في تقديرنا – للمزيد من الدرس والتمحيص والتأويل والتفسير.

ومن بين الشخصيات الكردفانية القليلة التي ترجم لها ود ضيف الله باقتضاب شديد في كتابه، الشيخان: غانم أبو شمال الجامعي الكردفاني، وغانم الأحمدي. وقد جاء نص ترجمة الشيخ غانم أبو شمال في الطبقات كما يلي: ''غانم أبو شمال الجامعي الكردفاني. شرح السنوسية شرحاً مفيداً وقال في آخر شرحه لها: قرأنا التوحيد عند علي ولد بَرِّي وأدركنا وفاته. وبعده بدأنا القراءة عند الفقيه

" أرباب"، وبعدنا بقيت مدرسة عظيمة". وجاء في ترجمة الشيخ غانم الأحمدي بعدها مباشرة في ذات الصفحة من الكتاب "غانم الأحمدي". قدم من بلاد كون بزوجاته وأولاده وسكن جبيل أولى من البحر الأبيض، وقال أذن له الرسول في ذلك. وتزوج عايشة الفقيرة بنت ولد قدَّال الصالح. زوَّجه إياها الشيخ إدريس، وولد منها بُساطي بن الفقيرة وكان عبداً صالحا ". أ. هـ (كتاب الطبقات، تحقيق يوسف فضل حسن، الطبعة الثانية، دار جامعة الخرطوم للنشر، 1974م، صفحة 311). وعلى سبيل التحقيق، يذكر البروفيسور يوسف فضل في الهوامش السفلية بذات الصفحة، أن "بلاد كون" هي المنطقة المحيطة بجبل " كون " الذي يقع على بعد 130 كيلومتراً إلى الشمال الشرقي من مدينة أم روابة قصبة بلاد شرق كردفان، موضحاً أن منطقة " كون" تلك، تقطنها – أي حين تحقيق الكتاب وإلى أوان صدوره في أوائل السبعينيات من القرن العشرين -قبائل البَزَعة والضُباب والجوامعة.

واستطراداً على ذات المعلومة التي أوردها ود ضيف الله من أنَّ الشيخ غانم الأحمدي قد تزوَّج عايشة الفقيرة بنت ولد قدَّال، وأنه أنجب منها ابنه بُساطي، استنتج المحقق تخميناً أن يكون البُساطاب الذين يعيشون حول جبل أولياء، أي فيما يُعرف الآن ب " ديم البُساطاب « من ذرية الشيخ بساطي بن غانم" المذكور. (الطبقات، 1974م، ص 311). ويلاحظ يوسف فضل كذلك، أنَّ السير هارولد ماكمايكل لم يورد في كتابه: "تاريخ العرب في السودان"، ترجمة منفصلة ومستقلة لغانم الأحمدي، وإنما أضاف ما ورد عنه بالطبقات، لترجمة غانم أبو شمال الجامعي. ولعل ذلك الصنيع من ماكمايكل قد حدث منه سهواً، من جراء قصر الترجمتين وقلة تفاصيلهما، وربما خصوصاً بسبب اشتراك العلمين المترجم لهما في الاسم الأول " غانم "، مما يجوز أنه قد أوقعه في ذلك الوهم والالتباس.

والذي نود أن نضيفه وأن نؤكِّد عليه في هذا الجانب من هاتين السيرتين القصيرتين والمتعاقبتين لهذين الشيخين الكردفانييْن: غانم أبو شمال الجامعي، وغانم الأحمدي، أنه قد كانت هنالك دائماً صلات قربى عرقية وجغرافية لصيقة ومتواشجة بين الجوامعة والأحامدة. فكلا هاتين القبيلتين– كما يقول النسَّابة الوطنيون في السودان – تنتميان إلى ما تسمى بالمجموعة الجعلية العباسية، بل إنهما في الواقع أبناء عمومة لزم كما يجري بذلك التعبير العامي. الجوامعة هم أبناء جامع الأحمر بن أحمد فهيد بن سعد الفريد بن مسمار بن سرار بن كردم بن أبي الديس إلى آخر النسب المعروف لدى سائر المشتغلين بهذه المسائل، بينما أن الأحامدة هم أبناء حامد بن أحمد فهيد بن سعد الفريد بن مسمار. ويشترك معهما في الانتماء إلى ذات الجد القريب "سعد الفريد" كلٌّ من الجِمِع المعروفين بالنيل الأبيض، وكذلك الحاكماب الذين يبدو أنهم قد توغلوا بهجرتهم شمالاً حتى وصلوا إلى ديار الدناقلة، فصاروا ملوكاً على أرقو ونواحيها. ذلك بأن حاكم جد الحاكماب، هو ابن سلمة بن سعد الفريد المذكور، كما هو مذكور في أشجار النسب التقليدية.

ويميل كاتب هذه السطور إلى الاعتقاد بأن ديار الأحامدة الأصلية قد كانت بالفعل في شرق كردفان

في حوالي جبل ”كون“ المذكور، ولعلهم قد نزحوا من هناك في زمان ما، لكي يقطن معظمهم إلى الآن في الأطراف الجنوبية الغربية لولاية النيل الأبيض، وهي مناطق ليست بعيدة حقاً عن موطنهم الأصلي في كردفان كما نرجِّح. ولعل مما يعضد فرضيتنا هذه، أنَّ زمان الشيخ غانم الأحمدي زمانٌ متقدمٌ نسبياً، لأنه معاصر للشيخ إدريس بن محمد الأرباب 1507–1651م، لأنه هو الذي زوَّجه بالفقيرة عائشة بنت ولد قدَّال كما جاء في ترجمته بالطبقات. هذا مع العلم بأن الشيخ غانم الأحمدي قد قدم إلى منطقة جبل أولياء، وهو رجل راشد له زوجات وأولاد من قبل ذلك سلفاً، وليس مجرد شاب حدث.

أما الشيخ غانم أبو شمال الجامعي، فقد كان من رجال القرن السابع عشر الميلادي على الأرجح؛ لأنه من تلاميذ الشيخ علي بن بَرّي 1603– 1663م، وبعد وفاة علي بن بَري انتقل إلى الدراسة على يد الشيخ أرباب بن علي بن عون الملقب ”بأرباب العقائد“، الذي وُلد وترعرع بجزيرة ” توتي“، وتوفي ودفن بمدينة سنار في عام 1691م. ومما وقفنا عليها من معلومات إضافية في سيرة الشيخ ” غانم أبو شمال“، لم يوردها ود ضيف الله في ترجمته إياه بالطبقات، أن اسمه هو ”غانم بن فتح الله“، وأنه ينتمي إلى قبيلة الجوامعة فرع الفِضيلية الفتحاويين أو ” الفطحاويين“ كما تُنطق محلياً هكذا، ولعلها نسبة لوالده فتح الله المذكور، أو جد بعيد آخر له اسمه ” فتح الله“ أيضاً، وليس ذلك بمستبعد.

والجوامعة الفضيلية يتركَّزون حالياً في مدينة الرهد أبو دكنة، وبعض القرى المجاورة لها مثل: النويلة، والبلداية، وتَب الفضوة، وتَب الحَلُّوف، وأبو رهابة، ورادونا وغيرها، كما أن عمودية مدينة الرهد نفسها، هي في بيت من أعرق بيوت الفضيلية. ومن أحفاد الشيخ غانم أبو شمال المذكور، الشيخ محمد العجمي بن منوفل، الذي يُكنى بالعجمي أبو سُلطانة، والذي يوجد ضريحه في قلب مدينة الرهد بجوار مركز الشرطة. ومن ذرية الشيخ غانم أبو شمال أيضا، آل الشيخ أحمد البدوي بن يوسف التجاني بالرهد كذلك. هذا، وبلغنا أن الشيخ غانم أبو شمال مدفون في ضريحه الكائن بقرية ” أم ديوان“ شمال الرهد، وعلى مسافة قريبة منها.

على أن من آيات التلازم المدهش، بل ربما المُفضي إلى نوع من الحيرة والاضطراب، بين سيرتيْ هذين الشيخين الغانمين الكردفانيين، أعني: غانم الأحمدي وغانم أبو شمال الجامعي، أنه ما تزال توجد إلى الآن مقابر بمنطقة جبل أولياء، تُعرف إلى يوم الناس هذا باسم مقابر « الشيخ غانم أبو شمال“. فكيف صار ذلك؟ وغانم أبو شمال المعروف لا علاقة له بهذه المنطقة بتاتاً، ولا يرد في سيرته أنه مرَّ بها أو عاش فيها، وإنما درس في صباه في ” الجزيرة نَسرِي ” عند الشيخ علي ود بَري، ثم انتقل منها إلى توتي أو الخرطوم لكي يدرس على يد الشيخ أرباب العقائد، ثم رجع إلى موطنه بشرق كردفان، لكي يقضي باقي حياته مُرشداً ومعلماً، إلى أن وافاه الأجل المحتوم فتوفي ودُفن بقرية ”أم ديوان“ شمال الرهد كما مر ذكره. فهل خلط أهل جبل أولياء بينه وبين شيخهم

المعنِي وهو غانم الأحمدي، مثلما حدث لمكمايكل؟ أم عسى أن يكون غانم أبو شمال المذكور في هذا السياق، هو أحد أبناء الشيخ غانم الأحمدي، أو لعله لقب لأحد أحفاده سُمي تيمناً بالشيخ غانم أبو شمال الجامعي الفضيلي الفتحاوي، مما يشي باحتمال راجح للتعارف والتواصل، وربما التصاهر فيما بين هاتين الأسرتين الصوفيتين، وليس ذلك بمستبعد أيضا.

ومما نود أن ننبه إليه أيضاً ، وخصوصاً فيما يلي المعلومة التي أثبتها ود ضيف الله في الطبقات عن زواج الشيخ غانم الأحمدي من الشيخة عايشة الفقيرة بنت ولد قدَّال بوساطة من الشيخ إدريس بن محمد الأرباب ، هو أن عائشة الفقيرة بنت ولد قدَّال ، وهي قريبة الشيخ خوجلي بن عبد الرحمن 1645 – 1743م ومعلمته القرآن في طفولته، لا علاقة لها بالشيخ القدَّال بن إبراهيم الفرضي الذي ينتمي إلى الفرضيين الذين كانوا يعيشون بمناطق المناقل وأم طلحة بغرب الجزيرة كما ذهب إلى ذلك ماكمايكل مخطئاً، ووافقه على ذلك كل من يوسف فضل ضمناً ، وكذلك عون الشريف قاسم. فأولئك الفرضيون هم رفاعيون، بينما أن عايشة الفقيرة بنت ولد قدَّال محسية القبيلة، من محس توتي والخرطوم الكبرى. وهي خالة الشيخ خوجلي علاوة على أنها كانت مربّيته في صغره كما تقدَّم، لأنها ابنة الشيخ خوجلي ولد قدَّال المحسي، بينما شقيقتها والدة الشيخ خوجلي، هي ضَوَّة بنت خوجلي ولد قدَّال فيما بلغنا. وقد حدَّثني الخليفة الأستاذ مجاهد أحمد النور الزاكي التجاني، نقلاً عن النسَّابة الحاذق المعاصر أبي عامر الكنزي التوَّاتي، أنَّ عائشة الفقيرة بنت ولد قدَّال، والدتها تسمى: "الرُقاقة بنت محمد الأرباب"، أخت الشيخ إدريس ولد الأرباب، فهي ابنة أخته وهو خالها.

والشيء بالشيء يُذكر كذلك، فنحن لا ندري ماهي ظروف وملابسات وجود جيوب من قبيلة الأحامدة بمنطقة جبل أولياء وريف الخرطوم الجنوبي عموماً إلى يوم الناس هذا، مثل قرية "طيبة الأحامدة " على سبيل المثال، وهل لذلك الوجود علاقة بانتقال الشيخ غانم الأحمدي من موطنه السابق بشرق كردفان، واستقراره بمنطقة جبل أولياء، وهل هنالك صلة قربى بين أحامدة جبل أولياء من ذرية الشيخ غانم المذكور، وبقية بطون الأحامدة الذين يقطنون في ذات المنطقة.

ملحق (3)

الحاج عمر ملي... مهاجر إلى الله!

بقلم: محمد التجاني عمر قش

قامت لتمنعني المسير تماضر أني لها وقرار عزمي باتر
إن هاجر الانسان عن أوطانه فالله أولى من إليه يهاجر
يا من يسافر في البلاد منقبا إني إلى البلد الحرام مسافر
سأروح بين وفود مكة وافداً حتى إذا صدروا فما أنا صادر

الاشواق التي دفعت الإمام الزمخشري، صاحب الكشّاف، إلى الهجرة، بعد أن برح به الشوق، فودع زوجته تماضر وعيناها تفيض من الدمع لفراقه، وتوجه صوب البلد الحرام، هي نفس تلك الأشواق التي أخرجت الحاج عمر إبراهيم خليل من مالي قاصداً مكة المكرمة. فمنذ أن سطعت مطالع النور المحمدي على مكة المكرمة، ظلت أفئدة من الناس تهفوا نحو الديارة المقدسة وتأوي إليها ملبية النداء الرباني: وأذّن في الناس بالحج يأتوك رجالاً وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق. وقد سلك الناس، في هذه الرحلة، سبلاً وطرقاً متعددة ومتنوعة؛ إذ جاءوا من كل بقاع الدنيا وأصقاعها؛ ولذلك لا غرو أن تختلف الطرق التي يسلكونها، وتتعدد وسائل نقلهم، ومدة رحلاتهم وتجارب سفرهم، والمناطق التي يمرون بها، فيؤثرون في ثقافات وأفهام وعادات أهل تلك الديار، ويتأثرون بها بذات القدر.

لقد كان الحاج يقطع المسافة من سجلماسة في المغرب وتمبكتو في مالي حتى يبلغ سواحل البحر الأحمر، وهو لا يحمل سوى قليل من المتاع، ويظل مرحباً به حيثما حل حتى يبلغ أرض الحجاز وهو في مأمن، لا يمسه سوء، ولا يعاني إلا من تعب السفر ومشقته. وحسبما أفادني به حفيده الفكي محمد يحي المعلا، فقد ولد الحاج عمر إبراهيم ملي، نسبة لقبيلة ملي، في عام 1850 ميلادية في قرية تسمى "زندة" تقع في منطقة "غاوو" التي كانت ضمن مملكة سنغاي، في دولة مالي الحالية، وعاصمتها تمبكتو. وقد ظلت سنغاي قائمة لما يزيد عن خمسة قرون، وهي إحدى أهم ممالك غرب إفريقيا الإسلاميّة، وهي تشمل مملكة برنو في مايدوغري، ومملكة واداي في شرق تشاد وعاصمتها أبشي، ومملكة عثمان دان فوديو في سوكتو، ثم سلطنة الفور وعاصمتها الفاشر.

كانت قوافل الحجيج تتحرك عبر الصحراء من مراكش وطرابلس وتلمسان إلى تمبكتو ثم أبشي في تشاد ومنها إلى الفاشر وصولاً إلى الحجاز عن طريق سواكن. وفي أثناء تلك الرحلة، كان الحجيج، في بعض الأحيان، يقيمون حيثما طاب لهم المقام ويصبحون جزءاً من النسيج الاجتماعي المحلي

ومن ثم يستأنفون رحلتهم نحو الديار المقدسة. وهذا ما فعله الحاج عمر ملي. فعندما بلغ الثلاثين من عمره، وبعد أن حفظ أجزاءً من القرآن الكريم، على يد عدد من المشايخ في غاوو، يمم الحاج عمر صوب المشرق سالكاً طريق الحج الذي كان يمر بواداي وعاصمتها أبشي، ودخل السودان عبر دار مساليت والجنينة ومنها إلى فاشر السلطان عاصمة سلطنة الفور، سيراً على الأقدام حتى بلغ كردفان، ومر على مركز الطريقة التجانية في خرسي، وأخيراً وضع عصا الترحال عند الفكي عيسى ود الناير في حلة الفكي في منطقة الخيران التي تقع شمال بارا.

مكث الحاج عمر في تلك المنطقة حوالي سبع عشرة سنة، أكمل خلالها حفظ القرآن الكريم. وبما أنه كان محباً للعلم فقد تزود منه بالشيء الكثير، وكان من شدة حرصه، يسأل عن الكلمة أو المسألة الواحدة حتى يفقهها جيداً، كما اشتهر الحاج عمر بالزهد والتقشف. تزوج الحاج عمر في تلك الفترة من زوجته الأولى مشبرة بنت عبد الحي، التي قتل أبوها في دار "الكتلة" على يد قوات "الختيم" موسى عامل الخليفة عبد الله على كردفان آنذاك، وانجبت له مشبرة بنته خديجة.

توجه الحاج عمر من بعد ذلك نحو الحجاز لأداء فريضة الحج حيث مكث سبعة سنوات بين مكة والمدينة المنورة مواصلاً بحثه عن العلم الشرعي والاستزادة منه. وتزوج مرة أخرى في مكة ولا يزال له عقب هناك من حفيدته الرحمة. وبعد ذلك غفل راجعاً إلى السودان حيث عاد إلى حلة الفكي وزوج بنته خديجة والدة الراوي الفكي محمد يحيى. ومن ثم بدأ الحاج عمر البحث عن خاله الفكي أبكر حتى عثر عليه في قرية الحاج موسى جنوب القطينة وأقام معه فترة من الزمن وتزوج بواحدة من بناته! وقد لحق بالحاج عمر فيما بعد نفر من أقاربه واستقروا في مناطق متفرقة منها قرية البرداب في ولاية جنوب كردفان، وفي قرية ود الجترة في النيل الأبيض. ولا يزال بعض أحفاد الحاج عمر يقيمون بقرية التكينة شرقي سنار حيث توفي وقبر في عام 1940.

وما هذا إلا جزء يسير من سيرة هذا الرجل الزاهد، رحمه الله، أوردنها نموذجاً لتأثير طريق الحج الإفريقي اجتماعياً وثقافياً وحضارياً. فهؤلاء هم أحفاد الحاج عمر ملي يحتلون أرفع المناصب في الدولة بعد أن صاروا جزءً من المجتمع السوداني الذي اختلطوا به، ولا يزالون يسيرون على نهج سلفهم من زهد وتقوى؛ ولذلك فهم محل احترام وتقدير حيثما حلوا.

ملحق (4)
ملامح من العلاقات الثقافية والدينية بين السودان وبلاد شنقيط

إبراهـــيم الـــدلال

بلاد شنقيط بلاد المنارة والرباط وأرض المليون شاعر، وبلاد البدو العلماء الذين كسروا ولأول مرة في التاريخ قاعدة تناقض العلم والبداوة، وقد تحير أحد علماء الاجتماع من الفرنسيين في هذه الظاهرة الفريدة. وقال: (لأول مرة في التاريخ يظهر مجتمع بدوي يكثر فيه العلماء الذين يدرسون علوم القرآن ومصطلح الحديث وفروع اللغة، والتاريخ، والمنطق، والموسيقى. (ولا تستغرب إن قيل لك إن ناقة (المختار ول بونا) أو ناقة (سيدي عبد الله ول حاج إبراهيم) أو ناقة (محنظ بابا ول عبيد الديماني) هي عبارة عن جامعات متحركة وأنها تضاهي جامعة القرويين بفاس-وهي أول جامعة أنشئت في العالم الإسلامي – وتضاهي جامع الزيتونة بالقيروان، وتضاهي الجامع الأزهر بالقاهرة. قال المختار ول بونا:

ونحن ركب من الأشراف منتظم أجل ذا الكون قدراً دون أدنانا

قـــد اتخذنا ظهـــور العيس مدرســـة بها نبين ديـــن الله تبيانا

العالم التركزي الشنقيطي

ولكيلا يكون الكلام جزافاً أسوق لك بعض الأمثلة فإن ابن التلاميذ التركزي الشنقيطي ناظر علماء الأزهر وألقوا له السلاح وقد ذكره طه حسين في كتابه الأيام وقال إنه طلب من علماء الأزهر أن يجلسوا له جلسة التلاميذ، علماً بأن ابن التلاميذ هذا لم يكن في بلاد شنقيط بهذا الصيت والشهرة التي حققها في المشرق. إن العلاقة بين بلاد شنقيط والسودان علاقة مقدسة أسست على التقوى، أسسها رجال في شموخ المآذن وإن كانوا من الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً وكذلك المجيدري ول حب الله اليعقوبي وقد بهر علماء الأزهر بقوة الحفظ والاستظهار، والمجيدري هذا جدته سودانية من بربر وقد زار السودان في زمن التركية.وتحير علماء الأزهر في علم (القارعة السمسدية) وهي امرأة من بلاد شنقيط كتب عنها أحمد حسن الزيات في مجلة الرسالة. وقد قال العلامة عبد الله الطيب المجذوبي: إن سبب النهضة الأدبية بمصر قدوم العلماء الشناقطة من الغرب. وسئل العلامة محمود التشيتي – وهومن شيوخ الإمام المهدي وكان المهدي يجله ويحمله على عنقه – سئل هل أعلم أنتم – أي الشناقطة – أم المصريين؟ فقال: إذا كانت الشموع متقدة فإنهم يتذاكرون معنا أما إذا اطفئت

الشموع فهم بلا فائدة، قصد بذلك أنهم يعتمدون على الكتب والمراجع، بينما يحمل العلماء الشناقطة علومهم في صدورهم.

وذلك هو عين نعت الأمة المحمدية في العهد القديم (إنهم يحملون أناجيلهم في صدورهم). إن العلاقة بين بلاد شنقيط والسودان علاقة مقدسة أسست على التقوى، أسسها رجال في شموخ المآذن وإن كانوا من الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً، وفي مقدمة هؤلاء الشريف الإدريسي سيدي محمد المختار التشيتي الشنقيطي ويعتبر هذا السيد ومعه الشيخ مولود فال الدغبي أول من نشر الطريقة التجانية في السودان.والسيد محمد المختار هو صاحب كتاب الواردات، وهو عبارة عن (أمالي عرفانية) أملاها السيد على تلميذه الأديب والشاعر الفذ الشيخ عبد الرحيم الغبشاوي، وبعد موت الشيخ عبد الرحيم توافر عليها العالم الجليل الفكي حسن الجعلي الجودلابي.وكتاب الواردات هذا من روائع الفكر الصوفي الإسلامي، ويمكن وضعه وبلا تردد في مصاف الفتوحات المكية للشيخ الأكبر ابن عربي، والإنسان الكامل للشيخ عبد الكريم الجيلي. ومقدمة الواردات الرائعة كتبها الفكي حسن الجودلابي، وقد راجع الكتاب العلامة السيد محمد الحافظ بن عبد اللطيف التجاني المصري.

ومن مؤلفات هذا السيد – أي السيد المختار – مولده المشهور بمولد إنسان عين الكمال وهو من قلائده السائرات في الأرض، وله ديوان شعر يعرف بترياق الفهوم وله ديوان شعر كتبه بالعامية السودانية.

ومن تلامذة السيد محمد بن المختار العلامة القاضي أحمد قاضي المتمة والأديب الشعارة الشيخ عبد الرحيم الغبشاوي، ومنهم الشيخ محمد الخير الغبشاوي أستاذ المهدي ومن تلامذته الأعيان الشيخ سعد الدين الفلاني الملقب بسيبويه زمانه، ومنهم الشيخ الطاهر بن التلب الحيمادي والشيخ الهدي الشايقي.

وقد تتلمذ على هذا السيد رجال كان لهم أبعد الأثر في تشكيل الهوية الثقافية في السودان وقد ألمح إلى هذا الدكتور محمد إبراهيم أبو سليم في ورقة كتبها عن دخول الإسلام في السودان وأثر الطرق الصوفية في دخول الإسلام.

علماء الشناقطة بالسودان

ومن علماء الشناقطة المؤسسين لهذه العلاقة المقدسة الشيخ محمد فاضل "ول" الخرشي المدفون (بأمات نواوير) من ديار الكبابيش، وقد كان العباسي – رحمه الله – يختلف اليه ويضرب له أكباد الإبل ويتذاكر معه العلم والأدب، وداعبه العباسي مرة بقوله: " لماذا لا تأكل المرارة وهي حلال في مذهبك؟" – أي مذهب الإمام مالك – فرد عليه ولماذا تأكلها أنت وهي حرام في مذهبك؟ وقد كان العباسي – رحمه الله – يتعبد بمذهب الإمام الأعظم أبي حنيفة النعمان. ومنهم العلامة المتفنن الشيخ محمد السالك ول خي (دفين المزروب)، وقد تتلمذ عليه نخبة من العلماء الأجلاء، على رأسهم الولي الكامل والعالم العامل الشيخ عبد الباقي أبوه والعالم موسى عبد المجيد الجامعي والشيخ عبد الرحيم

البشير البزعي من أهل مليحة والشيخ عبد الرحيم ود وقيع الله المشهور بالبرعي واستفاد منه غاية تلميذه ولزيمه الحاج الشيخ ود الزاكي.وكتب عنه الفاتح النور في كتابه (التجانية والمستقبل) وأفرد له ترجمة وافية.والشيخ محمد السالك هذا أخذ من كل فن بطرف، وله في النحو اليد الطولي، وقد نظم قطر الندى لابن هشام ونظم الأجرومية وأضاف أبياتاً لألفية ابن المالك، واستدرك على ابن قتيبة في أدب الكاتب.ومنهم صاحب السر الجامع الشريف أحمد حماه الله صاحب كتاب فتح الرحمن – ترجم له الدكتور عمر مسعود في سياق كلامه عن الرجال الذين نشروا الطريقة التجانية في السودان وترجم له الصحفي البارع الفاتح النور ترير في كتابه التجانية والمستقبل.ومنهم العالم الجليل والعبد الصالح الشيخ إبراهيم ول الطاهر تلميذ الشيخ محمد حبيب الله ول مايابي صاحب زاد المسلم – ولزيمه بالأزهر الشريف.ومنهم عالم القضارف الأول في زمانه غير مدافع الشريف محمد الحبيب وكان يحفظ مادة الحطاب في الفقه المالكي وهذا من الأعاجيب.ومنهم عالم بارا وخطيبها المصقع محمد حبيب الله. ومنهم عالم نيالا الفذ (ول زيدان) ومنهم فقيه الأبيض النابه الشيخ الداه الشنقيطي صاحب التآليف المفيدة، ومنهم عالم سنار الشيخ محمد الأمين الشنقيطي وهو على قيد الحياة.ومنهم محمد صالح الشنقيطي السياسي والقانوني المرموق وقد أوقف مكتبته العامرة على طلاب الدراسات العليا بجامعة الخرطوم وقد ترجم له الأستاذ محجوب باشري في كتاب رواد النهضة السودانية.

الطريق إلى المسجد الحرام

وقد مر كثير من علماء الشناقطة بالسودان ميممين شطر المسجد الحرام وفي مقدمة هؤلاء الولي الخطير والعلامة المتفنن الذائع الصيت الشيخ ماء العينين الحسني .كتاب الواردات من روائع الفكر الصوفي الإسلامي، ويمكن وضعه وبلا تردد في مصاف الفتوحات المكية للشيخ الأكبر ابن عربي، والإنسان الكامل للشيخ عبد الكريم الجيلي، وقد ترجم له صاحب كتاب (طبقات المالكية) وترجم له الخليل النحوي في كتابه (بلاد شنقيط المنارة والرباط) وعدد له أكثر من مئة مؤلف في شتى الفنون، وفي طريق عودته من الحج صحبه الشيخ الريح السنهوري تلميذاً واللهيبه الكباشي ثم الربيقي خريتا وقد أقام معه هذان الرجلان حولاً بوادي الذهب من بلاد صحراء تندوف.

أما الشريف الهادي الحسني شقيق الشيخ ماء العينين فقد أقام بالسودان وسكن بالشمالية وله فيها عقب، والهادي هذا قيل عنه أنه لو ألقيت كتب المذاهب الأربعة في البحر لأملاها من حفظه والله أعلم.أما الشيخ مولود فال المعروف بـ(مفتاح الأقفال)، فقد مر بالسودان وزار الأبيض والتقى بالشيخ إسماعيل الولي المعروف بقنديل كردفان، وناوله كتاب جواهر المعاني لسيدي على حرازم براده فنظر فيه وقبله ووضعه على رأسه وتتلمذ على هذا الشيخ الجليل العلامة محمد ولد دوليب راجل خرسي، وينتظم في هذا السند أعلام في شموخ الأعلام، منهم العلامة ود الزاكي والشيخ محمد البدوي شيخ

الإسلام والشيخ إبراهيم التليب، وإبراهيم هذا هو الذي رثاه العباسي بقصيدة طنانة وكتب عنه نجيلة تحت عنوان الشاعر المجهول.وقدم إلى السودان في سياق هذه الرحلة الحجازية المقدسة الشيخ محمد المجتبى البوصادي وقد تتلمذ عليه الشيخ الفاتح قريب الله ود أب صالح الطيبي.ومن علماء شنقيط بالسودان الولي الكبير وشيخ الطريقة التجانية الشيخ محمد سنموي دفين مليط وقد كتب له السلطان عبد الحميد فرماناً يأمر فيه بإكرامه أينما حل في الإمبراطورية العثمانية وقد لازم السلطان علي دينار في آخر حياته. ومن تلاميذه الملك أحمد ايه ملك البرتي.

ومنهم العالم الجليل عبد الله بونا الناصري، كانت تتجاذبه المدامر بين " الكوكيتي" و" أبو رقاشة" ورهد ود أقروب من ديار دار حامد وكان يحفظ طرة ول بونا على ألفية ابن مالك المعروف بالاحمرار وله المعرفة التامة بكتاب سيبويه الذي عده الإمام الذهبي من مفاخر دولة الإسلام.وقد عمل الناصري هذا قاضياً للأحوال الشخصية ردحاً من الزمان بالكوكيتي.ومن علماء الشناقطة الأجلاء الشيخ سيدي محمد ول فادوه الداودي وقد كان مبرزاً في علم الفرائض.ومنهم العالم الجليل والراوية الثبت الشيخ محمد محمود التاقنيتي.ومنهم الشيخ محمد عبد الله إسماعيل بمليط وكان يحفظ مختصر خليل والشيخ محمد محمود ول الجيلاني العلوي والشيخ سيدي أحمد العلوي ومنهم المحفوظ ول أبات من مقدمي الأغلال.

ومنهم الراوية السيري الشيخ محمد محمود الدلال. ومنهم العالم الجليل الشيخ عبد الله محمد الأمين واشتهر بالعلم وتحفيظ القرآن.

شعراء الشناقطة بالسودان

ومن شعراء الشناقطة بالسودان الشاعر الفحل مولود ول ايجه صاحب تلك القصيدة التي يصف فيها رحلة بين أم بادر وأم قوزين على متون إبل عبد الله الخير العايدي. وقد مدح السيد عبد الرحمن المهدي بقصائد جياد ومدح الملك عبد العزيز آل سعود بقصيدة طنانة مطلعها:

قم ناج رسما محيلا لا ترى طللَهْ ولا حبيبا بأيام الصبا نزلهْ

ومن شعرائهم الشاعر الكبير مولاي أحمد عباس الملقب بـ "أبو سنينة" وهو الآن بنواكشوط، ورغم بعد الشقة وتطاول الزمن إلا أن حبه للسودان لم يتغير فهو يذكر السودان عامة وأحبابه الكبابيش خاصة:

لعمرك ما ينسى الكبابيش ماجد يقدر في الناس الحجا والمحامدا

وقوله:

إن أنسى لا أنسي مهما طال نسياني يا بن الكبير ليالي أم درمان

ومن شعرائهم الشاعر الفصيح والعروضي الماهر محمد الأمين ول سيدي عبد الله البوصادي.وزار بلاد شنقيط من علماء السودان شيخنا العارف بالله يوسف إبراهيم ولد بقوي الجعلي دفين "أم طلحة" ريفي المناقل في وفد من علماء التجانية ضم مولانا الشيخ محمد طه التجاني والشيخ محمد الطاهر يوسف شيخ الطريقة التجانية بـ"أبو جبيهة". وجاب بلاد شنقيط الرحالة المعمر الشريف محمد أحمد أبو عبد الله دفين كوستي وقد ساح في أرض الحوض وكوش من بلاد شنقيط. وزارها أيضاً البحاثة المرحوم الطيب محمد الطيب.وزار بلاد شنقيط أديب السودان الفذ الطيب صالح وله إخاء مع بعض علمائها لعله ول الرابي وقد ذكره الطيب في بعض مقالاته وهو الذي أرشد الطيب صالح لشعر ذي الرمة غيلان... وقد كتبت بنت هذا الرجل مقالاً ضافياً في تأبين الطيب صالح نشرته جريدة الأحداث الغراء.

وكتب الطيب معلقاً على بيت المتنبي:

رمى الدرب بالجرد الجياد إلى العدا وما علموا أن السهام خيول

والدرب هو الخط الفاصل بين العراق والشام أخبرني بذلك العلامة محمد سالم ول عدود. ومحمد سالم ول عدود من أكابر علماء الأمة المحمدية في آخر الزمان وبموته فقدت موريتانيا عالماً قل أن يجود بمثله الزمان ولله ما أعطى ولله ما أخذ.وقد بعث لي الدكتور خالد محمد فرح من داكار بمداخلات كتبها العالم الجليل الخليل النحوي تعليقاً على مقال كنت قد نشرته بالأحداث.

وأقول إنها لخدمة جليلة لأواصر الإخاء والعلاقات الثقافية المؤسسة على التقوى كما أسلفت بين السودان وبلاد شنقيط من يكون الخليل النحوي معنا على الخط وتلك لعمري صفقة حضرها حاطب وقام على أمرها سادن بيت الثقافة السودانية السفير خالد فرح.وخالد الفحل هذا امتداد لجيل العماليق من أدباء الخارجية الأفذاذ الذين توافروا على الثقافة الجادة من أمثال المحجوب وجمال محمد أحمد ومنصور خالد وعلي أبو سن وغيرهم.الشناقطة خاصة والمغاربة عامة، يعتبروا من المؤسسين للهوية العربية الإسلامية بالسودان من لدن السلطنة الزرقاء، وقد كتب أحد الشناقطة كتاباً عن تاريخ الممالك السنارية.

سل يا خالد الخليل النحوي عن الدكتور محيي الدين صابر؛ ذلك النوبي العربي الخزرجي وعن دوره في حماية آثار مدينة شنقيط التاريخية وما هي علاقته بسفره القيم "بلاد شنقيط المنارة والرباط". عموماً يعتبر الشناقطة خاصة والمغاربة عامة، من المؤسسين للهوية العربية الإسلامية بالسودان من لدن السلطنة الزرقاء، وقد كتب أحد الشناقطة كتاباً عن تاريخ الممالك السنارية.وقد أشار صاحب التصانيف المفيدة؛ أستاذنا المرحوم البروفسير عون الشريف قاسم، في كتابه عن الحلفاية، إلى حلة الشناقيط ضمن مكونات الحلفاية. ولعل البروفسير عون كتب عن الحلفاية كنموذج لتكوين النسيج الاجتماعي والثقافي للمجتمع السوداني، هذا النسيج الذي أشبه ما يكون بجبة درويش يطوي قلبه على المحبة ويؤمن بوحدة الوجود.

ملحق (5)

التعليم الديني في كردفان

الأستاذ يوسف سعيد

دار كردفان عرفت قديماً في مخطوطات المؤرخين السودانيين بكردفال. ويقال إن التسمية ربما ترجع للمك أو الملك حسن كردم الفوار والذي عرف بشدة غضبه وفورته؛ وهكذا سميت دياره وتحورت التسمية، ولكن لا تتأكد هذه المقولة من مصدر موثوق وهو أحد أجداد الجعليين المدفونين بديار كردفان أو كردفال في منطقة جبل كردفان الحالية. وما دعاني لمحاولة استقصاء تاريخ كردفان ومن سكنها، ليس هو إلمامي ببعض تاريخها، كما قد يتبادر للذهن، ولكن في واقع الأمر، وبحكم كوني أنتمي لهذه الديار، حيث ولدت وعشت فيها وكما ذكر الكاتب بله البكري في مقاله فإن (نوستالجيا الأمكنة) تأخذ بعقالي وتنوخ بكلكلي في أرجاء تلك الديار؛ لأستكثر من معرفتي بها داخل هذه الواحة، التي أعتقد أنها تضم بوادي متنوعة كلها ذات أثر في تاريخ المنطقة حيث أحاول المشاركة في الكتابة حول كردفان وتاريخ المنطقة الذي قد يكون كتبه آخرون ونحن غير مطلعين عليه.

في تقديري الشخصي فإن اسم كردفال كان محصوراً، قبل التركية، على منطقة جغرافية محدودة جداً لا تتجاوز جبل كردفان ومنطقة بارا الحالية وربما غرب مدينة الأبيض لمسافة لا تتجاوز عشرات الكيلومترات، حيث يتضح من تقلبات الأوضاع السياسية والعسكرية في دارفور المجاورة أنهم كانوا يعدون دار كردفان وعلى وجه الدقة المنطقة التي تقطنها قبائل الحمر اليوم كانوا يعدونها جزء لا يتجزأ من أراضي دارفور، حيث كانت قبيلة المسبعات (أو المصبحات) وأصولهم من دارفور قد اتجهوا مباشرة، بعد خلافهم مع أبناء عمومتهم، إلى هذه المنطقة، ولم تكن تعرف حينها بكردفان، فيما ظلت بلاد النوبة دياراً مهجورة وغير معروفة قبل أن تغزوها حملات تجار الرقيق. وعموماً البحث في هذا المجال يحتاج لمراجع لا تتوفر لي حالياً، ولكن قناعتي أن ديار كردفال التي عرفتها دولة الفونج أو السلطنة الزرقاء لم تتجاوز منطقة الأبيض الحالية، التي لم يكن لها أصلاً وجود حينئذ، ومنطقة بارا وجبل كردفان. أما المنطقة التي تقع شرق الأبيض وديار الجوامعة الحالية وشريط غرب النيل فلم تكن تعرف أيضاً بهذا الاسم (كردفال) ولم تنسب لكردفان ولدىّ أسبابي التي سأشير لها لاحقاً إن اقتضى الأمر، والمهم في الأمر سأحاول هنا استعراض تاريخ المنطقة حيث ولدت وحيث انتسب لا عصبية للمكان. سأحاول في هذه العجالة التعرض لكل ديار كردفال بأناسيها ومكوناتها الاجتماعية والقبلية، إن أول منطقة في كردفال القديمة انتسب لها جدودي كانت هي منطقة الزلطة (الظلطة) المعروفة في شمال أم دم حاج أحمد الحالية، وللحقيقة لم اشاهدها أو أزورها ولكني استقيت معلوماتي

عنها من كبار الأسرة حيث طاب لهم المقام، وصرنا أكثر ارتباطا بمنطقة بارا وما جاورها. واشير هنا إلى كتاب الشيخ محمد النور ود ضيف الله في الأولياء والصالحين المعروف باسم كتاب طبقات ود ضيف الله ففيه بعض التواريخ التي يمكن الرجوع إليها وربطها بتاريخ الأسرة والمنطقة حيث تقع قرية الظلطة شمال أم دم حاج أحمد الحالية - والتي نشأت أيضاً بعد ذلك - ومنطقة الزلطة من أقدم المناطق في كردفال حيث كانت منطقة عامرة بقبيلة أولاد (مُحمد) بضم الميم والحاء وفتح الميم الثانية) كما ينطقها أهل المنطقة، وأحياناً يسمون بني مُحُمَد، وبرغم ذكر كتاب الطبقات لهذه القبيلة إلا أنه لم يتطرق لأصلهم أو ممن ينحدرون وقد بحثت كثيراً عنهم وعن اصلهم حيث ان جدتنا الكبيرة منهم وكذا الشيخ غانم ابو شمال إلا انني أعلن فشلي في تحديد اصل قبيلتهم إلا انه تاريخياً يمكنني القول أنهم من الرياشية وهم بقية أولاد أحمد أبو الريش أخ (بدير وشويح) أحد أجداد الجعليين الذين كانوا في كردفان قبل هجرتهم للشمالية كما قرر ذلك الشيخ الفحل الفكي الطاهر في سفره المعروف أصول وتاريخ العرب في السودان. وقبيلة بني محمد تكاد تكون قد انقرضت أو ذابت في قبائل أخرى كما أن كثيراً من الرياشية ذابت في قبيلة البطاحين بحسب متابعاتي الشخصية التي اجريتها، ولكني لا أجزم بذلك، كما أن بعضهم تداخل مع قبائل النوبة في كردفان وربما كانت منهم قبائل الغديات الذين كانوا حكاماً (لكردفال) القديمة عندما كانت تحت راية حكم السلطنة الزرقاء.

وعموماً وحتى لا نوغل في تاريخ آخر فقد كان لبني محمد هؤلاء وجود ديني قوي في منطقة الظلطة وربما هذا هو الذي صوب مسير جدنا الكبير عيسى ود سليمان الرحمابي الميرفابي من ذرية إدريس الأسد. واشتهرت في الظلطة خلاوي الشيخ الفكي جودة الله ود محمد، وهو شخصية تاريخية حقيقية، وقد كانت له خلاوي لتعليم القرآن بمنطقة الزلطة قبل تدميرها بواسطة سلطان المسبعات حينها الأمير خميس ود جنقل المسبعاتي. ، والفكي جودة الله هو مؤسس خلاوي الظلطة والتي اعتبرها شخصياً أقدم الخلاوي في كردفان على الإطلاق بالرغم من أن الأستاذ الطيب محمد الطيب في كتاب المسيد لم يعدها من أقدم الخلاوي في كردفان، ولكن عندي انها قد تأسست قبل سنة 1683م المساوية لسنة أم لحم 1095هـ. وعن سنة أم لحم هذه ذكر ود ضيف الله ان تلك السنة كانت سنة 1095هـ مات فيها خلق كثير حيث أنه وعند هجرة الشيخ القدال الفرضي للمنطقة في هذا التاريخ كانت خلاوي الظلطة قائمة وموجودة قبلا وقد أورد كتاب الطبقات أن شيخ وأستاذ الفكي جودة الله المعروف باسم القدال الفرضي وفد في سنة أم لحم إلى كردفال في العام 1095هـ أي 1683م تقريباً، فيما ذكرت مراجع أخرى أن ذكر الأمير المسبعاتي خميس يرد في حروب السلطنة الزرقاء مع الأحباش في حوالي 1734م أي انه بين هذين التاريخين وقبل ان ينضم خميس المسبعاتي للفونج في التاريخ الأخير هذا كان قبلها قد دمر هو أو والده جنقل (حيث تتضارب الروايات) قرية الزلطة بسبب ولاءها للفونج في زمن الفكي مختار ود الفكي جودة الله وقتل الفكي مختار ود جودة الله المذكور كذلك في الطبقات

والمعروف باسم المختار شارح الأخضري بسبب ولاءه لحكام سنار وذلك ان مختاراً هذا وهو ابن الشيخ جودة الله ود محمد واحد العلماء المبرزين في تاريخ التصوف في السودان، وكان صوفياً عالماً وفقيهاً بعكس كثير من شيوخ أهل الطريق والأسرار حيث عرف انه الشيخ الوحيد في السودان شارح كتاب أو متن الأخضري وهو كتاب فقه في المذهب المالكي اطلعت على مخطوطة مصرية منه مكتوبة بخط اليد من حوالي (24 صفحة) لمؤلفه أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الصغير بن عامر الأخضري (983-920هـ) المولود والمتوفي ببسكرة بالجزائر وله مزار معروف هناك والكتاب له عشرات الشروحات في العالم الإسلامي ولكن اول من شرحه من علماء السودان كان هو الشيخ مختار بن محمد جودة الله عالم قرية الظلطة المقتول وقد علمت من متابعاتي الخاصة لاحقاً ان هذا المخطوط (شرح الأخضري للشيخ مختار ود محمد جودة الله) محفوظ بدار الوثائق القومية ضمن محفوظات الثورة المهدية رغم انه لا علاقة له بالمهديات ولكن لعدم اكتراث الباحثين لأمره ظل هكذا مهملاً ،– وعموماً وعندما كان الشيخ جودة الله يدرس في منطقة الزلطة حيث يقال ان خلوته كان اغلبها من التكارير والأفارقة القادمين لطلب العلم من دول الجوار قدم عليه شيخه القدال الفرضي مستجيراً به من سنة المجاعة فأكرمه الشيخ جودة الله واحسن وفادته ويبدو لي أن الشيخ الفرضي بث علمه كذلك في المنطقة لحين زوال المجاعة واستدعاؤه بعد ذلك بواسطة ملك سنار خوفاً عليه من سلطان المسبعات في كردفان ولذلك ارتبط اسمه بأهل المنطقة في كردفان ودار الجوامعة الذين وفدوا على المنطقة عقب ذلك التاريخ. ولعل أشهر الوافدين هي ذرية أبناء حسن الأحمر، وهؤلاء كانوا قد استقروا شمال «أم روابة» في قرية الشيخ يس.

ويعتقد بأن الفكي يس توفي قبل عام 1784م ولكن المؤكد عندي أنه وقبل ذلك التاريخ السحيق كانت المنطقة تقطنها دار حامد أو هي كانت مسرح خلفي لهم للرعي والظعن كما كانت دار حمر كذلك بالنسبة للكبابيش وهو ما أدى إلى معارك مشهورة بينهما وهو كذلك ما أدى لحرب مشهورة بين فرع الجمرية من الجوامعة ودار حامد – وذلك امتدادا من منطقة أم دم حاج أحمد حتى مناطقهم في شمال كردفان.

والواقع والتاريخ يقول بأن دار حامد هم أقدم من سكن كردفان ومن قبل قبيلة الجوامعة التي كانت مساكنهم محصورة في أعلى غرب النيل جوار أبناء عمومتهم من الجمع بعد هجرة جدهم الكبير أحمد ود فهيد ود سعد الفريد نحو جيوش عبد الله جماع ضمن القبائل التي تجمعت في العرشكول حول زعامة الجعليين وعندي انه قد تبقت منهم طائفة قليلة حول منطقة بارا الحالية حول البئر المعروفة باسم بئر سرار، وهو أحد أجداد الجعليين. وفي ظني أنه في تلك الفترة، أي فترة قدوم جدنا الكبير لكردفان، لم يكن للجوامعة وجود في المنطقة بدليل أن جدنا عبد النعيم (ولده) اشترى أرضه من جيرانه النواهية وهم دار حامد قبل أن يحيط به الجوامعة من الجهات الأربع بعد ذلك.

كما أن من المؤشرات على عدم وجود سكان بالمنطقة هو نشوء حاضرة المنطقة نفسها أم دم حاج أحمد قبل أقل من مائة عام ولم تكن موجودة حينها ومن ثم نشأت حولها القرى والحلال الأخرى وفي ظني أن قبيلة الجوامعة بغضها وغضيضها لم تنتقل للمنطقة شرق الأبيض وشمال ام روابة إلا قبل المهدية بقليل (ربما خمسين عاماً) في التركية السابقة إذ ان معظم القبيلة كان يوجد حول منطقة بارا الحالية وهي مرتعهم الأصلي ولعل أول ناظر لقبيلة الجوامعة كان هو آدم حسن ومقره بقرية شريم الناظر قرب بارا محلية جريجخ الحالية إلى ان انتقلت إلى احمد عمر حوار الشيخ ناظر عموم الجوامعة واظنها لاتزال في ذريته ويتزامن ذلك كله أثناء أو بعد انتقالهم لغرب النيل على حدود الترعة الخضراء والعرشكول حيث دفنت زعاماتهم وجدودهم الجعليين والمعروف أن منطقة العرشكول بها مدافن جد الجعليين المعروف باسم مرخ أبو صبحة (شقيق سعد الفريد) وكذلك ولده حميدان وحفيده الملك غانم وحميدان هو جد الجعليين أولاد عرمان بنهر النيل وكذلك هو والد شايق جد الشايقية، كما أن غانم هو جد الرباطاب والجموعية والميرفاب والمناصير والبطاحين. وأما البديرية والشويحات والجوامعة والجمع فهم أعمام لهذه البطون؛ إذ أنهم من فرع أعلى حسب المشهور في روايات النسب السودانية والتي هي بالمناسبة بها الكثير من الأخلاط والأخطاء التاريخية، ولكننا نتعامل هنا بفن المتاح والمتعارف عليه.

يقول صاحب -مخطوط كاتب الشونة -أحمد بن الحاج أبو علي في مخطوطه إنه وفي عهد العنج وقبل قيام سنار في أول القرن العاشر الهجري لم تشتهر في بلاد السودان مدرسة علم ولا قرآن ويقال إن الرجل كان يطلق المرأة ويتزوجها غيره في نهارها بدون عدة إلى أن قدم الشيخ محمود العركي (رجل القصير) من مصر (والقصير هذا هو تصغير قصر). ويبدو أن الشيخ محمود العركي المذكور قد بنى له بيت من آجر أو حجارة كما هي الحال في مصر فسماه الناس قصراً وعلّم الناس العدة في الطلاق وسكن على ساحل النيل الأبيض. والعركي هذا تلقى العلم بالأزهر الشريف على الشيخين الناصر اللقاني، وشمس الدين اللقاني، وكذلك الشيخ محمد البكري الصديقي. والظاهر أنه أقام بمصر فترة طويلة، حتى عده بعض المؤرخين المصريين عالماً مصرياً، ثم أرسل سلطان الفونج في طلبه. وأما ساحل النيل المقصود فهي منطقة أليس القديمة والتي تعرف اليوم بمدينة الكوة جنوب شرق الدويم. وتاريخيا وكما ورد كذلك في مخطوط الطبقات لمحمد النور ود ضيف الله فإن منطقة أليس هي منطقة سكنى الشلك الذين تصاهروا مع الفونج، وقد طردهم بادي أبو شلوخ جنوباً العام 1088هـ، واضطرتهم كذلك الهجرات العربية للتوغل جنوباً حتى منطقة فشودة الحالية التي تعتبر مركزاً روحياً لهم ولكجورهم. وأحفادهم اليوم هم سكان النيل الأزرق من الهمج والفونج بعد أن خالطوهم في دولة سنار وقد ذُكر الشلك قديماً بوصفهم أو صفاتهم في كتب الرحالة العرب بغير اسم الشلك، ولكنهم عرفوا بسحرة المطر والزراعة! وعموماً وحتى لا ينجرف بنا الحديث لموضوع

آخر فقد ورد في كتاب الطبقات أن محموداً العركي قد أسس سبعة عشر مدرسة في الامتداد ما بين منطقة أليس وجبل أوليا (أولياء).

ولهذه الحقيقة عدة دلالات أهمها أن الشيخ محمود العركي قد وجد أساس ديني قائم في المنطقة ومعلمي قرآن وإلا لما استطاع أن يؤسس هذا العدد الكبير من المدارس القرآنية التي اندثرت كما قال صاحب الطبقات بسبب مرض الجدري والمجاعات التي اجتاحت المنطقة ولعل أهمها سنة أم لحم التي راح ضحيتها معظم قاطني الوسط وكذلك هجمات الشلك المتكررة على المنطقة ومن اطلع على مخطوط الطبقات يعلم أن كثير من شيوخ القرآن قتلتهم الشلك في هذه المنطقة وآخرهم إسماعيل الدقلاشي صاحب الربابة في عمر الأربعين سنة تقريباً ، وهنا وقبل ان اخوض في موضوع التعليم الديني في كردفان من المهم جداً الإشارة لمخالفة كثير من المؤرخين لما قال به كاتب الشونة حول جهل الناس قبل الدولة السنارية بأحكام الدين بمثل الصورة والكيفية التي رسمها في مقولته التي استشهدنا بها سابقاً. وفي تقديري أن كاتب الشونة لم يكن دقيقاً في وصفه ذلك لأسباب كثيرة حصر بعضها الدكتور يحي محمد إبراهيم في مؤلفه – تاريخ التعليم الديني في السودان – وهو مؤلف قيم اجتهد فيه الرجل ونال به درجة الماجستير من مصر العام 1978م ولعل عنوان مؤلفه و ما أوحى إلّي بفكرة الكتابة عن تاريخ التعليم الديني في كردفال القديمة، وذلك أنني أزعم أن صاحب الطبقات قد غمط التعليم الديني وتاريخه في كردفال حقه ولم يوله كثير اهتمام، ولعلنا نجد له العذر في ذلك الزمان لوعورة وصعوبة التواصل والحصول على المعلومات ولذلك ضاعت معظم معالم وتاريخ التعليم الديني في كردفال، ولا يكاد يعرف الدارسون اليوم إلا شذرات هنا وهناك من ذلك التاريخ الموغل في القدم. ولا أزعم أنني سوف أستل وأستخرج هذا التاريخ سلاً من كهوف غفوته وأقدمه للقارئ، ولكنها محاولة لعل وعسى أن تؤتي ثمارها عبر آخرين أكثر وعياً وعلماً بهذا التاريخ. كما أن تجاهل المؤرّخَين العظيمين أستاذنا الطيب محمد الطيب والدكتور يحي إبراهيم في تقديري لهذا التاريخ كان سبباً آخر محفزاً لهذا المقال حيث أن الأول في مؤلفه (المسيد) والذي اجتهد فيه حد الاجتهاد لدرجة زرعه ديار كردفان جيئة وذهاباً أكثر من مرة بالزيارات إلا انه في كتابه ذاك اعتمد على راويتين وعلمين من أعلام كردفان هما شيخنا موسى عبد المجيد والشيخ مشاور جمعة سهل عليهما شآبيب الرحمة والغفران، وهما من هما في الفقه والعلم وتاريخ كردفان إلا انه في تقديري الخاص فاتت عليهما بعض الحقائق وتداخلت التواريخ في رواياتهما خاصة تاريخ خرسي والقفلة وغيرها، وهو ما يحتاج لتصحيح وبيان، علماً بأن روايتيهما لم تتعد صفحات بعدد اليد الواحدة، في كتاب الأستاذ الطيب البالغة صفحاته قرابة الخمسمائة صفحة عن تاريخ التعليم الديني في كردفان مقارنة بما خصص لبقية الأقاليم السودانية، كما أن الدكتور يحي كذلك لم تتعد معلوماته عن التعليم الديني في كردفال القديمة مملكة تقلي وبعض المعلومات المنثورة هنا وهناك في كتاب الطبقات وهذا

وذاك من الأمور ازعم أنها حفزتني؛ لأبحث عن هذا التاريخ رغم شح المراجع المكتوبة، وأحاول هذه المحاولة آملاً ان يتكفل غيري من المتخصصين بإكمال هذه المعلومات عن تاريخ التعليم الديني في كردفال وتطوره؛ خاصة المنقول مشافهة وإثبات انه تاريخ لا يقل عراقة ولا قداسة عن تاريخ الوسط والشمال الذي عنى به كتاب الطبقات. وأما دارفور فلا يعرف لها تاريخ ديني إلا بعد قيام سلطنة الفور بعد أكثر من مائة سنة متأخرة عن سلطنة الفونج بالرغم من بعض روايات التنجر عن إسلام أسلافهم الذين حكموا قبل الفور والتي في رأي هي روايات شفاهية ضعيفة.

وإنني في كثير من الأحايين أزعم أن بذرة التعليم الديني في السودان- وكمثل سابقتها بذرة العروبة السودانية - انطلقت وكان منشؤها من كردفال على وجه التحديد ثم عمّت بقية ارجاء السودان خاصة وسط السودان الذي لم يكن معروفاً له تاريخ ديني سابق على قيام دولة سنار بعكس شمال السودان وتحديداً ديار الشايقية الحالية التي عرفت التعليم الديني مبكراً وكذا مناطق البديرية الدهمشية التي استقبلت الشيخ غلام الله بن عايد في أول أو منتصف القرن التاسع الهجري وهو جد الركابية من أولاد جابر الأربعة (إبراهيم ، عبد الرحمن ، إسماعيل و عبد الرحيم) والذين هم أول من أدخل تدريس كتاب مختصر خليل في الخلاوي السودانية ولم يسبقهم سابق لهذا الأمر.

يجب في المقام الأول وعند رجوعنا للمراجع الشفاهية أو المخطوطة حول التعليم الديني أن نضع كتاب طبقات ود ضيف الله في مقدمة تلك المراجع ومحورها لأن كل تاريخ السودان العربي والإسلامي في دولة الفونج مبني على هذا المخطوط ولذلك من المهم مراجعة بعض المفردات الواردة فيه فيما يتعلق بديار كردفال القديمة حيث ان صاحب الطبقات إعتاد على استعمال عبارات مثل (شيخ من الغرب) أو (شيخ غرباوي) وتأصيلها حيث أنك ستجد مثل هذه الإشارات متوافرة وبكثرة في ثنايا الكتاب مثل تعريفه بالشيخ عبدالله ود العجوز أو مدني الناطق أو الشيخ دفع الله ود مقبل وحفيده الشيخ دفع الله المصوبن ود أبو إدريس أو ود الطريفي وغيرهم كثر كان صاحب الطبقات يورد كلمة شيخ غرباوي من دار الغرب عند التعريف بسيرتهم وعمّن تلقوا العلم على أيديهم. وهنا يجب أن نفرق بين تعريف دار الغرب وهي الكلمة التي نتعامل بها اليوم ونقصد بها أمر محدد ومعين في زماننا هذا وتلك التي وردت في كتاب الطبقات إذ أن كاتب الطبقات كان يعني بكلمة الغرب أو دار الغرب منطقة محدودة جداً هي منطقة - بارا وبئر سرار ووسط كردفان تحديداً حتى جبل المليسا، وربما توسع البعض ليضم لها منطقة الحرازة أم قد كما في الرواية المشهورة عن الشيخ إدريس ود الأرباب كما يزعم صاحب الطبقات والتي قال فيها - دار الغرب يملكها سرايا فور من الحرازة أم قد الى الكنيسة الرقطاء، والكنيسة المعنية في غالب ظني تقع على حدود كردفان الشرقية مع النيل الأبيض جهة جبال أبو رادعة قرب منطقة الشقيق الحالية والله أعلم ، ولم تكن الكلمة عنده تشمل لا غرب كردفان ولا شمالها أو منطقة دارفور الحالية حيث أن غرب كردفان في ذلك التاريخ كانت

قفاراً لا بشر فيها؛ ولذلك عندما هاجرت المسبعات في بدايات دولة دارفور سميت بالمصبحات وذلك لاتجاههم صباحاً (شرق) حيث أن تلك الديار كانت خلاء وغير مسكونة بل كانت تعد من ضمن أراضي دارفور القديمة.

وأما دارفور نفسها فقد عرفت بهذا الاسم فقط بعد تكون سلطنتها بعد أكثر من مائة عام من قيام سنار ولكن القادمين منها لوسط السودان (داجو أو تنجر أو مساليت أو فور) وهم سكانها الأصليين بخلاف بقية القبائل الأخرى التي وفدت لها لاحقاً في أزمان متفرقة كانوا يعرفون عند الناس بالتكارير أو التكارنة بغض النظر عن أسماء قبائلهم القاطنة بها هذا بخلاف قبيلة النوايبة والتي هي اقدم قبيلة عربية سكنت دارفور اثناء حكم الداجو أو التنجر وذلك قبل قيام سلطنة دارفور المعروفة وهي اليوم فرع واحد فقط من قبيلة الرزيقات بخلاف بقية عرب دارفور الذين وفدوا من شاد وغرب افريقيا لاحقاً ولا يعرف لهم علاقة بالهجرات الدينية فقد كانوا أصحاب رعي وماشية فقط ولم يكن صاحب الطبقات يقصد بالتكارنة قبائل قادمة من نيجيريا او تشاد وهذا التفريق تأتي أهميته لإثبات ان الأشخاص الذين عناهم صاحب الطبقات (شيخ غرباوي) مقصود بهم تحديداً وحصراً اهل وسط كردفان عرباً كانوا أو عنج وكذا تكروني مقصود أنه من دارفور ولعل من اهم الشخصيات التي أشار لها كتاب الطبقات في هذا لأمر هي شخصية الشيخ دفع الله بن مقبل العركي حيث ذكر انه قدم من دار الغرب وحدد موقعه انه من - بئر سرار - والتي هي منطقة خرسي الحالية شرق بارا وقدم معه شيخ آخر دفن بمنطقة أنقاوي بديار الشايقية وأحفاده بالهلالية هو الشيخ محمد فكرون أبو الشيخ شرف الدين أنقاوي وما يهم في الأمر هنا هو - تاريخ حضور الشيخ دفع الله العركي جد العركيين الآن بابي حراز – وذلك انه قدم من دار كردفال وكان رجلاً عالماً ولم يكن حينها يُعرف لا في وسط السودان ولا حتى في شماله مدارس علم بشهادة مخطوط كاتب الشونة وكتاب الطبقات - إلا ان الشيخ دفع الله بن مقبل العركي تعلم العلم حيث ولد بديار كردفال – بئر سرار - في اول القرن الهجري العاشر ومن ذلك يتضح انه قد اكتسب علمه ذاك الذي جعله احد الفقهاء والعلماء الذين استشهد بتاريخهم كاتب الطبقات بحيث يتضح ان دار الغرب او كرفال القديمة كانت ديار علم وعلماء قبل ان تنشا الطرق الصوفية في السودان وقبل ان تنشأ الطريقة القادرية نفسها كأول طريقة في السودان والتي نمت وترعرعت على يدي ولده قاضي العبدلاب عبدالله العركي في عهد الشيخ عجيب المانجلك ا لذي قتله السلطان عدلان ولد آيا في كركوج ود عمارة العام 1016هـ برواية كاتب الشونة وهنالك روايات أخرى وبرغم انني لم أعثر على تاريخ علمي دقيق لولادة او وفاة الشيخ دفع الله بن مقبل أو الشيخ محمد فكرون إلا ان الشيخ الفقيه عبد الرحمن بن جابر حفيد غلام الله بن عايد والذي تعلم على يديه الشيخ عبدالله العركي ابن الشيخ دفع الله بن مقبل لعبدالرحمن هذا مخطوط وإجازة علمية لأحد تلاميذه يدعى إبراهيم ود أم رابعة خطها له في العام 982هـ مع ملاحظة أنه أصغر من دفع الله بن

مقبل والذي توفي ابنه وولده عبدالله العركي العام 1010هـ فيما يعتقد ولذلك فأعتقد ان التاريخ الذي ذكره احد مريديه (956هـ) لوفاته- ولكن دون ان يقدم دليلاً عليه - يكاد يكون تاريخاً معقولاً لتاريخ وفاته فإذا قلنا انه توفي في السبعين من عمره وقد اشتهر هؤلاء المشايخ بالعمر الطويل فيكون ميلاده قد كان نهاية القرن التاسع الهجري (885هـ) وبذا فيكون القرن التاسع الهجري (800هـ) قد شهد نشوء مدارس علمية وقرآنية في دار كردفان تعلم فيها المشايخ محمد فكرون وعبدالله بن مقبل قبل ان يهاجرا الأول لأبيض ديري بديار الجعليين فرع الجميعاب والثاني لمنطقة أنقاوي قرب الزيداب بديار الشايقية ومن بعدها رحل احفادهما للهلالية ومنطقة أبو حراز الحالية ولا يعرف تاريخياً بمنطقة وسط السودان او الجزيرة نشوء خلاوي تعليم قرآن في هذا التاريخ أو قبله إلا في منطقتين هما أربجي وتاريخها العام 880هـ والتي انشاها حجازي بن معين وهو يعتبر كتاجر وقائد عسكري اقرب منه للمعلم الديني ولم تنشأ المدينة فيما أعلم لغرض ديني بل تجاري وسياسي بحت وكذا مسيد وخلوة ود عيسى الأنصاري في منطقة كترانج ثم مدارس غلام الله بن عايد في دار البديرية (850هـ)ويلحق بهم البعض (الدكتور محجوب برير محمد نور) الشيخ حامد أبو عصا إلا أنه من المعروف تاريخياً تلقي الشيخ حامد أبو عصا العلم على يد الفقيه الأصولي محمد المضوي المصري القناوي (هو سوداني بالمناسبة رغم اسمه) الذي كان معاصراً للفقيه العالم عبد الماجد الأغبش. والسلطان أونسة ولد ناصر المتوفي 1010هـ وهو تاريخ متأخر عما ذكرنا.

وتعد دار الغرب أو دار (كردفال) من أعرق مناطق السودان في التعليم الديني وكانت سابقة لغيرها، بل إن كتاب الطبقات يذخر بذكر قصص الشيوخ مع معلميهم القرآن والذي كان يشير إليهم (علمه شيخ من الغرب أو كان يضربه شيخه الغرباوي أو قال شيخ من دار الغرب. وهكذا فانت ترى أن من تولى التعليم ضمن خلاوي تعليم القرآن والفقه كانوا هم شيوخ كردفال الذين أشار لهم صاحب الطبقات في ثنايا تعريفه بشيوخ كتابه وإذا كان الشيخان عبدالله بن مقبل ومحمد فكرون مثالاً للشيوخ ما قبل السلطنة او مع بداياتها فخلال تاريخ السلطنة وبرغم هجرة السكان في ذاك التاريخ هجرة عكسية من كردفان للوسط (راجع كتاب الفحل الفكي الطاهر) ليكونوا بقرب السلطة والثروة في وسط السودان فحينها فقط نشأت المدارس الفقهية والعلمية والتصوف في الجزيرة ووسط السودان ويعتقد ان الشيخ تاج الدين البهاري لم يصل السودان إلا في الربع الأخير من القرن العاشر (977هـ) في أول ملك الشيخ عجيب المتوفي 1019هـ في رواية العبدلاب وبعد مرور قرابة المائة عام على ولادة الشيخ الكردفاني دفع الله بن مقبل العركي ومكث في السودان سبع سنوات وقال لتلاميذه ان هذا الأمر لن يتم إلا بعد مرور سبع سنوات أي أن اول طريقة قادرية (الأقدم في السودان) لم تنشأ إلا بعد العام (991هـ) سواء تحت كنف الشيخ محمد الهميم – راجل المندرة - او الشيخ بانقا الضرير في سنار وهما من تلاميذ البهاري ثم جاء بعدهما الشيخ عبدالله

العركي المؤسس الحقيقي لأقدم طريقة صوفية في السودان وهو تلميذ الشيخ حبيب الله العجمي البصري تلميذ البهاري أيضاً وخليفته في العراق ويقال انه كتب مقدماته في الفقه (لاحظ حبهم للعلم والتدوين) وفرغ منها في العام (1007هـ) وبذلك فتكون دار كردفان سابقة بسنوات عديدة ربما تجاوزت المائة سنة للتعليم الديني في وسط السودان وكثير من مناطق الشمال ولعل لهذا السبب أشار كاتب الشونة لما أشار إليه بخصوص مقالته تطليق الرجل زوجته والعقد والدخول عليها في نفس اليوم من آخر في مجتمع دولة سنار التي انتشر فيها العلم بعد مرور عشرات السنين على تكوينها على يد الشيخ عجيب المانجلك المشهور (بعجيب الكافوته) بعكس ديار كردفان التي كانت تصدر العلماء ومدرسي القرآن للوسط والشمال واما احفاد غلام الله بن عايد فقد اشتهر منهم كذلك إبن بنته فاطمة بنت جابر الشيخ محمد بن سرحان المشهور بصغيرون وذريته ولا يعرف لأخواله الذكور ذرية سارت في ركاب العلم بعد تدريسهم لخليل والذين يعود الفضل لهم في نشره في سائر مدارس العلم في السودان وقد شارك علماء وفقهاء كردفان إخوتهم الآخرين في بقية انحاء السودان في بث العلم ونشره إلا انه وكما سبق ان نوهت فقد عميت علينا اخبارهم اللهم إلا فيما بثه كاتب الطبقات هنا وهناك او تناقلته الألسن وعوداً على بدء فأعود لواحد من العلماء الكردفانيين أعده شخصياً من اقدم الشيوخ الذين أنشأوا خلاوي تعليم وتدريس القرآن في كردفال وهو الشيخ محمد ود جودة الله والذي ذكرت جانباً من تاريخه ونسبه في المقالة الأولى حيث لم يرد ضمن كتاب الطبقات من الشيوخ الكردفانيين او شيوخ دار الغرب من هو اقدم منه إلا الشيخ دفع الله بن مقبل المذكور أعلاه والذي بينه وبين الشيخ جودة الله قرابة الستين سنة لا نعلم فيها عن تطور وبنية التعليم الديني في كردفان شيئاً اللهم إلا ما ورد شحيحاً عن الشيخ عبدالله الحمّال وهو جد الشيخ حمد النحلان ود الترابي حيث ذكر صاحب الطبقات ان الشيخ تاج الدين البهاري ذهب لمنطقة تقلي حيث سلك الشيخ عبدالله هذا الطريق والذي كان ينشط حينها في بث العلم وسط التكارير في جبال تقلي ثم هاجر بعدها من تقلي واستقر بمنطقة شمال الكاملين قبل إنشاء قرية ود الترابي المعروفة التي شهدت مولد ابنيه حمد ونمه المذكورين بالتفصيل في كتاب الطبقات ، علماً ان الشيخ جودة الله هذا تعلم العلم في منطقة عبود واخذ علم الفرائض على الشيخ القدال بن إبراهيم بن بطيخة الفرضي وهو أشهر علماء الفرائض السودانيين وابن الشيخ إبراهيم عبودي مؤسس قرية عبود قرب المناقل الحالية وأحد تلامذة الفقيه عبد الرحمن بن جابر الركابي وكما ذكرنا سابقاً فجودة الله من قبيلة بني محمد وقد قرن معه صاحب الطبقات شيخاً آخر من دار كردفان هو الشيخ جودة ولد دومة او دوما كما كتبها هو وأظنها (الدومة) وهي لفظة كردفانية منتشرة وسماهما معاً (فقيها كردفان) ولكأنه لا يعلم حتى تاريخ وفاته احد اعلم منهما في الفقه في كردفان وهو ما يدل على جهله بتاريخ المنطقة وهو جهل معذور فيه للصعوبات التي نوهنا بها وإلا لكنا حظينا بتاريخ مميز لفقهاء وعلماء كردفان

وجودة الأخير هذا من بني عمران كما صرح بذلك صاحب الطبقات ولعلي هنا أشير إلى ان بني عمران المقصودين ليسوا هم بني عمران فرع قبيلة المسيرية إذ انه في ذلك التاريخ لم يكن لهم وجود في كردفان أو حتى السودان كما انهم لم يكونوا ضمن فروع قبيلة المسيرية والتي انضموا لها حديثاً وبعد هجرتها لكردفان والتي حدثت في نهايات القرن الثامن عشر الميلادي بل وقدموا عبر وداي (تشاد) وتونس كما ذكر المؤرخ إبراهيم إسحق وإن كانت هنالك مقولة تنسبهم لصعيد مصر ولذلك اعتقد ان بني عمران هؤلاء كانوا من بقايا القبائل العربية كبني محمد المذكورين الذين كانوا مستقرين حول منطقة بارا وبئر سرار وهي قبائل اندمجت في قبائل أخرى او اندثرت بفعل تقادم الزمان كما حدث لبني فزارة مثلاً فانت اليوم لا تعلم عن بني فزارة إلا انهم قبيلة مندثرة لا وجود لها اليوم في كل نواحي السودان وتوزعوا وتفرقوا أيدي سبأ فصارت منهم دار حامد وبني جرار والبزعة والشنابلة والمجانين والمعاليا وهكذا. ومع أن كتاب الطبقات ملي بسيرة بني فزارة حيث كانت نسائهم تلميذات نجيبات للشيخ حمد ود أم مريوم كما إنهم كانوا حواريين لشيخ كردفاني آخر سترد سيرته هو مكي الدقلاشي والمختار شارح الأخضري وذكرهم كذلك الرحالة اليهودي داؤود روبيني عند زيارته للسلطنة في سنار العام 1525م الموازي للعام 931هـ وعموماً فإن تاريخ فقيهي كردفان جودة الله وجودة ولد دوما وبرغم إيراد كتاب الطبقات له كتاريخ واحد إلا ان الثابت ان الشيخ جودة الله من بني محمد أوى إليه شيخه القدال الفرضي في قرية الزلطة شرق أم دم حاج أحمد الحالية سنة أم لحم (1095هـ) مما يعني انه كان في الأربعين او الخمسين من عمره آنذاك وتوفي حسب تسلسل الأحداث أوائل القرن الثاني عشر الهجري حيث خلفه ولده الفقيه المعروف مختار شارح الأخضري و الذي قتل مظلوماً 1135هـ تقريباً من قبل سلطان المسبعات جنقل ولد بحر حفيد محمد تمساح واحمد كورو بحسب روايات المسبعات لمكمايكل في كتابه عن قبائل وسط كردفان واما الفقيه ولد دومة فهو تلميذ للشيخ الزين بن الشيخ صغيرون حفيد أولاد جابر الأربعة وزامل فيها من الشيوخ المعروفين الشيخ خوجلي ابو الجاز والشيخ بدوي أبو دليق والشيخ ضيف الله الفضلي جد صاحب كتاب الطبقات وعموماً فإن الشيخ الزين توفي العام 1086هـ فهو في مقام الشيخ جودة الله وربما كان اكبر منه قليلاً ولذلك فولد دوما يعد في مقام وعمر الشيخ المختار شارح الأخضري تلميذ جودة الله وليس نديداً للشيخ جودة الله أي أنه تالي له في العمر والمعاصرة والمعروف ان مرابعه ورفيقه في خلوة الشيخ الزين الشيخ خوجلي أبو الجاز توفي في العام 1155هـ وما بين وفاة الشيخ خوجلي ووفاة جودة الله أكثر من خمسين سنة ولذلك فكل من مختار شارح الأخضري وولد دوما كانا في زمن واحد بدار كردفان فمختار شارح الأخضري تلميذ والده جودة الله وولد دوما تلميذ الشيخ الزين تعاصرا وكانا في زمان واحد وكذلك من فقهاء كردفان التاليين للشيخ جودة الله والمعاصرين لنفس تاريخ مختار شارح الأخضري وولد دوما المذكورين

الشيخ الصوفي الشاطح جداً وأحد الذين بسبب تاريخهم وأفعالهم وأقوالهم لا يزال ينتقد ويحارب كتاب الطبقات من كثير من السلفيين وهو الشيخ الكردفاني مكي الدقلاشي تلميذ الشيخ المعروف دفع الله المصوبن المتوفي العام (1094هـ) عن (91 سنة) وقد قيل ان المصوبن ظل سبعين سنة في التدريس منذ كان عمره واحد وعشرون عاماً ورفض دخول سنار في حياته لمقابلة الملوك حتى اضطر سلطان الفونج بادي ولد رباط بنفسه لزيارته وهو علم من اعلام فقهاء الصوفية الذين وجب إعادة قراءة تاريخهم وعلى العموم فتلميذه مكي الدقلاشي له قصة معروفة في تمزيق المصحف أثناء (جذب وغرقان المتصوفة) ومن شعره قوله وهو في تلك الحالة : أنا من يوم قمت سموني الهايم مأذوناً لي أب جنّاً قايم - وكان صاحب دنيا عريضة كما وصفه ود ضيف الله في الطبقات سكنه يجبي جبل أبو رادعة من جهة كردفان وصاهر سلطان تقلي - سابوا – فزوجه بنته التي أنجبت له ولده المعروف باسم إسماعيل الدقلاشي - صاحب الربابة - وهو شيخ صوفي شاطح كذلك عندما تقوم عليه الحالة يضرب ربابته ويتغزل في نساء سنار (سبحان الله) وأمثال الشيخ مكي وابنه إسماعيل كثر في كتاب الطبقات الذي حوى الغث والسمين ولكنه سجل بصدق تاريخ السودانيين في ذلك الزمان والشيخ مكي الدقلاشي هذا اخذ كتبه وأحد ابناءه ودخل الخلاء ولا يعرف ما صار عليه حتى اليوم وعثرت عرب فزارة على ولده الصغير في منطقة الحرازة ام قد بشمال كردفان منطقة الجبال البحرية وأعادوه وسكن ابنه إسماعيل المذكور دار أبيه وحفظ القرآن على خليفته الشيخ محمد منوفلي ثم تعلم الفقه وتدريس الرسالة على يد الشيخ مختار شارح الأخضري كما ان صاحب الربابة قد سلك الطريق الصوفي على الشيخين أبو عاقلة العركي حفيد دفع الله المصوبن وكذلك الشيخ الكردفاني " مختار ولد أبو عناية " وهو من قبيلة الجوامعة فرع "الجماملة" بشرق كردفان في رواية دكتور خالد فرح وقد نص صاحب الطبقات على أن الشيخ إسماعيل صاحب الربابة ، قد حصل له الفتح في أول خلوة دخلها عقب سلوكه على الشيخ مختار ود اب عناية ، الذي كان قد سلك بدوره على يد الشيخ طه بن عمار القرني بالجزيرة ولذلك فيعد المختار أبو عناية وأخوه الأخرش أبو عناية كذلك من فقهاء كردفان التاليين للشيخ جودة الله والمعاصرين للمختار شارح الأخضري والشيخ جودة ولد دوما ومن تلاميذ صاحب الربابة النور الرياشي (نسبة لقبيلة الرياشية بكازقيل) وقد قتلت قبائل الشلك بمنطقة اليس إسماعيل صاحب الربابة وعمره نحو اربعين سنة ويقال ان الدكتور الشاعر محمد عبد الحي عليه الرحمة كان معجباً بتاريخ صاحب الربابة هذا واستلهمه في كثير من أشعاره ونثره ، ومن الغريب ان إسماعيل الدقلاشي وبرغم شطحه له مؤلف محفوظ بدار الوثائق القومية في شكل مخطوط عن صفة الأولياء وآداب الذكر بعنوان (كتاب طريق أهل الله).

ولا يفوتني هنا ان أورد بيتاً من شعر غزله في الماجديات والكرتانيات اللائي سكنّ في قريته وإحداهن تدعى هيبة وأخرى تدعى تهجة واللائي قال فيهن :

صــب مــطــر الــصــعــيــد وصــــاح الــمــغــرد
خــفــيــف الــقــلــب مـــن الــكــعــكــاع مــعــرد
خـــشـــم تـــهـــجـــة عـــن الـــكـــذب مــجــرد
مــريــســتــه فــتــريــتــه ووردا مــتــرد
الـــنـــســـوان بــــلا هــيــبــة أم قــلايــد
لــحــم ســـوق رخــيــص مــشــتــر بــحــدايــد
مــهــرة الــضــنــقــلاوي الــمــكــنــوز ضــهــرهــا
تــعــافــي الــمــورود الــداخــل كــجــرهــا

وطبعاً دون تعليق مني على شعر وأقوال صاحب الربابة في هذه المقالة تحديداً لعدم الخروج عن هدفها المقصود وإن كان صاحب الطبقات التمس لشيخه العذر وسمى شيخه وأشار إليه على انه من الملامتية الذين يفعلون اللوم في ظاهر الشرع توبيخاً وهضماً للنفس لينكر عليهم الناس بحسب تبريره الذي يخالف عندنا ظاهر الشرع إلا أننا نورده كتاريخ فحسب –ثم أقول مواصلة للموضوع ومن علماء كردفان الذين يشار لهم بالبنان الشيخ غانم ابو شمال ويقال ان قبره موجود بأم ديوان شمال أم روابة وقد عرفه صاحب الطبقات بقوله عنه {الجامعي الكردفاني شرح السنوسية شرحاً مفيداً قال قرأنا التوحيد عند الفقيه علي ود بري وادركنا وفاته وبعده بدأنا القراءة عند الفقيه أرباب وبعدنا بقيت مدرسة عظيمة} ومفهوم هذا الكلام أنه بدأ الدراسة عند أستاذ علم العقيدة والتوحيد الأشهر في زمانه الشيخ علي ود بري (أستاذ وشيخ أرباب العقائد صاحب مسجد فاروق المشهور بالخرطوم) في ذلك التاريخ القديم والمتوفي العام 1073هـ ومنه جاء اسم أرباب العقائد لتعلقه بتدريس علم العقائد التي أخذها عن شيخه علي ود بري. ومن الواضح من كلام الشيخ غانم أبو شمال انه كان تلميذاً مبتدأً عند الشيخ علي ود بري في العام 1073هـ وربما لم يتجاوز عمره العشر سنوات فيكون من مواليد العام 1060 تقريباً وقد أكمل تعليمه عند الشيخ علي بن عون ارباب الخشن أو أرباب العقائد والذي يتضح أيضاً أنه كان تلميذاً عند ود بري ولكنه كان تلميذاً كبيراً وربما أستاذاً في مدرسة علي ود بري ثم انفصل بنفسه حيث جاء في ختام إفادة الشيخ غانم (وبعدنا بقيت مدرسة عظيمة) أي أن مدرسة الشيخ ارباب العقائد أصبحت مدرسة مشهورة بعد ذلك ولذلك فأنا هنا أعد الشيخ غانم أبو شمال من زمرة شيوخ كردفان المعاصرين للشيخ مكي الدقلاشي وجودة ولد دوما والمختار والأخرش ولدا أبو عناية فجميعهم كانوا تقريباً في نفس العمر وتعاصروا كذلك مع الشيخ الكردفاني من قبيلة بني محمد المذكورة سابقاً عبدالله ود العجوز وهو وإن كان كردفانياً إلا انه عاش وتعلم في سنار ومات فيها وقال صاحب الطبقات عنه (وهو أحد الأربعة الذين هم في عصر واحد وانتفعت الناس بطريقتهم

وجاههم الشيخ بدر ابن الشيخ أم بارك في بلاد الصبح والشيخ محمد ابن الطريفي والشيخ خوجلي في السافل والشيخ عبدالله ولد العجوز في الصعيد وقد اندرس الطريق بموتهم) وقد سبق ان ذكرنا ان الشيخ خوجلي أبو الجاز المولود (1065هـ) والمتوفي (1155هـ) والذي كان في عصر واحد مع عبدالله ود العجوز كما ذكر صاحب الطبقات هو كذلك زميل الشيخ جودة ولد دوما عند الشيخ الزين ود صغيرون ويطابق عمره كذلك عمر الشيخ غانم أبو شمال (1060 هـ تقريباً) ويصغران قليلاً عن كل من الشيخين مختار شارح الأخضري توفي (1135هـ تقريباً) ومكي الدقلاشي وأولاد أبو عناية وهما مختار (عنه وعن شارح الأخضري أخذ الفقه والتصوف إسماعيل صاحب الربابة) وكذا الأخرش أخوه ، وقد أخذ الشيخ ود العجوز العلم على يد شيخه المسلمي الصغير ود أبو ونيسة والمسلمي هذا زميل للشيخ جودة الله ولد محمد في مدرسة الشيخ القدال الفرضي لذلك فود العجوز وشارح الأخضري أنداد تقريباً كلاهما تلقى علمه عن شيخه الذي تلقى علمه بدوره عن نفس الشيخ (القدال الفرضي) ثم هنالك فقيه آخر سكت عن التعريف به صاحب الطبقات وإن كان أشار له عند التعريف بالشيخ المسلمي الصغير وهو الفقيه سلامة من دار كردفان وقد جهدت في البحث عن تعريف به ولم أجد إلا الفقيه سلامة في منطقة البنية قرب زريبة الشيخ البرعي ولا أدري هل هو المقصود أم انه شيخ آخر وليت من يملك معلومة عله يفيدونا. وعموماً فقد كان سلامة هذا زميلاً للشيخ ود العجوز لدى الشيخ المسلمي وتلقيا العلم عنده ويعرف عن الشيخ مختار أبو عناية انه ظل يبث دعوته في منطقة الجبال الشرقية وتوفي بها كما عرف عن الشيخ ود العجوز الذي كان يحلف بشيخه المسلمي (وحات المسلمي) في الأمور العظيمة حتى قيل له في ذلك فقال قولته المشهورة عنه (فلولا ربي ما ربى المربي ولولا المربي ما عرفت ربي).

وفي ظني أن هذا هو العصر الذهبي للتعليم الديني في كردفان إذ تعاصر فيه مجموعة من أشهر العلماء في الفقه والتصوف في السودان من دار الغرب هم جودة ولد دوما والمختار شارح الأخضري ومكي الدقلاشي والمختار واخوه الأخرش أولاد أبو عناية وغانم أبو شمال والفقيه سلامة وود العجوز وكان قبلهم الفقيه جودة الله ولد محمد والشيخ عبدالله الحمال والشيخ دفع الله بن مقبل العركي والشيخ محمد فكرون وقد أعقب هؤلاء جميعاً الشيخ بشير ود البرد المدفون بمقابر ود البرد المعروفة بمدينة الأبيض والذي كان احد تلاميذ الشيخ محمد ولد الطريفي - المعاصر للشيخ فرح ود تكتوك - والمعروف انه توقف عن التدريس في العام (1154هـ) وخول ابنه الشيخ يوسف أبو شرهـ التدريس مكانه فإذا كان ود البرد احد تلاميذه كما ذكر ود ضيف الله فهو يصغر مجموعة المشائخ الذين ذكرت سابقاً وليس صحيحاً ما أورده الأستاذ الطيب محمد الطيب على لسان شيخنا المشاور جمعة سهل ان تاريخ خلاوى ود البرد في الأبيض يعود للعام (1050) إذ انه في هذا التاريخ لم يكن شيخه ولد الطريفي نفسه مولود ناهيك عن ولد البرد .

في تاريخ التعليم الديني تختلط لديّ بعض المعلومات عن تاريخ خلاوي خرسي والتي يقال إن مؤسسها هو الشيخ يس ولد عبد الهادي ولد دوليب في العام 1200هـ ورواية أخرى العام 1120هـ ورواية ثالثة العام 1756م الموافق لتاريخ (1169هـ) وذلك عندما أقطعها إياهم – أي الدواليب السلطان أحمد أبو القاسم أخ السلطان أحمد بكر والد السلطان تيراب المتوفى 1785 والسلطان عبد الرحمن الرشيد المتوفى 1803 ووالد السلطان محمد الفضل الذي عاصر عالماً آخر من علماء كردفان هو القاضي عربي أحمد الكنان حفيد الشيخ بشير ود البرد ولا نغادر محطة أولاد البرد دون الإشارة لحفيد آخر هو شاع الدين ود البرد – راجل أم رسوة ريفي أم روابة الحالية والجوغان وإنقليتي ويقال إنه هو من أطلق اسم (أم الروابي) على المنطقة – وابنه هارون الذي جعل من رسالته نشر الإسلام في تقلي ووسط القبائل الوثنية ، والمعروف ان صاحب الطبقات لم يعرف بالشيخ عبد الهادي ولد دوليب وإن كان قد ذكره في سيرة شيوخ آخرين إلا انه عرّف بولده نابري وذكر انه اخذ الطريق عن محمد ولد الطريفي فإذا كان شقيقه يس مؤسس الخلاوي أصغر منه او قريباً منه في العمر فلا شك انه من عمر وسن الشيخ بشير ولد موسى البرد والشيخ يوسف الطريفي أبو شرهـ المولود (1133هـ) فيكون تاريخ (1120هـ) أرجح من تاريخ (1200هـ) المتأخر جداً خاصة وأن الشيخ يوسف ولد الطريفي كان صغيراً عندما سلك مكان والده (21 سنة) والله اعلم ، ومن أبرز الطلاب الذين أخذوا العلم على يدي الشيخ محمد ود دوليب، هو شيخ الإسلام الشيخ محمد ود البدوي الذي أخذ العلم على يد الشيخ إبراهيم شريف الدولابي الذي أخذ العلم على الشيخ محمد ود دوليب ووالده العالم المعروف بدوي أبو صفية راجل الأبيض وراجل جبل طاشين بجنوب كردفان (بدوي أبو شنب) المتوفي العام 1180هـ وتعلم في كترانج ويعتبر الشيخ بدوي أبو صفية هو رائد تعليم النساء في السودان بعكس ما هو سائد ومعروف ان رائد تعليم النساء هو الشيخ بابكر بدري ولقد اعترف الشيخ بابكر بدري في مقال له في ستينيات القرن الماضي انه اخذ الفكرة من الشيخ بدوي أبو صفية الذي كانت له مدارس لتعليم النساء الفقه والقرآن في التركية السابقة ، وكذلك من شيوخ كردفان الشيخ عمر الصافي (راجل الكريدة) المولود بقرية الروكب ريفي بارا - فيقال أن أستاذه هو الشيخ برير ود الحسين (راجل شبشة) المولود كذلك بقرية هجام ريفي ام دم حاج احمد بحسب رواية الدكتور خالد فرح - فيما يعتبر الشيخ عمر الصافي هو أستاذ الشيخ محمد ود وقيع الله والد برعي الزريبة عليه الرحمة وكذا الشيخ محمد ود الزاكي التجاني الكردفاني تلميذ ود دوليب ورفيقه و الشريف الحسين بن عمر دفين أبي زبد بغرب كردفان وقد استفاض الأستاذ الطيب محمد الطيب في كتاب المسيد في ذكر جملة من الخلاوي بكردفان على لسان الشيخين موسى عبد المجيد ومشاور جمعة سهل مثل خلوة الشيخ ود حليب في البيضا وخلوة الشيخ الكناني في البُقُل والشيخ إسماعيل بن عبدالله الولي راجل القبة وهو أشهر من أن يشار إليه هنا وكذلك خلوة الشيخ أحمد بيوضة بالمليحة وخلوة الشيخ يونس المجنوني بالمزروب

1231هـ وخلوة الشيخ محمد ود كدام وخلوة الشيخ حامد عبد الحفيظ وخلاوي البرداب بريفي الدلنج وخلوة دميك الشيخ مختار وقعر الحجر بالدلنج وخلاوي الشيخ محمد أحمد أبو عزة والشيخ البرعي بالزريبة وغيرها من الخلاوي المنتشرة في ربوع كردفان، وهكذا فأنت ترى الامتداد التاريخي الذي لم ينقطع لسيل التعليم الديني في كردفان كأقدم تعليم ديني امتد أثره ليشمل كل ربوع السودان ولا يزال يحتاج لجهد بنيه الخلص لتبيانه وتوثيقه والله من وراء القصد.



المؤلف في سطور

محمد التجاني عمر قش

من مواليد: 1956

مكان الميلاد: قرية دميرة - ريفي بارا – ولاية شمال كردفان

التعليم: مدرسة دميرة الأولية : 63 – 1968م

مدرسة بارا الوسطى: 69 - 1974م

مدرسة خور طقت الثانوية: 74 - 1977 م

. جامعة الخرطوم - كلية التربية قسم الآداب، لغة إنجليزية وفرنسية

. عمل بالتدريس في المملكة العربية السعودية

. وعمل بتطوير المناهج والتدريب

. يعمل بالترجمة حالياً

. كاتب في صحيفة الخرطوم والإنتباهة والسوداني، وبعض الصحف والمجلات الأخرى

. لديه عدد من المؤلفات والترجمات تحت الطبع

. مهتم بالتراث والتاريخ والسير والثقافة